

الدكتور
أسعد حمدي علي



15.2.2016

تهذيب المقدمة اللغوية للعكلايلي

الدكتور
أسعد أحمد علي

تهذيب
المقدمة اللغوية
للكلاسي

دار السؤال للطباعة والنشر دمشق

تَهْدِيَةٌ
المقدمة للغويّة
للمكلايليّ

دارالسؤال للطباعة والنشر بدمشق

ص.ب : ٩٠٢٥

هاتف : ٤١٤٩٨٥

برقيا : السؤال

الطبعة الثالثة
١٤٦ هـ - ١٩٨٥ م

مقدمة التهذيب

حدثني أبو بلال ، فراهيدي^١ ، عصرنا ، الشيخ عبد الله العلابي .
— قال : إني وضعتُ « مقدمة » لدرس لغة العرب . لتكون هدايةً للمجامع اللغوية العربية . لا لتوضع في التداول .

— قلت : المجامع فروعٌ ، وإنما القراء هم الأصل ، وسيرورة الفكرة الجديدة وقفٌ على التداول . كما تعرفون ... وقد أغريتُ بهذا الكتاب عدداً من المعلمين^٢ ، والطلاب لأنه من أقدم الكتب الحديثة ، التي طرحتُ فقهَ اللغة طرْحاً جديداً . وكشفت مستعمرات الداء في لغة العرب . وقربت الدواء الذي يكفل للعربية الشفاء والبقاء والنماء ... ولأن فكرة الكتاب التطورية — « تُعطينا

(١) هو أبو عبد الرحمن ، الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي ، أكبر علماء زمانه في العربية ومختلف علومها ، وأشدهم ذكاء ، وأخصبهم عبقرية .
وهو المؤسس الحقيقي لعلم النحو العربي ، الذي وضعه سيبويه في كتابه بعد أن تلقاه عنه وتعلمه عليه . وهو الذي استنبط علم العروض . وألف كتاب (العين) ، أول معجم في اللغة العربية . ويرى البعض أنه وضع فكرة المعجم وابتدع طريقة ترتيبه . ثم نفذ الفكرة الليث بن المظفر . ذلك أن الخليل كان من المبصرة الأفذاذ وكان الذي يأخذ عليه لبه إنما هو الرغبة في الاستنباط والاختراع في اللغة والنحو والصرف والعروض والموسيقى والحساب . ومن المعلوم أن المبصرة المخترعين يكتفون عادة بنجاح الاختراع ويتركون لسواهم تفاصيل التنفيذ .

حركة التأليف عند العرب ، أجد الطرابلسي . ص ٢٥ .
— تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان . ج ٢/ص ١٣١

(٢) وأخص بالذكر منهم ، الطلاب المتهين من جامعة بيروت العربية . والذين أسعدني الإشراف عليهم في الدروس التطبيقية التابعة لمعهد المعلمين العالي في الجامعة والذي يؤنس ما أبداه بعضهم من تعاطف مع الفكرة كالأستاذ يونس السامرائي وأمثاله ...

المثلّ العلميّ لما نرجوه من أثر جليلٍ لإصلاح المنهج اللغويّ ، وُفتُحْ لنسّا الطريقَ السويّ الى معالجة مشكلات حياتنا اللغوية علاجاً أهدى بصيرةً ، وأصحّ تشخيصاً ، وأدقّ تناولاً... والكتابُ تيسيراً لنماء العربية ذلك النماء الذي نرجوه لها ونودّه بأيّ ثمن ، وأيّ جهد ... » كما يقول الاستاذ الخولي^١ .

وقد استجاب لإغراء المعرفة ، وغار على العربية ، نخبةٌ من طلابي في المقاصد الخيرية الاسلامية، في بيروت^٢ ، وصديق لي من دمشق^٣ . وقرروا اخراج الكتاب للناس ، وابتعته من مراقديّ المجامع اللغوية ، بعد ثلاثين عاماً من المهجوع الحالم^٤ .

وأظنّ أصدقائي ، طلاباً ، ودار نشر ، ومعلمين ، وقراء ، وأنا ... بل جميع الناطقين بالضاد - أظننا أصحاب حق مشروع في التسلّح بمثل خطراتكم العبقريّة . للدفاع عن كيانتنا اللغويّة . خصوصاً في هذه الحقبة من الزمن^٥ . فقد اتخذت لغتنا العربيّة - كما تقولون - غرضاً تتوّقع فيه النصالُ على النصال من فئات - وما أكثرها - لعبت بساحتها الأهواء . فهي عند نفيّ ، لغة شائخة

(١) مشكلات حياتنا اللغوية ، لأمين الخولي ص ٩٧ - ٩٨ / وهو مجموعة محاضرات ألقاها على طلاب « معهد الدراسات العربيّة العاليّة » ، التابع لجامعة الدول العربيّة . القاهرة ط ١٩٦٥/٢ .

(٢) من هؤلاء الشباب المؤمنين برهم ، النيورين على لغتهم ، الطامحين لإعلاء كلمة أسّتهم ... فئة اشتركت بالكتاب قبل صدوره ، فأسهمت بقسم من نفقاته ، توفيراً من المصروف اليومي الخاص . وحتى تبقى هذه البادرة وثيقة لهم وعليهم ، ليكونوا ابداءً رواداً وقادة وحماة .. نذكر أسماهم على صفحة مفردة بآخر هذا الكتاب ، بعنوان : شكر وعهد ..

(٣) هو السيد حسن نعمان ، صاحب دار النعمان بدمشق . والأستاذ النعمان ، معروف بغيرته على قضايا المعرفة عامّة ، وما يتعلق منها بفكر أمته خاصّة . بالإضافة إلى شهرته بالطف على طلاب العلم ، وسهره لخدمتهم . ومن الوفاء أن أسجل له شكري الوفيّ ، هنا . فقد عرفت هذا القلب الودود ، يوم كنت طالباً ، ولا أزال ... أخذ الله بيده ، ورعاه ، لتستفيد من نشاطاته الجمّة ، أجيال الطلاب والمعلمين . وهذه العلماء والمثقفين .

(٤) راجع ما كتبه أمين الخولي ، بهذا الصدد ؛ مشكلات حياتنا اللغوية . ص ١٠٢ /

(٥) راجع مقدمة الباب الأول .

منزوفة الطاقة والمائية ، لا تنهض بفكر ولا تجري في مضمار الحضارة إلى غايته حتى تلهث ، ويبطل فيها نبض الحرف ... وهي عند آخر ، لغة جاءت والصعوبة على موعد ، فالقاعدة فيها عصبية لا تلين ، والقانون النحوي إدراكي مشغل لا يتفق والاستجابات العفوية (١) .

وقد برأتكم العربية من هذه المزاعم ، في كتاب (مقدمة) ، وأثبتت سهولتها بحيث لا تجارها لغة أخرى ، إذا أخذت أخذاً عفويّاً صحيحاً .

— قال : ولكن كتاب (مقدمة لدرس لغة العرب) ، لا يطبع بشكله الحالي ... فحتى يستفيد الطلاب والقراء ، الفائدة المرجوة منه ، لا بد من تهذيبه وتقريبه . وعليك أن تفعل . ثم تنفذ فكرة أصحابك . وتطبع الكتاب بعنوان : تهذيب المقدمة اللغوية . للعليلي .

— حاولت الاعتذار عن هذا الصنيع ، رغبة مني في أمرين :
الأول : كسب ما يمكن من إضافات قد تخلقها العودة إلى كتاب كته من ثلاثين عاماً ، وأصدر بناء على قواعده ، معجمين ، هما ثروة لغوية لا نظير لها في معاجمنا العربية .

الثاني : الإبقاء على لغته « العلائية » بأسلوبها النقيّ المقرب . واللغة عنده غاية لا وسيلة .

وهناك أمر ثالث ، أخفيته عنه ، يومذاك . وهو الهرب من تجربة حسبتها — وقد كانت — شاقة . فطالما حدثني عن قصة « المقدمة » . كيف كتبها . وكيف نشرها . وكيف استقبلها الناس . وكيف أن مراجعها تجاوزت الستمائة عدداً . ولا تزال هذه المراجع حاضرة المسائل في ذاكرة الشيخ . يعرضها ويناقشها كلما سنحت لذلك مناسبة .

لم يكن عندي محلّ قبولٍ منه . ولم يكن بإمكانني التراجع عن فكرة بعث

(١) راجع مقدمة المرجع ، للعليلي .

الكتاب .. لأنَّ الفكرةَ صارت « شركةَ غيرة » على العربية ، ومظهرَ تقدير لهذا العبقريّ .

وهكذا عدتُ إلى « مقدمة لدرس لغة العرب » . أتأملُ في خاطراته ، ومسائله ... أتوقفُ مع ما يتصلُ بموضوعه من كتب ، ودراسات ، وآراء ... اسجلُ انطباعاتي عما يحظر لي من هنا وهناك . ألقى بعضها على طلابي . أناقشهم بها . ألاحظ الردود والاستجابات . أسجل مناحي تلك الردود . أجمعها وأفسرها كالمجرب . وطوال عامٍ دراسيٍّ من معاناة هموم « المقدمة » ، بيني وبين إخوة لي ، يتراوح مستواهم العلمي بين طلاب الصف الثاني من الابتدائي العالي ، وطلاب الدبلوم من المتخرجين في جامعة بيروت العربية . طوال هذا العام ، خلصتُ إلى ملاحظاتٍ مثيرة ، ونتائج مهمة . تحتاجُ إلى البحث على أفراد .

كإمكان الانتهاء من جميع فنيات اللغة ، في ختام المرحلة الابتدائية . وبذلك نوفّر على طلابنا كثيراً من الجهد والوقت . ونقتصدُ لبلادنا كثيراً من النماء والعطاء .

فقد جرّبتُ بعضاً من مسائل فقه اللغة ، على طلابٍ يبعدون عن الجامعة ، ست سنوات . كمسألة الاشتقاق بأنواعه الأربعة . وتوقفت معهم عند « الاشتقاق الكبير » ، بالطريقة التي أوضحتها عقليّة الشيخ العلايلي في كتاب « مقدمة » . ولم يُدهشني استيعاب هؤلاء الصغار لأعضل مسائل فقه اللغة بقدر ما أدهشني استصعابُ أساتذة الجامعة لها ، واعتبارُهم طريقَ الاشتقاق الكبير وعرّاً غير معبّد . (١)

عكفتُ على « المقدمة اللغوية » ، لعلّي أخرجها كرجبة صاحبها ، لإخراجاً سائفاً . يجعلُ مسائلَ العربية هينةً لينةً . يأخذها طلابُها بعفوية ويُسّر ، مهما ظنّ في صعوبتها ، كما أخذ طلابُ الصف الثاني الثانوي مسألة الاشتقاق

(١) راجع فقه اللغة وخصائص العربية ، لمحمد المبارك ص ١٠٨ /

الكبير . وكما تحمّس طلابُ الخامس والسادس الثانويين لتحديد معاني الحروف الهجائية ، ومعاني الأوزان الشعرية .. وكما تحمّس أساتذة من الكويت والأردن والعراق ، لوضع هذه المسائل في التداول ...

كما لجأت إلى إثارة طلابي ، ولاحظتُ ردودهم العاطفية لإزاء ما أدّعي للعربية وللعليلي .. كذلك فعلتُ بالنسبة للأساتذة المربين ؛ فقد استمعتُ إلى ملاحظات قيّمة من الدكتور جمال صقر ، رئيس قسم التربية في الجامعة العربية ، والدكتور أحمد مكّي ، عميد كلية الآداب في الجامعة اللبنانية ... ولا أنسى الأستاذ عبد الحميد فايد ، زميل الطواف على الأساتذة المتمرنين ، فقد كان من أخصب المجاني التربوية العلمية ، أيامَ معايشي « للمقدمة اللغوية » وتجريبي بعض مسائلها على الطلاب ، والأساتذة المتمرنين ، ونفسي ... وكذلك لا أنسى الأستاذ حلمي العالم ، مدير ثانوية المقاصد للبنين . فقد كان لا قراحاته ومجادلاته لإثارات طيبة ... ولا تفوتني الإشارة إلى الجهود التربوية التي تبذلها مديرية ثانوية خالد بن الوليد (الآنسة إحسان محمصاني) لإنجاح الطرق الجديدة في تعليم العربية ..

خلصت من تهذيب « المقدمة » ، بعدما هذبت كثيراً من أرائي في اللغة ، واللغويين ، القدامى والمحدثين ، بحيثُ يصحُّ فيّ وفيها قول شوقي في الكتاب :
كلما أخلقتُـه جدّ دني وكساني من حليّ الفصل ثيابا

وإليك ما تثيره قصة هذا التهذيب في حكايات أربع ، هي خلاصة مركّزة عن المقدمة وصاحبها . وعن فقه اللغة العربية ، على ضوء ما أوحته معايشي للمقدمة . وعن علم اللغة بوجه عام . والحكايتان الأخيرتان تقريب مبسّط لمناهج فقه اللغة في الجامعات العربية عامّة «^١»

(١) بدا لي عند الإخراج أن أفضل الحكايتين الأخيرتين ، حكاية فقه العربية ، وحكاية علم اللغة ...

عن تهذيب المقدمة لدرس « لغة العرب » لأكثر من سبب :

أ - حتى يظل الكتاب كما وعدنا به ، تهذيب المقدمة اللغوية للعليلي ، لا أكثر .

ب - لأن المقدمة تنفرد بخصائص لا تعرفها كتب فقه اللغة . وأبرز هذه الخصائص ، أنها لا تتخذ التاريخ اللغوي بقدر ما تنقده . ولا تقدم المادة اللغوية بقدر ما تعطي حركة العقل العربي وهو

يصنع تلك المادة ، ويتطلع لتهديبها وترقيتها . فكتاب المقدمة مرآة للعقل اللغوي في حركته المتوهجة . وكتب اللغة الأخرى مرآة للمادة اللغوية التي انتجتها حركة العقل .

كتاب « المقدمة » نقد وحركة . كتب اللغة جمع سكون . من هنا كان للكتاب في نفسي قيمة لا تساويها قيمة كتاب لغوي آخر . ومن هنا كان ضرورة لكل كتب الجمع والسكون ، لتروى على ضوءه أسرار ما تجمع . ولتبرهن معنى الحركة في عقل الماضين ، ليستمر العقل اللغوي في منحى الحركة المتطورة بدلا من ركوده في سكون مادة كانت يوماً ، من مقذوفات العقل اللغوي المتحرك ... عقل المقدمة يربط بالحياة المتطورة ، عقل الكتب التي درساها تربط بالمسوت الساكن .

ج - لأن الترتيب الجديد للمقدمة يتناول معظم المناهج المقررة لمادة فقه اللغة في الجامعات العربية ، وبالطريقة النقدية المتحركة . ولذلك رأيت من الأنفع أن يبقى الكتاب وحده ، للاستفادة من السياق العقلي الواحد ، والروح التطورية الملهمة .

د - ومع ذلك ، أذكر هنا ، مناهج فقه اللغة ، في الجامعات العربية ، ليصار إلى الموازنة بسين المطلوب مدرسياً ، وبين الموجود منه في المقدمة :

ففي الجامعة السورية : تدرس مادة فقه اللغة في السنة الثالثة . ومنها جها الإجمالي :

١ - لمحة تاريخية عن اللغات السامية وصلتها بالعربية .

٢ - خصائص اللغة العربية .

٣ - نصوص مختارة من الخصائص لابن جني . ومن المزهري للسيوطي .

ودراسة مقدمة الجوهري لابن دريد .

وفي الجامعة اللبنانية : يدرس فقه اللغة ، مع قواعد اللغة ، والمعاجم ، والبلاغة والعروض ،

ولغة سامية .. في شهادة واحدة تسمى شهادة فقه اللغة . ومنهاج الفقه يتناول :

١ - خصائص اللغة العربية : الإعراب . بين العامية والفصحى . ثبات الأصوات في العربية .

اتساع العربية في التعبير . في الترادف والاشتراك والتضاد . ظواهر لغوية في القلب والإعلال .

النظرية الثنائية في القديم والحديث . استقرار العربية على الثلاثية . العلاقة بين اللفظ والمعنى .

الاشتقاق بأنواعه الأربعة : الصرني الأصغر ، الكبير أو القلب ، الأكبر أو الإبدال ،

الكبار أو النحت . العرب وأصول التعريب . تطور الكتابة العربية ،

٢ - إطار عام لهذه الخصائص يتناول المباحث التالية : بين فقه اللغة وعلم اللغة . فقه اللغة في الكتب

العربية القديمة . المنهج الاستقرائي الوضعي في دراسة اللغة . لمحة عن اللغة السامية وكيف انحدرت

منها اللغة العربية . اللهجات العربية القديمة البائدة والباقية . بين لهجة قریش وتميم . القراءات .

مقاييس اللغة الفصحى . الدلالة الوضعية والدلالة المكتسبة . القياس والسمع .

وفي الجامعة العربية في بيروت ، وجامعات المتحدة . يدرس فقه اللغة في السنتين

الثالثة - والرابعة من خلال ما يلي : -

السنة الثالثة : مقدمة في علم اللغة العام : المنهج التاريخي والمنهج المقارن في دراسة اللغات .
تاريخ البحث في علم اللغة العام . علوم اللغة . العائلات اللغوية وتوزيعها . أنواع اللغات
وخصائص كل نوع .

السنة الرابعة : علم اللغة العام : التعريف لعلوم اللغة الحديثة . التطور اللغوي وعوامله .
الألفاظ ودلالاتها . المعاجم اللغوية . نصوص من الخصائص لابن جني . وسر الفصاحة لابن
سنان الخفاجي .

هـ - لأن محاولتي في فقه اللغة تنسق المناهج السابقة ، وتطرح قضية اللغة من زاوية تربوية أوجتها
معايشتي لمقدمة الشيخ العلايلي ، وطبيعة المرحلة التي يمر بها الإنسان العربي ، والإنسان عامة .
لهذا فضلت فصلها عن مقدمة التهذيب ونشرها مستقلة ، في وقت قريب ، إن شاء الله ...

حكاية الشيخ أو قصة الحرية

« - لست أؤمن بالأسوار .

هذه قاعدة كل "تحرك" عندي ؛ لأن الإيمان بها إيمانٌ بالتحديد والحمد ..
فسبيلُ أبناء الحركة أنهم يتطورون ، وعذرهم أنهم يحسون بتبعة الحياة .
هذه حكاية الشيخ عبد الله العلابي . لخصها في معرض الدفاع عن معجمه "١" ..
الاسوارُ توابيتُ الاعتقاد التقليدي . قبور المطامع والعواطف . جليد
العقول والخواطر .

الكفر بالأسوار صراعٌ عنيفٌ مع مقدّسات التقليد .

هناك ، هناك ، هنا ، في كل مكان ، دارت المعركة بين الشيخ المؤمن
بالحركة المتطور إحساساً بتبعة الحياة ... وبين الأسوار ... «الأوهام الخاطئة» .
كأكثر ما نرزحُ تحته اليوم من تقاليد وعادات . لم تكن في الواقع الماضي أكثر
من مغالط صيرها التاريخ عقائد . ولا تحقرن عمل التاريخ في تأسيس التقاليد
وتأكيداها ، وتوجيه النفوس ، وخلقها خلقاً مطلقاً . وما أصدق ما قيل :
« التاريخ مصدر كل وجدان » . وكذلك تجده ، إذا أخذت في تقدير أثره
وتنزيله من الوجهة النفسية ...

(١) راجع المقابلة التي رد بها على الدكتور أنيس فريجة ، والأب الفاخوري ، والشيخ
محمد المروسي المطوي .

والتحرُّرُ من الانفعال بالتاريخ - كما يقولون - ميزةُ العبري ، وظاهرةُ
النايغ ! .

العبريةُ والحريّةُ إلفان يتعاشقان . العبريُّ النايغُ عاشقٌ ولوع . يسعى
إلى الحقيقة الحبيبة . يهونُ في طلبها كلُّ شيء . لا يؤمن بالأسوار التي تقف
حائلاً بمنعهُ من العيش بها . معها . لها .

الحقيقةُ حياة ، والحياة حبيبة . كلُّنا في هواها نلتقي . ولكنَّ ما يميّزُ
أحدنا عن الآخر ، هو الشجاعة أو القناعة . الشجاعة صريحةٌ تواجه نجابه .
تصارع . تناضل .. القناعة تبرُّ . تسكتُ . تحبُّ صمتاً . تمنى . هذا فرقُ
جوهرى . المحبُّ الشجاعُ يتحمَّلُ المشقة . المحبُّ القانعُ يجاملُ ويداور وينافق
.. الأول يطلبُ الحقيقة جهراً . يتحمَّلُ مسؤولية الإعلان . الثاني يطلب الحقيقة
سراً ، يتنصَّلُ من المسؤولية .. هذا هو الفرق بين من لا يؤمن بالأسوار
يفتحدها ويتخطاها ، وبين من لا يؤمن بالأسوار ولكنه ينحني لها ويظلّ سجين
ما ترسمه له . أما من لا يشعرون بالأسوار لأنهم صاروا من أسلاكها ، أما
هؤلاء فأقلُّ من مستوى التصنيف مع أبناء الحركة ، وعشاق الحقيقة ، وصانعي
الحياة .

الأسوار جدرانٌ تحدِّدُ وتجمدُ . التحديد خنوعٌ ، والحمود موتٌ . الحياة
حركة والحركة حريّةٌ تتخطى . تتطور . التطورُ أغنية الجمال ، ونشيد الكمال .
قناطر الطموح . جسور الشوق .. الماضي البعيدُ يعبرُ على قناطر التطور وجسوره
ليصيرَ حاضراً . يتحركُ في ضمير الحاضر ليمتدَّ مستقبلاً .

الكفر بالأسوار شجاعة ومشقة . الإيمان بها جبانة وارتياح ..

ظاهرة النايغ أن يقفَ الموقفَ الأول . أن يشرب السمَّ كسقراط . أن
يتحمَّلَ المشقة كالمتنبي . ألا يؤمن بالأسوار كالعلالي .

لولا المشقة ساد الناسُ كلهم
الجودُ يُفقرُ والإقدامُ قتال . (١)

ما هي الأسوار التي حاربها العلايلي ؟

من هم أبطالها الذين نازلهم ؟

كيف نؤرخ لقصة كفاحه المتحرك في سبيل حياة حرّة متطورة ؟

وُلِدَ العلايلي ، في بيروت ، أيام الحرب الكونية الأولى . سنة ١٩١٤ .
وهو الآن في الرابعة والخمسين من عمره - أمدٌ الله في عمره - ليمدّ أمتنا
بالعطاء العبقريّ .. ولمجابهة الحرب الكبرى نتائج كبرى ، إذا صحّ مذهبُ
الانفعال بالتاريخ .

التوقّفُ مع عصر العلايلي في مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية .
وتبين العلايلي في عصره ؛ من نشأة وتربية . من حياة قلب وعقل . من ذبوع في
لبنان والعالم العربي . من انتشار في العالم الإسلامي ، وترجمة إلى العالم الغربيّ ..
لم أخصّصُ لهذا التوقف محلاً هنا . فقد أفردت له رقعةً واسعةً في دراسة
موسّعة عنه بعنوان : أمة في رجل ، وإنسانية في أمة .

أمّا ملامح شخصيته الفكرية . من خلال آثاره عامّةً ، ومن خلال
« المقدمة اللغوية » خاصة . وأما مستقبله ومستقبل هذه الشخصية الفكرية .
فيمكن إلقاء أضواء بارقة عليها ، لأنّ مكان الشروق في الكتاب الآنف الذكر ،
الخلايلي أمة في رجل . وغرضنا هنا التمهيدُ للمقلمة اللغوية كأطراف ما كُتِبَ
في خدمة العربية ، وأجرأ ما عُولج به فقه اللغة .

نعودُ إلى خصوم العلايلي . هذه الأسوار التي كفر بها . وناضل أبطالها
مؤمناً بحرية الحياة المتطورة .

(٢) ديوان المتنبي . ج ٣ / ص ٥٥٥ / شرح البرقوق

الكتابُ والعلايلي إلفان . الحياة كتاب ضخم يصلُ بأفاق لا تتناهى .
يُثير الشوق إلى الانعتاق في مطلق غير محدود . امتلاك الحرية في هذا المطلق
مغامرةٌ جسور . مجردُ التفكير بها جسارة وجراءة . الإلف يتأثر بإلفه . وعذرُ
أبناء الحركة أنهم يحسّون بتبعة الحياة . وسيلُهم أنهم يتطورون . ولكنَّ التطوّر
امتدادٌ في مدى الزمان . وجدران التاريخ حصون من التقاليد والعادات . هكذا
نشبت الثورة من أجل الانعتاق .

انعتاق الشعور الفردي ، صيحة الانعتاق الكلي . شوق الانسان النوع .
من هنا كان العلايلي أمةً في رجلٍ ، وإنسانية في أمة .

لم يؤمن بالأسوار السياسية . وكيف يؤمن بها ، والانتداب الفرنسي يضغط
على أنف بلاده ، ويغلقُ عن لبنانه أنسام الاستقلال . وأشعة الحرية ؟ لم يؤمن
بأسوار السلطة ، واستبداد الحكم ، فتحدّاها ، لتخطي أمته الكبيرة حصونَ
العبودية ، وتدمرَ قلاعَ الظلم والاستعمار . كان جيشه الصوتَ الجهيرَ .
مليئاً كالحرية . غنيّاً كالحياة . واثقاً كالبحر . ومن يجرؤ على ذلك في ذلك
الحين ؟ فأصدر سلسلته المشهورة : « إني أنهم » مستعيراً عبارة الكاتب الفرنسي
الحرّ ، إميل زولا . كان مقررّاً للسلسلة أن تصدر في حلقاتها الأربع والعشرين .
ولكن سلطات الانتداب حالت دون ذلك . ولم يصدر منها إلاّ الأجزاء السبعة
الأولى : إني أنهم . أوهام وأقدار . من المسؤول ؟ منطق الجماعة . الحزب
بوتقة تصنع الأمة ... الخ .

ولكنَّ ثورته على الأسوار السياسية . لم تكن مقصورة على النوع الخارجي
منها . وإنما امتدت إلى أشكالها الداخلية . فهاجمها حيث ظهرت في بلاد العرب
كما هي في كتاب : سورية الضحية ، وفلسطين الدامية . والفساد والتجدد .
وبذلك تتأزّر الأسوار السياسية والاجتماعية من الداخل ، لتكون حلقاً ضدَّ
هذا الفكر المتحرك الحرّ الذي لا يؤمن بالأسوار من أي نوع كان .

ولكنَّ الأسوار متمكنة في كل اتجاه . فعلى أي جانبيه يميل ؟ الأسوار في

السياسة . في المجتمع . في التاريخ . في الدين . في الأدب . في اللغة . في كل مناحي الحياة العربية .

أبناء الحركة يؤمنون بالتطور . كل بعيد يدنو . كل صعب يسهل . كل مغلق يفتح . هذه قاعدة التحرك عنده . ومنها انطلق في كل متجه .

فهي قضايا العرب القومية كتب كتباً مختلفة . تحطم أسوار الجهل ، وتفتح أبواب التطور والعلم . من هذه الكتب : دستور العرب القومي . تاريخ المجد العربي أو دولة العرب .

وفي التاريخ . رأى المغالطات المشوّهة . والتلفيقات المزورة . يظن الناس مثلاً أن الحسين بن عليّ ويزيد بن معاوية رجلان مختلفان من أجل الحكم . هذا التاريخ ببساطة . ولكنها ببساطة لا تدفع . آمن الناس بها . غير أن العلالي وجدها من الأسوار التي تحجب الحقيقة . « يزيد » أنانية ومصصلحة فردية آثمة . « الحسين » مبدأ وإنسانية ، وقضية اخلاقية ، ورسالة دينية مؤمنة . لم يؤمن بالأسوار التاريخية فتحرك باضواء فهمه على ظلمات المغالط والتجاهل والجهالة . فكتب سيرة الحسين في ثلاث حلقات .

أ — سمو المعنى في سمو الذات أو أشعة من حياة الحسين . مستخدماً أطراف نظريات علم النفس التطبيقي في تحليلاته .

ب — تاريخ الحسين ، نقد وتحليل .

ج — أيام الحسين ، عرض وقصص .

وبذلك أكد فكرة الفداء في سبيل المبدأ . وأزاح أسوار التاريخ لتسطل أجيالُ أمتنا على منفسحات الجهاد :

« الآمة الأساطير تحتاجُ إلى نبي يمحوها ، حتىَّ يردّها إلى خيالٍ طائشٍ في

حلود الخرافة ...

والإنسان المُستألهُ يحتاجُ إلى مُصلحٍ يمحوه ، حتىَّ يردّه إلى طبيعته في

حُلود الحقيقة ...

فالجُدُّ النبيُّ محاً آلهة الأساطير ، والسبط المصلحُ محاً الآلهة من الناس ...

وكذلك حال الحسين بكفاحه دون أن يستعيد الإنسان الإنسان .
الحياة حركة دائمة ، والموت سكون دائم ، ولكنه بالنسبة إلى العظيم
يُعطي معنى آخر . فإن موت العظيم ليس سكوناً هامداً ، بل هو خروج الحركة
عن مركزها لتنتشر في أحياء كثيرين ...
ففي روح كل مصنح بلدوات من روحك ، وفي ضمير كل مجاهد قيس
من ضيائك ... (١)

هكذا يكفر بالأسوار فيمحوها بنور فهمه ليضيء الحقيقة لأبناء أمته .
ليست القضية كما قدمها التاريخ ... قضية الحسين بن علي أكبر من خلاف مع
يزيد بن معاوية ، وتناحر على حكم . إنها قضية الحقيقة والحرية . قضية الثورة
على العبودية . قضية التحدي للسلطة الظالمة .

وبمثل هذه الروح المتعالية على تخوم التاريخ كتب : سيرة الإمام علي في
ثلاثة أجزاء . أفرد أولها لتاريخه السياسي . وثانيها لتاريخه النظامي . وثالثها لتاريخه
الفلسفي والأدبي . وكتب سيرة الأئمة الاثني عشر ...

وفي الدين . رأى أسوار الادعاء والغباء . ورأى بالعمائم قضاء على الدين .
كما يقول الشيخ محمد عبده (٢) . فلم يؤمن بهذه الأسوار الغبية . وتحرك ضدها
بساطع فهمه الذي تألق فأنار في كتبه : مقدمة التفسير بجزئية . الاقتصاد في الاسلام ،
الاسلام كذهب ايدولوجي . وفي هذا الكتاب الأخير فهم تطويري
للإيدولوجية الإسلامية لتصبح صالحة للمعترك الإيدولوجي القائم في العالم .
وفي الأدب واللغة . رأى أسوار القصور عن الفهم . والتحجر في التقليد .
حتى فقدان الذوق الأدبي الصحيح . وغياب الحس اللغوي السليم . فلم يقف
دون هذه الأسوار . فتحدثاها . ودعا لتخطيها ، وثار على أسلاكها ، الحماة
لها :

(١) تاريخ الحسين ، نقد وتحليل ، ص ٦ و ٧ .

(٢) ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذران تقضي عليه العمائم
تاريخ محمد عبده ، تأليف السيد محمد رشيد رضا

« ولقد آن لنا أن نأخذ مأخذ الجدة ، والأُ وضعت العربية في الموضع القليق ، والمحَلُّ المتهافت ، والمضمار الضيق » ، وتبَعُ ذلك كله إنما تقع على كاهل اللغويين وحدهم حين وقفوا موقفاً لا يَحِيدُ عما تواضعه سالفو اللغويين ، من قوانين لم تكن في أولها إلاّ وهما خاطئاً ، أو نتيجة درس غير مستقيم ولا محقق .

نعم ، لشدّ ما يُحفظني وبغيطني ، اعتمادُ لغويينا اليوم شكلاً قاسياً من المحافظة ، وهم يشهدون من مطالب العصر على اللغة ، ما كان كافياً أن يزحزحهم . وخير العربية اليوم ، إنما يُرجى من هذا المتجه الذي يتبدىء البحث اللغويّ من جديد ، ويأخذ اعتبارات المدرسة القديمة على أنها اعتبارات فقط ، لا على أنها اللغة نفسها ، أو قانونُ عملها الثابت .

وهذا الأخذ من شأنه أن يُسلمَ اللغة إلى الحياة إسلاماً عفويّاً ، أي أنه يردّها إلى محلّها من الحاجة والصيرورة « ١ » .

ومثل عاداته دائماً . يهدمُ ليبيّ . ينتقدُ ليصحح . يُتبعُ النظريةَ بالتطبيق العلميّ . كتبه في هذا المجال ، غير الخطب والمحاضرات التي لم تخصّ معي أو معه ، عديدةٌ ، منها في النقد : المعرّي ذلك المجهول . وفي القصة : مثلهن الأعلى أو خديجة أم المؤمنين . وفي الشعر : رحلة إلى الخلد . وهي قصيدة تأملية ، على نسق معراج ، أو على نسق كوميديا الشاعر الإيطالي دانتي . وتقع في ألف وخمسمائة بيت ترجم درمنهايم قسماً منها إلى الفرنسية . وفي متنوعات ، تجمع بين التاريخ والأدب واللغة له : طبقات علماء وأدباء بيروت . الأساطير العربية من خلال اللغة . دراسات على فنون العرب . رأي في المنهج اللغوي .

وفي اللغة . له كتاب : مقدمة للدرس لغة العرب : وما تفرّع عنه كتطبيق عمليّ لنظرياتها التطورية ؛ في المعجم الكبير : وفي المعجم الوسيط ، المرجع .

هنا نقف لنبدأ .

فالمركة لا تزال . والأسوار ما فتئت أسلاكها تتحكم بالأعناق ، على مختلف الآفاق . ولكنها منهارّة ذات حين قريب ... فالمؤمنون بالحقيقة التي تحجبها هذه الأسوار ، بالحرية التي تحجزها . هؤلاء المؤمنون بما بعدها ، المتمردون عليها ، أبناء الحركة المتطورون . هؤلاء يحسّون تبعات الحياة ، بما فيها التطور الذي يُعدُّ للمستقبل ، فيتلاقون مع هذا الرائد ، العلالي . وقريباً تتعاشق الاتجاهات على صراط قويم . وتتعانق الهتافات معرفةً بأبطالها :

لست أؤمن بالأسوار .

فسبيلُ أبناء الحركة أنهم يتطورون .

وعذرهم أنهم يحسّون بتبعة الحياة .

حكاية المقدمة او قصة العربية

راقبنا ، في حكاية الشيخ عبد الله العلايلي السابقة ، قصة الحرية . قصة العقل المتمرد على أسوار التقاليد . قصة النور الثائر على الظلام ، في كل ناحية ومنعطف من الحياة العربية : في السياسة . في المجتمع . في القومية . في التاريخ . في الدين . في الأدب . في النقد . في اللغة .

وأتينا على ذكر آثاره في مسيرته التطورية . وقد جاوزت الستين مؤلفاً ، مختلفة الحجم ، غير المقدمات التي كتبها لغيره ، وغير المحاضرات والخطب ، وغير ما لم يطلعني عليه .

ولم يكن همي سرد القصة ، بقدر ما أحببتُ لإشراك القارئ في معاناة تجربة حقيقية . هي تجربة العقل الحرّ في وسط مستعبد من داخل نفسه ، ومن خارجها . وإيماناً مني بأنّ الخوف يسجن الحرية ، وأن غياب الحرية تهجيرٌ للإبداع . ولذلك لم أكرث كثيراً بما يفتعل من ضجّات ، حول ما يؤلف من الكتب المخنوقة الروح ، إن في اللغة أو في غيرها .

قصة الحرية ، أحسن القصص ، عندي . وحركة الشيخ عبد الله العلايلي في مسيرة التطور حركة رائدة . تعطي النوع الحيائي الواجب ، ولا تبالي بالكميات المتهافنة في الواقع ، إلاّ حذر انقلابها كيفاً . وحتى لا يصبح التهافتُ

اللغوي^١ كيفاً للعربية . خاض بمقدمة لدرس لغة العرب ، معركة قاسية مع اللغويين القدامى ، ومع المحافظين المحدثين .

فما هي قصة المقدمة لدرس لغة العرب ؟

وهل هي شوطٌ آخر في ميدان الحرية ، في سبيل عقلٍ ولسان عربيين ؟

من حق الشيخ أن يروي لنا قصة مقدمته ، في معاناته اللغوية الخلاقة .

ومن حقنا أن نصغي لنعرف معنى الحركة المتطورة في العقل الحر المنفتح .

لخص حكاية المقدمة ، في التصدير ، وفي ديباجة موجزة . قال :

« هي ، أي المقدمة ، تبتدىء الدرس على فروع العربية مرة ثانية ،

فتناول النحو والصرف والاشتقاق والبلاغة . وتصل ، من وراء دراسة موزونة

إلى إقرار كل شيء في موضعه .. وعلى اعتباره .

وهي ، من وجه آخر ، حكاية تطور العربية في كل أشياءها ..

وأنت أيضاً ، في خلال ذلك ، بكلام على المجامع ودور التخصص .

وتناولت الخطأ والإملاء وسائر شكليات اللغة بحلول هي أقرب من كل ما

اقترح حتى اليوم ...

وشعار كل الدرس الذي انشرنا به على العربية عبارة وردت في التصدير

هي ليس :محافظة التقليد مع الخطأ ، وليس خروجاً التصحيح الذي يحقق

المعرفة ...

وسترى أننا عانينا كثيراً في التقدير والافتراض حتى انتهينا إلى أصحّه في

أسلوب النقد والتعليل ..

وسترى كيف نعيد مدار الحديث حول استنكار المحافظة في كل فصل ..

في كل بحث .. لأنّ المقدمة في غايتها لا تعني سوى هدم ما تعارفنا .. إن في

تاريخ اللغة أو في القواعد .. وهي إن تكن تنكشف ، في بيان وجه النقض ،

عن قاعدة نفرض فيها الصحة على مقدارها فلم تكن معنية إلا على القدر

الذي يستقيم به النقض وينتهج أسلوبه .. (١)

(١) مقدمة لدرس لغة العرب ، ص ١٤

« ولذا جاءت القواعدُ مختلطةٌ اختلاطاً كبيراً . لم نجتهد بتنقيتها والتفريع عليها . وكما سبق فرغْتُ إلى سبكها بأسلوب قاعديّ تعليمي في كتاب : دراسات على فنون العربية.. وإنما قصدنا هذا القصد ، او تعمّدناه ، نظراً إلى ما تثيره المفاجأة . والفرعُ إنما يفرغُ إليه بعد تصحيح الأساس (١) هذا أوّل فصل من حكاية المقدمة . فصل المجيء والظهور .

كان صاحب المقدمة شاباً في الرابعة والعشرين من عمره . وكانت المقدمة وليدة تخطال بشمول الثقافة ، وبوارق الخاطر الحرّ . وكانت سماء المجتمع العربي محجبة بغيوم التقاليد والتزمّت .

فماذا كتب لهذين المسافرين بحرية في مجتمع شديد التحفظ والتحجب ؟ أما المقدمة ، فقد جاءت إلى الناس ، أول ما صدرت عن المطبعة العصرية في مصر (٢) ، سنة ١٩٣٨ .. في ثلاثة أقسام ، يصفها صاحبها باختلاط القواعد لأن الغاية منها هدم المتعارف عليه ، في تاريخ اللغة وفي القواعد .. وقد صدرت بمقدمة لاسماعيل مظهر في خمس صفحات . وديباجة وتصدير للمؤلف في أربع عشرة صفحة . وأما الأقسام فاستغرقت حوالي مائتين وخمسين صفحة .

١ - تناول القسم الأول متفرقات لا يجمع بينها إلاّ ملابسات الموضوع الواحد .. وهذه المتفرقات جاءت بثلاثة عشر مبحثاً : اللغة غاية لا وسيلة . العربية واللغات . الخط . الإملاء . البيان . المعاني والبديع والنحو والصرف . العروض أيضاً . داء العربية ودواؤها . المجمع ضرورة . المجمع والمصطلحات العلمية . اقتراح ومناسبة . المعجم كيف نضعه . دراسة التخصص في اللغة والأدب ، وقد استغرق هذا القسم سبعاً وتسعين صفحة من / ١٥ - / ١٢٢ .

٢ - تناول القسم الثاني تاريخ النشوء اللغوي وتطور اللهجة . وأهم ما

(١) المرجع السابق ص ١٤ .

(٢) طبع منها ألف نسخة ، معظمها اشترته الجهات الرسمية ، كوزارة التربية ، والمجمع اللغوي ، مما جعل انتشارها ضيقاً محدوداً ..

انتهى اليه من آراء : فرض أن الجدول الهجائي بأصواته (حركاته) هو لغة الإنسان القديم . وتقدير أن نشوء العربية كان أحادياً فثنائياً فثلاثياً الخ . وتحقيق أن العربية انتقلت من دور كانت فيه صوتية تماماً على أدوار متعاقبة . وأن القرآن تناولها ولما تستقر ، بحيث كان سبباً قوياً في تهيئة الاستقرار على أكمل الوجوه . وظلت غير خالصة من علائق القوضى في الموازين وصيغ الجموع وأبواب الأفعال .. الخ . وقد استغرق هذا القسم خمساً وسبعين صفحة . من ١٢٢ - ١٩٧ . وعرضه بتسعة عشر عنواناً (١) .

٣ - تناول القسم الثالث القواعد ، على النحو الذي يجب أن تكون عليه . وجاء في واحد وثلثين مبحثاً هي : السماع أو ليس في كلام العرب . الثلاثي . تاريخ فكرة الاشتقاق الكبير . القلب أو قاعدة الدوائر . مناقشات . القلب اللفظي . الاعلال . الاتباع . المزوجة . التخفيف بالاسكان . فعلية المصدر . الرد الى الأصل . الضد . الترادف . تداخل اللغات . الرباعي . الرباعي المثلي أو الجملي . الرباعي غير الأصم . النحت . الخماسي والسداسي . الإبدال الاشتقائي أو المعاقبة . التعدي والازوم . الأفعال . التعريب . الاعراب . التذكير والتأنيث . نموذجات من المعجم الجديد ... ويقع هذا القسم في تسع وستين صفحة . من ١٩٧ - ٢٥٦ ...

هكذا جاءت المقدمة ، أول ما جاءت .

وكان صاحبها ينتظر أحداث الفصل الثاني ، فصل المواجهة .

كان ، وما يزال ، شديد الغيرة على العربية ، لأنها مظهرُ فكر العرب ، ومجلى عبقريتهم . ولأنها على ضوء حسّه اللغويّ المرهف ، تمثل أرقى العقلية

(١) وردت هكذا في الطبعة القديمة : عرض ومقابلة . الدور الأول ؛ الإنسان الفطري . لغة الإنسان الفطري . الدور الثاني . الدور الثالث : الحلقة الأولى ، الحلقة الثانية ، الحلقة الثالثة ، الحلقة الرابعة ، الحلقة الخامسة . التطور في اللهجة . العهد الصوتي . الدور الأول . الدور الثاني . الدور الثالث . العهد اللفظي ؛ الدور الأول . الدور الثاني . تأريخ النظرية . تطور اللغة . تعليق واستنتاج .

اللغوية ... ولكن هل تشاركه الجماهير العربية هذا الفهم ؟ وهل يرتاح لتجديده الرأي العام العربي ؟

انقسم الناس ، في فصل المواجهة إلى مشفقين ، ومؤيدين ، ومستغربين ... أما المشفقون ، فيمثلهم ، سكرتير المجمع الملكي المصري للثقافة العلمية ، إبان ذلك ... الأستاذ اسماعيل مظهر ... فقد عبر في تقديمه للمقدمة ، عن تخوفه ، على نفسه وعليها وعلى صاحبها ، من الحالة العقلية التي خلفتها عشرات القرون .. فمجرد التقديم لمثل هذا الكتاب الذي وصفه بالصيحة الأولى لقيام مذهب التوسع في اللغة ... مجرد ذلك يخيفه ، فيصارع بخوفه وإشفاقه ، وهو المسؤول الرسمي عن الثقافة العلمية :

« أما أن أتصدى لكتابة مقدمة لهذا الكتاب ، فذلك مهم لا يحسدني عليه أحد ممن يعرفون الحالة العقلية التي خلفتها عشرات القرون في العالم العربي . ولا يقتصر إشفاقي على نفسي ، فإني لأكثر إشفاقاً على الأستاذ عبد الله العلايلي . فإنه بنشر هذا الكتاب ستلور عليه رحي تلك القرون التي تعدُّ بالعشرات ، وسيظل غرضاً يرمى بثقالها وبلهوتها حتى يفتح هذا الشرق العربي عينه على الحقائق ويرود نفسه على مواجهة الواقع تاركاً من تقاليده القديمة ما ينافي روح هذا العصر ، مستمسكاً منها بما يلائم الحضارة الحديثة متخذاً منها دعامة لارتقاؤه وسنداً ... »

أما المؤيدون ، لأفكار المقدمة التطورية ... فيبدو أنهم أكثر جراءة وتحوراً من المشفقين .. وصاحب المقدمة نفسه يُبدي ارتياحاً واضحاً لأثر كتابه في اللوثر اللغوية ، كما ذكر في مقدمة معجمه . فقد نقل ما قاله الأب انتاس الكرملي من أن « مقدمة العلايلي اللغوية تفتح أبواباً في العربية كانت طلاسماً إلى هذا اليوم .. » كما يتذكر قول الاستاذ ابراهيم مصطفى ، صاحب كتاب إحياء النحو . حول اشتغال المقدمة ، على ثلاث رسائل دكتورية : الأوزان وتحديداتها نشوء اللغة ، وتطور اللهجة . السماع والاشتقاق ...

وبالواقع ، هذا قليل من كثير . ومن يرجع إلى مجموعات الجرائد والمجلات

المصرية واللبنانية ، في عام ١٩٣٨ ، يجد أبحاثاً قيّمة ، حول هذا الأثر الفريد .
يجد في مجموعة المقتطف والهلل . والثقافة . والجديدة . والشرع . والأهرام .
والمصري . والدستور . والتربية الحديثة الأمريكية .. يجد مقالات مطولة حول
عظمة المقدمة وخطورة أفكارها في تطوير العربية وإنمائها وجعلها لغة العلم
الحديث ، ولغة المستقبل البعيد . يلتقي العائد لهذه المجموعات بكبار علماء
وأدباء ونقاد وشعراء العرب في ذلك الحين ؛ أمثال طه حسين ، وعلي الجارم .
وابراهيم مصطفى . وانستاس الكرمل . وعبد الغني حسن . وسلامة موسى .
وسعيد عقل . ومارون عبود ، وميخائيل نعيمة . وصلاح لبكي ... وغيرهم .
وأما المستغربون لجرأة أفكار المقدمة الجديدة على المتعارف من قواعد
اللغة ... فلا أقول أنهم كثر أو قلة . وإنما أقول إنهم جماعة من المثقفين الكبار .
الذين تأثروا حتى العظم ، كما يقال ، بالمدرسة اللغوية القديمة . ويسميهـم أستاذنا
الشيخ صبحي الصالح (١) اللغويين المحافظين .. وهو في صدد بحثه « صيغ العربية
وأوزانها » يستعرض قصتها كألوف عاداته ، فلا يغادر شاردة أو واردة تتعلق
بما يبحث إلّاّ ويحشد لها تحت لواء بحثه .. هو هنا يبدي عطفاً على المطبوعين
واعجاباً بهم ، ويكاد يطلق أيدي الأفراد النوايح في الأوزان ، فيعطيهـم الحرية
في إنقاصها أو الزيادة عليها ، في إماتة طائفة وإحياء أخرى .. ولكنه يتوقف
فجأة ويستصعب ذلك كباحث لأن كثيراً من الباحثين لا يحكمون الذوق في
مثل هذه الأشياء (٢) .. ويستدل على صعوبة هذا الأمر بمواقف اللغويين
المحافظين إزاء اقتراحات العليلي (٣) ..

(١) الدكتور صبحي الصالح . أستاذ فقه اللغة في الجامعة اللبنانية . وقبلها في جامعة دمشق . وقبلها
في جامعة بغداد . وكتابه «دراسات في فقه اللغة» كتاب شامل قيم . ولي مع كتابه قصة من أيام الدراسة ،
ولكنني مدين للكتاب بالبلغ الذي قدمته الجامعة اللبنانية جائزة على إحساني بشهادة فقه اللغة .
ومناقشتي له هنا .. من قبيل ما لا ينسى في نفسي .

(٢) دراسات في فقه اللغة ص ٣٩٨

(٣) المرجع السابق ص ٣٩٨

الحقيقة لا أريد مناقشة أستاذي العزيز في آرائه بتجديد العلايلي ، وتحمله
وزر اختراع أوزان جديدة تختلف عن القديمة الفصحى .. وعجبه من جراءة
العلاييلي التي تجاوزت الحدود «١» .. وغيرته على العربية الفصحى بوجهها الصريح ،
من سيرورة رأي العلايلي في المقدمة «٢» ولكنني أكتفي بالهمس سرّاً ، من قلب محب :
أستاذي . هذا حكم سريع غير محقق . فالعلايلي لم يخترع موازين .
وقد ذكر سيبويه في كتابه «٣» ما ظننته من اختراع العلايلي .. والذي فعله إنما
هو تحديد الموازين بدلالات ثابتة قارة تقوم مقام السوابق واللاحق في اللغات
الآرية «٤» ،

المهم ، هذا ما جرى للمقدمة من استغراب اللغويين المحافظين . فإذا كان
استاذنا الصالح قد مثل الجانب العقري الحرّ الذي ينجح إلى التجدد في عطفه
على المطبوعين .. فأظنه مثل أيضاً الجانب المتشعب بثقافة لغوية قديمة يصعبُ
التحلل من إساها ، وتجاوز أسوارها .. ومثله فعل الأستاذ محمد المبارك في
استغرابه تحديد معاني الحروف ، والمجازفة بتحديد معاني الأوزان «٥» .. ويبدو أنّ
لوقار الكرسي الجامعي ، وللتقاليد الجامعية مساحبٌ تصلُّ بالقدامي ، من أي
طبقة كانوا ، أكثر مما تصلُّ بالمحدثين أبناء الحركة .. الذين لا يؤمنون
بالأسوار ، وعندهم أن للحياة تطوراً وتبعات .

هذه قصةُ المقدمة في فصل المواجهة ، بين المشفقين ، والمعجبين ،
والمستغربين .. فما ينتظر صاحبها لما بعد ذلك ؟

وما هو مصيرها المظنون في الفصل الثالث من حكايتها : فصل المصير .
سمّاها مقدمة يوم ولدت ، وكان منها ذلك القبول . وأرسلها في الناس

(١) المرجع السابق ص ٤٠٠

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٣

(٣) سيبويه . الكتاب . ج ٢ / ص ٣٢٧ وغيرها طبعة بولاق الاميرية

(٤) مقدمة المعجم . للعلاييلي ص ٥ . وراجع مقدمة بحثه الموازين في المقدمة . فقد أوضح
احترام الموازين لأنها هيكل اللغة ... إلخ . وراجع بشأن (الفعلت) وثالها الدمية — عل
حد تميركم — جذر (سب) في محيط المحيط ، وتاج العروس ، واللسان ، وكتاب
سيبويه نفسه...

(٥) فقه اللغة وخصائص العربية . ص ١٠٥ ، ١٤٦ .

لتهدم ما تعارفوه من تاريخ العربية وقواعدها . وحملت رسالته إليهم . وتلفت منهم ما قابلوها به من إشفاق ، وإعجاب ، أو استنكار وإتهام بالدماة . وظلّت شاردة ، تتدافعها الأيدي ، وتتأملها الأعين ، وتقرعها الشفاه ، حتى بلغت السادسة عشرة من العمر . فأنجبتُ وليداً يحملُ طابعَ جدتها وغربتها في الناس . أنجبت المعجم الموسوم بأنه موسوعة لغوية علمية فنية . ولدت أجزاء المعجم الأولى سنة ١٩٥٤ . وأرسله صاحبه في الناس ، كما أرسل أمّه المقدمة ، من قبل . وهو جهد لا يعرف ما خُطَّ له في ضمير الغيب من قَدَر ، كما لا يعرف أي شيء يكونه في الناس ... بيد أنه أَرْضَى نفسه ، بإرضائه داعية اللغة في عهدها المتقطع الأسباب ...

وحكاية هذا المعجم تصلُ الماضي بالمستقبل ، فهي حكاية الارتباط بالماضي والروح الخلقية المستمرة في الإنسان العربي ... وبذلك يخالف صاحبه الروح التقليدية في المعاجم التي تحرم استعمال كلمة لم يستعملها القدامى . فالمعجم ، عند العلالي ، لغة الأحياء .. مع ارتباط جذري بالكلمة المتطورة ، التي يسميها الكلمة الحفزية .. وهي عندي الكلمة التاريخ .

وبعد تسع سنوات ، من ولادة هذا المعجم ، أنجبت المقدمة معجماً جديداً ، اسمه المرجع ، وهو معجم وسيط ، علمي لغوي فني . مرتّب وفق المفرد بحسب لفظه ، صدر ١٩٦٣ .

ولقي هذا الوليد الجليل ، ما لقي أخوه الأكبر من التكريم والحنفاة . فقد نال جائزتين تقديرتين ، عام صدوره . وتناوله بالدرس أمثال الدكتور محمد المحمدي في مجلة الدراسات الأدبية «١» . والمرحوم الأستاذ رثيف خوري في منشورات الندوة اللبنانية «٢» . وقد ألقى محاضرته . بعنوان : مرجع الشيخ عبد الله العلالي ، والمعاناة الإيجابية لمشاكل العربية .. وبرهن تسعة تفردات للمرجع ،

(١) الدكتور محمد المحمدي ، مجلة الدراسات الأدبية . س ٥ . ع ٢ / ١٩٦٣ م

(٢) س ١٧ ، نشرة ١١ - ١٢ ، ١٩٦٣ م

ليست لغيره من معاجم العربية ، هي : ترتيب مواد المعجم وفق اللفظة المفردة وبحسب لفظها . إلقاء الضوء على مسألة تعدد المعاني للفظ الواحد . تتبع نمو اللفظ في المعاني . تتبع تولد اللفظ الجديد وأحياناً القيام بالاشتقاق والوضع . استغلال أوزان العربية والدلالات المعنوية المخصصة . ذكر المقابل الانكليزي والفرنسي للفظ . ذكر المركبات . الإشارة إلى الممات والمهجور . تدقيقات وتصويبات .

هذه تفردات ، ذكرتها عدداً لا شرحاً ، لأننا بصدد رواية المقدمة لا حكايات أبنائها .. فأين صارت هي ، وعلام استقرت ؟ .

يبدو أن المقدمة ، وقد بلغت الثلاثين من عمرها . تعيش فترة أ الصبا السعيدة وتلفت الأنظار حيث ذكر اسمها ، أو رفّاً بارقاً حسن من جمالها .

ففي مصر . قدمها العلامة المرحوم أمين الخولي ، لمعهد الدراسات العربية العالية ، في جامعة الدول العربية ، تقديماً فيه من الإعجاب والأمل الشيء الكثير . وكان عمرها يومذاك عشرين عاماً . عرض لمشكلات حياتنا اللغوية . وللمحاولات اللغوية قديمها والحديث ، وخلص الى نتيجتين :

الأولى قوله : وليس بالكثير ، ولا المبالغ أبداً ، أن نقول : إن آفات حياتنا في جمهورتها تعود إلى عِلَلٍ لغوية تصدع الوحدة ... وتحرم الدقة ... وتبدد الجهد وتعوق تسامي الروح والجسم ، والعقل والقلب ...

ومن كل أولئك تكون كلُّ محاولة إيجابية في سبيل إصلاح الحياة اللغوية ، وإزاحة عللها هي المحاولة الأولى والكبرى في سبيل سلامة الكيان الجماعي .. والشعور الذاتي .. والجد الحيوي .. والسمو العقلي والوجداني .

وبالحقيقة ، لا بأي شيء سواها ، تحلُّ المشكلات اللغوية في حياة المجتمعات العربية (١) .

النتيجة الثانية : رأى أن المحاولة الإيجابية التي كانت حُلماً تحققت عملاً واقعاً ، في « مقدمة للدرس لغة العرب » ، التي هي لبنانية الدم ، مصرية

(١) مشكلات حياتنا اللغوية ، ص ٥ و ٦ .

المظهر .. وأبدى شديد إعجابه بهذا الجهد التطوري الجليل المناضل للسيد العلالي.. واستنكر بأسف وحدة إغفال هذا الجهد، في البحوث الخاصة بالدراسة العربية العليا، وعند الاختصاصيين المنفردين بالسلطة التشريعية العليا للغة العربية «١» . والسيد الخولي ، يفهم خطورة المقدمة ، وجسارة صاحبها ، ويقدرهما ، وبلغت اليهما بشدة وشغف .. كما فعل من قبله كبرا المفتشين للغة العربية في تقرير رسمي . وهما المرحومان ؛ علي الجارم ، ومحمد جاد المولى بك .

وفي لبنان : تكرم الندوة اللبنانية صاحب المقدمة ، وتعتبره قيمة في لبنان ، ودنيا العرب والإسلام ، علي حدة تعبير مؤسستها «٢» ، الاستاذ ميشال أسمر . ويحيى تكريمها بمناسبة تقديم جائزة رئيس الجمهورية له ، من قبل جمعية أصدقاء الكتاب سنة ١٩٦٢ .

وفي سورية، ينهض رجل غيور لاحتضان المقدمة، وابتعاثها في الناس بحلة جديدة ، ويبدأ الأستاذ حسن نعمان أول أعمال داره ، بنشر المقدمة . لتكون باكورة أعمال « دار النعمان » التي يشرف عليها «٣» .

وفي لبنان ثانية : ومن حق لبنان دائماً ، أن يتعاطف مع الحرف ، وأن يحتضن مبدعات اللغة ... ولكن المبادرة هذه المرة كانت غربية بالقياس إلى نهج الدراسات .. فئة من الشباب ، طلاب في ثانوية المقاصد الخيرية الاسلامية . يتحمسون للمقدمة . ويتنادون لنشرها ثانية ، والدفاع عن فكرتها التطورية . حتى كانوا السبب المباشر الذي حمل الصديق النعمان على تحقيق فكرتهم ، وإرضاء دوافع العلم في نفسه ، والغيرة على طلابه ...

وها هي المقدمة ثانية ، تتابع تمثيل دورها العظيم ، في فصل المصير ؛ مصيرها ومصير العربية . ومصير العرب من مصير العربية أو العكس . رعى الله كليهما . المقدمة في الإخراج الجديد ، لم تختلف عنها في القديم ؛ من حيث الروح والمضمون ، وان اختلفت بعض الاختلاف في التعبير والشكل وتنظيم بعض القواعد كقاعدة الاشتقاق الكبير ... وإجمالاً ، فقد رتبها في مقدمة ، وأربعة أبواب وخاتمة .

(١) مشكلات حياتنا اللغوية : أنظر صفحات ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، وما بعدها ...

(٢) محاضرات الندوة - س ١٧ / النشرة ١١ - ١٢ / ١٩٦٣ م ، من كلام مؤسس الندوة .

(٣) راجع كلمة الناشر بعنوان : حقيقتان .

الأول : التطور اللغوي ونشوء العربية . وجعلته في مقدمة وأربعة فصول .
في هذا الباب ، وحده ، سمحتُ لنفسي بتقريب العبارة . وبالتقديم
والتأخير ، والاستعارة له من سائر أقسام المقدمة . ليكون حكاية
التطور .

انطلقت من الشكوى التي يذيعها الناس عن صعوبة العربية ،
إلى تمحيص هذه المزاعم ، وبيان الأسباب .. ثم جاء الفصل
الثاني ، يعرض أدوار النشوء اللغوي وتطور العربية ... وفي الفصل
الثالث جاء تطور اللهجة بإهاب نظرية كاملة . وفي الفصل الرابع ،
عرضت لتطور اللغة كنظرية ذات نتائج ، تُطلعُ على معقول
العرب وتحدد طريق المستقبل للعربية ... وعلى ضوء هذه النتائج
بنيت المقترحات التي جعلت أهدافاً ، سعيت إليها في أبواب
الكتاب الثلاثة الأخرى .

الباب الثاني: معقول العرب ومستقبل العربية : وجعلته في مقدمة ، وثلاثة
فصول أوجزت مضمونها في مقدمته . فلتراجع هناك .
الباب الثالث: داء العربية ودواؤها : وجعلته في مقدمة ، وفصلين ، أوضحتهما
في مقدمته .

الباب الرابع: المجمع والمعجم ، وشكليات اللغة . وجعلته في مقدمة ، وأربعة
فصول قربتها في مقدمة الباب ..

ويلاحظ القارئ من الفهرس الجديد ، إذا قارنه بالفهرس القديم ، أن
محتوى المقدمة هو نفسه . ولكن الترتيب هو الذي اختلف ، فمثلاً جعل القسم
الأول ، في باين ؛ الثالث والرابع ، وقسم منه ألحق بالباب الأول .. الخ كما
يلاحظ أن الجديد في أمر المقدمة ، عدا تهذيب الباب الأول ، هو ترتيب المادة ،
والمقدمات التي وضعتها لكل باب ... وهذه المقدمة شبه النقدية .. والخاتمة التي
اخترتها كنتيجة تلخصُ عملنا في تتبع التطور اللغوي للعربية ... كيف سارت ؟

كيف توقفت ؟ كيف تستأنف سيرها ؟

هذه حكاية المقدمة ، في فصولها الثلاثة ، فصل المجيء ... فصل
المواجهة .. فصل المصير ..

هذه الحكاية هي قصةُ العربية ، في أدوارها الثلاثة ؛ دور السيورة في
الماضي البعيد .. ودور التوقف في الماضي المستمر في الحاضر ... ودور الحاضر
الناظر إلى المستقبل ...

ففي الماضي البعيد ، كانت تجري على ألسنة أصحابها جرياً طبيعياً ، قبل
مبارحة الجزيرة ...

وفي الماضي ، حاول اللغويون القدامى صيانتها من الضياع بالاختلاط ،
ففرضوا السماع ، وحدّدوا القواعد ، وتحرّكوا معها على أضواء حياتهم هم ،
وما يحيط بتلك الحياة من ظروف ... ولكنّ ذلك الماضي لا يزال مستمراً في
الحاضر ، من خلال سلطان المدرسة اللغوية القديمة ، على أفكار المحافظين المحدثين
رغم اختلاف متطلبات الحياة في عصرهم ، عنها في عصرنا .. وبذلك يُضاف
قيد ثان يُعَوّق العربيّة عن الانعتاق المنفتح ... فكيف تعود إلى حريتها العفوية ،
بعلمنا سببها لها خروج أهلها من جزيرتهم ، وتزمت اللغويين ، القدامى منهم
والمحدثين ... ؟

وفي الحاضر الناظر إلى المستقبل ، من خلال العقلية المنفتحة التي لا تؤمن
بالأسوار ... وقد مثّلَ هذه العقلية الحرّة الشيخ عبد الله العلايلي . في مقدمته
التي نضعها بين يديك ، مهذبة في شكلها الجديد ، بعدما لقيتْ ما لقيتْ
من إعجاب المعجبين ، وتعويق المستنكرين ..

إنها في الثلاثين من عمرها ، في أروع أيامها ، في عز صباها ، لم تزدها
الأيام ، كصاحبها إلا نضارة وقوة ... فهل تخوضُ معها معركة الشرف
العربيّ ؟

وهل تمثلُ دورك مع الشيخ في قصة الحرّية ؟
ومع المقدمة في قصة العربيّة ؟

الباب الأول

التطور اللغوي ونسوء العربية

« ... إن اللغة هي منزل الكائن البشري ... »

« هيدجر »

« ... على أننا رغم ذلك كله ، نجد من السيد العلابي ، محاولة جريئة تامة لشرح تطور العربية ، منذ عهدها الفطري إلى اليوم ...
وأحسب أن عرض هذا التطور هنا ، يعطينا المثل العلمي لما نرجوه من أثر جليل لإصلاح المنهج اللغوي ويفتح لنا الطريق السوي إلى معالجة مشكلات حياتنا اللغوية ، علاجاً أهدى بصيرة ، وأصح تشخيصاً ، وأدق تناولاً ... »

أمين الخولي

« مشكلات حياتنا اللغوية »

« ... أساس اللغة لا يقوم على ما تحتويه من كلمات ، وإنما يقوم على تركيبها الخاص ... وبإمكاننا أن نقول : إن العرب ، في ظل الاستعمار ، لجأوا لحماية هويتهم وأصالتهم إلى اللغة العربية ، أو بالحري إلى اللغة العربية القديمة .
ومن هنا نلمس قوة وصلابة قيم ومزايا اللغة العربية التي ناضلت بنجاح ، لا ضد غزو اللغات الغربية المسلحة بقدرة عملية على الإيصال وحسب ؛ وإنما كذلك ضد اللهجات (المحلية العامية) التي حاول الاستعمار تغذيتها لزرع الفرقة والتجزئة ... »

المستشرق جاك بيرك

صاحب : « العرب من الأمس إلى الغد »

مقدمة الباب الأول

« مغامرتان »

التطورُ اللغويُّ

ونشوءُ العربيةِ ...

مغامرتان في قلب الزمانِ ، وشوق الإنسان ...

الأولى : سفرٌ في التاريخ ، وغوصٌ إلى أعماقه .. ثم ارتفاعٌ عائداً إلى شواطئِ
الحاضر ، محمّلٌ بلآلئِ الأعماقِ ..

الثانية : ارتقاءً إلى المستقبلِ ، وحومٌ على أعاليهِ .. ثم اكتشافٌ غنيٌّ سعيدٌ ..
يعودُ بالبشرى المغامرُ :

يا أبناء أمتي ، هذا السبيلُ المفتوحُ ...

أيها النشءُ دَعُوا السُّبُلَ المُضِلَّةَ ...

من هنا كانت نشأةُ العربيةِ ، وبهذا المجرى

النشوي تَسِيرُ فلا تتوقَّفُ بعد اليوم ..

فاللغةُ وجدانٌ يترآى بالكلمة ؛ وهما مرآةٌ ذاتُ وجهين ، في أيَّهما

نظرتَ تَطالِعُكَ البهجة ..

من هنا جاءت بهجتي ، بفصول هذا الباب الأربعة ، فجعلتني أبدأ كما

بدأتُ ، مطمئناً إلى طرفي الزمان ؛ ماضيه ومستقبله ..

فحاضرنا مُشكِـلٌ ، عديدُ المشاكلِ .. وقد زُجَّ إنسانُنا العربيُّ في أعم

المقلقاتِ وأخطرها ؛ إن في لغته ، أو في عقيدته ، أو في وجوده ..

وعندي أن هذه المقلقات متشابهة" تشابكاً يجعلها بحكم الواحدة ..
وقد عاش ، هذا القلقَ العصريَّ ، مُغامِرٌ يتخطى ؛ فكتب ، منذ
ثلاثين عاماً ، كتابَ « مقدمة للدرس لغة العرب » ، قدّم فيه حلولَ المشكلات
وأماناً من المقلقات .. جعلَ قسمه الثاني ما أسميه في النشر الجديد « باباً أولاً »
.. ولخصه هناك في تصدير الكتاب بقوله :

« وأتينا في القسم الثاني على تاريخِ النشوء اللغوي وتطورِ اللهجة ، فبدا عاجلاً
من حيث الوقوفُ عند تحقيقِ كل فكرةٍ على ما يقتضي الأسلوب العلمي
الخالص . فقد نجد فيها آراءً مُرسلةً ولكن يُطمأنُ إليها من حيث الشرح
وال تفسير .

وأهم ما انتهينا إليه ، من آراء ، فرض أن الجدول الهجائيّ بأصواته
(حركاته) هو لغة الإنسان القديم .. وتقدير أن نشوء العربية كذلك كان أحاديّاً
فثنائياً فثلاثيّاً الخ .. وتحقيق أن العربية انتقلت من دور كانت فيه صوتيةً
تماماً على أدوار متعاقبة .. وأن القرآن تناولها ولما تستقر ، بحيث كان سبباً
قوياً في تهيئة الاستقرار على أكمل الوجوه .. وظلّت غير خالصةٍ من علائق
الفوضى في الموازين ، وصيغِ الجموع ، وأبواب الأفعال الخ ... » .

ولتكون مُعطياتُ هذا الباب شديدةَ الوضوح ، قريبةَ التناول .. استعرتُ
لها من القسم الأوّل ، ومن القسم الثاني ، ما يجعلها مقدمةً ونتيجةً ، بل قاعدةً
انطلاقٍ وغايةً .. ولا أظنني فعلتُ ما يُخالفُ جوهرَ النية المخلصة التي
عُقدَ الكتابُ عليها ، فقد قال صاحب المقدمة : « هذه المقدمة نُشرها تعريفاً
بأفكار شتى ، وتصحيحاً لاسلوبِ الدرسِ بحيثُ يَحْتَبِكُ من مجموعها اقتراحُ
الإصلاح الجديد (١) » .

لذا ، فقد أخذتُ الفصل الاول ، « العربية واللغات » ، من القسم الاول ،
في المقدمة الاصلية .. لاقتضاءاتٍ معاصرةٍ ، تُثارُ في كلِّ مكانٍ من أرضنا

العربية ، وتشير إلى صعوبات اللغة العربية ومشكلاتها ، أو تؤكدُ سهولتها واطمئنانها .. حتى لقد تألفت في ذلك المؤلفات العديدة ، مثل : مشكلات اللغة العربية (١) ، لمحمود تيمور . مشكلات حياتنا اللغوية (٢) ، لأمين الخولي . القومية الفصحى (٣) ، للدكتور عمر فروخ . في فلسفة اللغة (٤) ، للدكتور كمال الحاج . مقدمة « دراسات فنية (٥) » ، للدكتور عبد الكريم الياني .. إلى غير ذلك من المقالات والمحاضرات ، والمناقشات ، والندوات .. مثل « العربية الفصحى في حرج (٦) » ، للدكتور عبد العزيز الاهواني . « العربية الفصحى أمام التحدي (٧) » ، لاساتذة الجامعة اللبنانية ، الدكاترة : أحمد مكّي ، « عميد كلية الآداب » كمال الحاج ، سعيد البستاني ، فريد جبر ، صبحي الصالح . « الدعوة إلى العامية اللبنانية بحرف لاتيني (٨) » ، لسعيد عقل .. المهمّ ، جعلتُ « العربية واللغات » ، في هذا الباب ، لأنطلق من مشكلة عصرية ، تتعدّد على خصوم العربية وأنصارها .. ولكنها عند الشيخ عبد الله العلايلي ، تأخذ وضعاً محايداً موزوناً ، يُطِلُّ على أسباب الشكوى الحقيقية ، ويكتشف العلاج الشافي ، في بحثه التطوري ، الذي استغرق بقية الباب ، مع متممات استعرتها من القسم الثالث والآخر ، في المقدمة الاصل .. أما ما استعترته من القسم الثالث ، فأهمُّه ما يتعلّقُ بقاعدة القلب أو

-
- ١ - محمود تيمور ، مشكلات اللغة العربية ١٩٥٦ م
 - ٢ - أمين الخولي ، مشكلات حياتنا اللغوية . ١٩٦٥ م . / ط ٢ /
 - ٣ - عمر فروخ ، القومية الفصحى ١٩٦١ م / ط ١ /
 - ٤ - كمال يوسف الحاج ، في فلسفة اللغة ١٩٦٧ م / ط ١ /
 - ٥ - عبد الكريم الياني ، دراسات فنية ١٩٦٣ / ط ١ /
 - ٦ - عبد العزيز الاهواني العربية الفصحى في حرج . مجلة الآداب البيروتية ١٩٥٦ م . العدد الرابع
 - ٧ - هذا موضوع الندوة التي دعا إليها نادي خريجي المقاصد في بيروت وأدارها الأستاذ حسين القوتلي بتاريخ ١٦/١/٩٦٨ .
 - ٨ - مي المر ، اللغة اللبنانية العامية والحرف الجديد ... مجلة بروق وروعود ١٩٦٨ / ٣ / ٢٣ . العدد الأول .

الدوائر .. أو ما تعارف عليه اللغويون « بالاشتقاق الكبير » .. وذلك للدواعي
تربوية جامعية ..

من هذه الدواعي ، أن « الاشتقاق الكبير » هو لبُّ الفقه اللغوي ، ولكنه
اللبُّ العميق (١) ، وقد حام عليه قدامى اللغويين ومحدثوهم ...

وأذكر بعض الكتب الحديثة التي أُلِّفَتْ في فقه اللغة . مثل : فقه اللغة (٢)
وعلم اللغة (٣) ، للدكتور علي عبد الواحد وافي . دراسات في فقه اللغة (٤) ،
للدكتور صبحي الصالح . فقه اللغة وخصائص العربية (٥) ، لمحمد المبارك ،
وغيرها (٦) .. وكلُّها كتبٌ بمتناول طلاب الجامعة ، ومن خلالها يطلعون على
تراث العرب الفقهي ، من الفراهيدي (٧) ، إلى الفارسي (٨) ، إلى ابن جني
إلى من تابعهم في هذا المجال .. وقد بذل أصحابها من جهود التتبع والجمع
والاستنتاج ما نحن مدينون له بشكرٍ مستمرٍّ مع حبنا للغتنا ...

ولكنهم ، هل أوصلوا طلابَ العربية إلى لباب الفقه في لغة العرب ؟
لقد أجاب على هذا السؤال أحد هؤلاء الاساتذة الكبار ، صاحب « فقه
اللغة وخصائص العربية » ، في صدد بحثه الاشتقاق الكبير ، بقوله :

١- راجع آدم منز . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٣٣٠/١ ط ، سنة ١٩٤٧ . وصبحي الصالح
دراسات في فقه اللغة ٢٣٤ .

٢- ط ٥ / لجنة البيان العربي ، تقرر تدريسه بجامعة القاهرة ١٩٦٢ م

٣- ط ٥ / مكتبة نهضة مصر ، تقرر تدريسه بجامعة القاهرة ١٩٦٢ م

٤- ط ٢ / المكتبة الأهلية - بيروت ، يدرس بجامعة بغداد والجامعة اللبنانية ١٩٦٢ م

٥- ط ٢ / دار الفكر الحديث لبنان بيروت ، يدرس بجامعة دمشق ، ١٩٦٤ م .

٦- من الكتب الحديثة الباحثة في فقه اللغة طائفة ممتازة من الكتب ، مثل : دراسات في اللغة ،
للدكتور إبراهيم السامرائي . بغداد ١٩٦١ / مناهج البحث في اللغة ، القاهرة ١٩٥٥ . اللغة
بين المعيارية والوصفية ، القاهرة ١٩٥٨ ، للدكتور تمام حسان . دلالة الألفاظ ، القاهرة
١٩٥٨ . من أسرار العربية ١٩٥٠ ، للدكتور إبراهيم أنيس .

البقرية العربية في لسانها ، لزكي الأرسوزي ، دمشق . دار البقعة العربية .

٧- + ١٧٥ / ٨ + ٣٧٧ / ٩ + ٣٩٢ /

« أرى ضرورةَ ولوج هذا الباب ، واستشراف آفاق العربية البعيدة من هذا المرتفع .. ولكن الطريق وعرة لم تُعبَد ، وهي تتطلبُ رواداً يشقون الطريقَ بفكرٍ ثاقب وبصرٍ نافذ .. (١) »

وعندي أن الشيخ عبد الله العلايلي ، هو الرائد المبحوث عنه ، في هذا المتجه ؛ وقد شقَّ الطريق ، في مقدمته اللغوية ، منذ ثلاثين عاماً .. وليس للاشتقاق الكبير وحسب ، وإنما لكلِّ متطلباتِ النماء والحياة والتطور في لغة العرب ..

لهذا قدمتُ متمات نظريته في الاشتقاق الكبير ، إلى الباب الاول ، وهندستها بنظرية ثابتة الاركان ، واضحة المعالم ، لا غموض فيها ، تأخذ بيد الطالب المتوسط والثانوي ، ناهيك عن الطالب الجامعي ، إلى أفياء اللغة السعيدة ، وأضواء العربية في فقهها المنير ... فيتعرف إلى مجمل النظرية ، ومقومات تفصيلها ، ومعقول العرب من خلالها ؛ ويقف عند النتائج التي ترتب عليها فتسد نقص العربية وتضمن مستقبلها المتطور النامي .. وقد يدهش لأمر يصادفها ، في غصون النظرية ، كتقديم قائمة كاملة بمعاني حروف العربية ، لأول مرة في تاريخ دراستها .. ولا بأس في الغرابة والاستغراب ، فالنفاذ البصير إلى أبعد من الجمع والتقليد ، أمرٌ يدهش ولكنه يهدي وينقذ ..

هذا في الفصل الثاني ، « أدوار اللغات ونشوء العربية » ، من الباب الاول ..

وبمثل هذا الصنيع ، رتبْتُ الفصلين الباقيين : « التطور في اللهجة » ، و « التطور في اللغة » ، فجاءا بنظريتين واضحتين ، في مؤيداتها ونتائجهما ..

اتضح أدوار العهدين الصوتي واللفظي في نظرية التطور في اللهجة ..

وتأكدت ، في نظرية « التطور اللغوي » ، مؤيدات التطور ، من اللغوين القدماء ، ومن كلمات اللغة المتطورة .. وانشعبت نتائج هذه النظرية إلى شعبتين ؛

الاولى ، استقرائية .. تلخص تاريخ النشوء اللغوي وتطور اللهجة ..
الثانية ، استنتاجية ، وفيها خمسة فروع ، جعلت الخامسَ منها قاعدة
انطلاق إلى أبواب الكتاب الثلاثة الأخرى ، وشبه مقدمة لها .. واتخذتُ هذا
الفرع مطلقاً على أبعاد المغامرتين ، في وجدان الانسان ، وقلب الزمان ...
فاللغة وجدان يترأى بالكلمة ؛ وهما مرآة ذات وجهين ، في أيهما نظرتَ
تطالعُك اللهجة .. أيها النشء دعوا السبيلَ المضلة ..
يا أبناء أمتي هذه هي السبيلُ المشرعة ..
من هنا كانت نشأة العربية ، وبمجراها تسير ، فلا تتوقف بعد اليوم ..

الفصل الأول

العربية واللغات

اللغة منزلُ الكائنِ البشريِّ ومرآةُ فكره ؛ يلجأ إليها لتأكيد وجوده ، وينطلقُ بها لتحقيقِ رغباتِهِ . ولكنَّ المنازلَ تَغْنِي بسُكَّانها ، والمرايا تصفون وتُجملُ بالعيونِ الناضرةِ إليها والوجوهِ المصوَّرةِ عليها . فإذا هاجرَ السُّكَّانُ أو ماتوا ، خلتِ المنازلُ وافتقرَ غِنَاها ، فهمُ روحُها التي بها تحيا . وإذا قُبِحتِ العيونُ وشاهدتِ الوجوه ، حالتِ المرايا وتعكَّرتِ صفاؤها وأُفسِدَ استعدادُها ، فالصورُ المطبوعةُ عليها وجهُها الذي به تبلو .

واللغاتُ مواطنُ الشعوبِ ومرايا أشواقِهِم .
واللغةُ العربيةُ موطنُ العربِ ومرآةُ تفكيرِهِم .
تُمَتِّعُ المقارنةُ بينَ طبيعةِ اللغاتِ ومميَّزَاتِها الحيوية من جهة ، وبينَ طبيعةِ اللغةِ العربيةِ وخصائصِها من جهة ثانية .
ولكنَّ الشكوى من صعوبةِ العربيةِ ، تصرفنا عن متعةِ المقارنةِ إلى تحليلِ عناصرِ هذه الشكوى ، تربوياً ونفسياً .

ليست أسبابُ الشكوى في ما يزعمه الباحثون ؛ من صعوبةِ لغتِنَا العربيةِ ، أو خطأ الأسلوبِ التعليميِّ ، أو غيرِ ذلك مما يُقدِّرون ويلتمسون في طبيعتها وبيانِها وموسوعِ استعمالِها .

فالأَسبابُ الحقيقيةُ بعيدةٌ عن طبيعةِ العربيةِ وملاساتِها في حياةِ العربيِّ ؛ وعلى تحديدها وإدراكِها يتوقفُ تصحيحُ الأسلوبِ التعليميِّ ، وتقويمُ المنهجِ التربويِّ ، واقتصادُ الجهودِ المبذولةِ ، وتخفيفُ المتاعبِ المزعومةِ ؛ لأن هذه الأسبابُ أثَّرتْ على النفسِ العربيةِ تأثيراً شديداً ، وطبَّعتها بطابعٍ غريبٍ من الزُّهدِ بالعربيةِ .

من هذا التأثيرِ وهذا الطابعِ تولدتْ أسبابُ الشكوى من العربيةِ ، وتنحصرُ في وجوهٍ أهمها :

١ - طغيانُ اللغاتِ الأجنبيةِ على حياتنا العامةِ في كلِّ مرافقِها الضروريةِ كالبيعِ والشراءِ وما إليها . وهذا الطغيانُ حرمَ متخصِّصَ العربيةِ من الثمارِ العمليةِ لتخصُّصِهِ ، حتى ليكاد يشعرُ بالغربةِ في محيطه وبين ذوي قرباه .

٢ - الرغبةُ الثقافيةُ ؛ وهذه الرغبةُ لا تتحققُ للعربيِّ ، ما لم يعرفِ اللغةَ الأجنبيةَ ، لأنَّ الانتاجَ الفكريَّ المعاصرَ أجنبيٌّ من كلِّ نواحيهِ . والحاجةُ ماسةٌ لإعدادِ العقلِ العربيِّ إعداداً ثقافياً كاملاً ولا يتسنى له ذلك إلا بالإقبالِ على اللغاتِ الأجنبيةِ ، لأنَّه لا يثقُ بالترجماتِ الناقصةِ والتجاريةِ والسريعةِ ، ولأنَّ حكوماتِ الشرقِ العربيِّ لم تبذلْ كبيرَ جهدٍ لسدِّ هذا النقصِ (١) .

٣ - الامتيازُ : بمعنى أن متعلِّمَ اللغاتِ الأجنبيةِ ، المتحدِّثَ بها ، شخصٌ ممتازٌ أو مميّزٌ ، لأنَّ هذه « اللغاتِ » ، بالنظرِ العامِ ، عنوانُ الحضارةِ في الحياةِ والشخصِ وعنوانُ الترفِ العلميِّ والعقليِّ والاجتماعيِّ من كلِّ الوجوهِ . لذلك يميلُ الناشئونُ إليها .

الخلاصةُ : ليس في جميعِ أسبابِ الشكوى ما يرجعُ إلى طبيعةِ اللغةِ

١ - اختلف الأمرُ عما كان عليه قبل ثلاثين عاماً ، وصار القارئُ العربيُّ يجد معظمَ الآثارِ الأجنبيةِ مترجمةً إلى لغتهِ ..

وجوهرها ، وإنما هي أسبابٌ عَرَضِيَّةٌ غير موضوعية ، خامرتُ أجيالنا ، فأعرضت عن لغتها واستصعبتها ، ومالت إلى الأجنبات واستسهلتها ، بينما الدراسةُ العلميةُ المخلصة تُثبتُ أنَّ « العربيةُ أسهل من كلِّ اللغات ؛ إن في قانون نحوها أو صرفها أو إملائها أو اشتقاقها ، بل أكثرها آليةً إذا صحَّ هذا التعبيرُ » .

وهذا لا يعني خلوَّ العربية من الفوضى ، ولكني اجتهدتُ بفهمها ومداواتها حتى انتهيت الى أربع نتائج مهمة وخطيرة ، بسطتها في شكل « مقدّمةٍ للدرس لغة العرب » .. وهي :

١ - الكشف عن معقول العرب في اللغة ..

٢ - تمهيدُ السبيل إلى ما يُعدُّ العربية لمستقبلٍ مملود ، يستوعبُ التطورَ الحضاري ويجاري التقدم العلمي الذي بات عند طرفِ المعجزة .

٣ - شخصتُ داءَ العربية ووصفتُ دواها ؛ وأملِي كبير في زوال الشكوى من صعوبتها ، وامحاء الوهم القائل بأنَّ غيرها من اللغاتِ أسهلُ منها .. ولكنَّ الشفاءَ المنتظرَ يتوقف ، إلى حدٍّ بعيد ، على العمل بالنتيجتين السابقتين ..

٤ - أكدتُ في أثناء بحوثي على أهمية اللغة ؛ فهي أحدُ وجهي الفكر ، ووطنُ القوم .. فإذا عملنا لوضعِ لغتنا في مكانها المتميز ، كما هي في طبيعتها ، وكما كانت في طبعِ العربي .. إذا فعلنا ذلك قطعنا الشوطَ الأكبرَ للتفوقِ في خدمةِ الأمة والعلم والإنسانية ...

الفصل الثاني

أدوار اللغات

ونشوء العربية

تمهيد :

إنَّ تاريخَ النشوء اللغويّ وتطوّر اللّهجة ، من المواضيع التي لا تزالُ أقربَ إلى الغموض ؛ ويجدرُ بنا أن نجتهدَ في الكشفِ عنه والإثارةَ لبحثه . وهذه المحاولةُ تبسّطُ رأياً جديداً حول الموضوع ؛ فلم تتوقّف عندَ بحوث المتكلمين وجدلهم بقضيّة اللّغات ؛ أمي توقيفيّة ، هكذا وردتنا من الله ؟ أم وضعيّة ، تعارف عليها الإنسان ؟ .. كما لم تقتنع بتقسيمات (١) علماء المقابلة اللغوية في هذا العصر .

والجديدُ في رأينا ، يتلخّص في أن جميع اللّغات ، مرتقيةٌ وغير مرتقية ، مرّت في أدوار ثلاثة :

١- دور المقطع البسيط ؛ وهذا يعني أن المقطعَ كان واحدياً غيرَ مركّب مثل (ba) وفي هذا الدور ولد الجدول الهجائي (ا ب ت ث .. الخ) بأصواته المختلفة . ونقصدُ بالأصوات ما نسمّيه الحركات في العربيّة ، كما عرفت فيما بعد . وفيه أيضاً كان كلّ صوتٍ يدلُّ دلالةً بعينها . فمثلاً (عو) يدلُّ على الحيوانات الزئيرية ، و (وا) يدلُّ على الصوت المتكرر بحركة الفكيّين .

١ - انظر كتاب الفلسفة اللغوية لزيدان ص ٢ ، وتاريخ سوريا المطران الدبس ج ١ / ص ١٣٧

٢ - دور المقطعين ؛ أي دور الجمع بين مقطعين واحدتين للدلالة على معنى جديد . ويُعتبر هذا الدورُ دورَ محاكاة الطبيعة في مختلف أصواتها ؛ وفي آخره قصد الإنسان إلى التأليف من منطقة ، فمثلاً جمع الإنسان السامي بين المقطعين البسيطين (عُو) و (وا) للدلالة على أن الحيوان يعوي ، فتوصل إلى (عُووا) بمعنى حيوان يُصوتُ أو يواصلُ التصويتَ .
وإلى هذا الدور تنظر المعلّات في العربية ، فهي ثنائية الوضع مؤلّفة من مقطعين واحدتين فقط ، وباستقرار العربية في الثلاثي بدأت تصححُ الصوتَ فيها وتستحصلُ مثلَ (عوى) بمعنى صوتَ الحيوان .

٣ - دور المقاطع ؛ أي دور الجمع بين المقاطع البسيطة الواحدة ، وبين المقاطع الثنائية ، لتأليف دلالة مركبة . وكان هذا الدور بقصد الإنسان تلبيةً لحاجته ، وفيه اتخذت العربيةُ وحدتها ، واستقرّت في الثلاثي .
الخلاصة ؛ مرت جميعُ اللغات بثلاثة أدوار : دور المقطع البسيط ، ودور المقطعين ، ودور المقاطع . وتولّف هذه الحِقبةُ ، بأدوارها الثلاثة ، العهدَ اللغوي الأول .

وفي ختام هذا العهد ، وقفت لغات ، وأميتت لغات ، ونشطت لغات أخذت بالحياة الجبّارة ، وهذه الأخيرة وحدها ألّفت العهدَ اللغويّ الثاني ، عهدَ اللغات المرتقية .

وتقسّمُ اللغاتُ المرتقيةُ ، باعتبار قابليتها للتصريف والاستقاق ، إلى متصرفة وغير متصرفة . وما يهْمُنّا منها هو القسم الأول ، المتصرف .

الدور الاول

دور المقطع البسيط

الانسان الفطري

إن ، لبحث الإنسان الفطري ، علماً قائماً بذاته ؛ هو علم الإنسان (الانثروبولوجيا) (١) . وما يهمني من ذلك الإنسان الفطري ، في موضوعي ، هو البحث عن أصواته السليقية ، التي استقرت في غايتها على صورةٍ وكانت لهجةً ، ولا تعتبر الأصوات لهجةً ما لم تستقر .

قلنا ، في التمهيد ، إنَّ جميعَ اللغات مرت في ثلاثة أدوار . وأسمينا الدور الأول دور المقطع البسيط ، وأشرنا إلى « أن » الدور الفطري في غايته أدّى إلى حروف الجدولِ المهجائي بأصواتها لتدلّ دلالاتٍ ثابتة تختلف باختلاف الصوت مع الحرف ، .

وبعودتنا إلى الطرف الأقدم من لغة الإنسان نخلص إلى أن وحدةَ اللغات الحقيقية هي هذه الحروف بأصواتها ، وأن الجدول ، الذي هو بسيطُ أبةٍ لغةٍ ، قد كان لغةً في ظرفٍ بعينه هي لغة الإنسان الذي ارتقت البشريّاتُ عنه .

١ - راجع ، اذا شئت ، كتاب حسن صفان ، علم الإنسان ..

وبعبارةٍ أخرى ، تأثرت لهجةُ الإنسان الفطريّ، في هذا الدور على امتداده، بصوت الطبيعة في نفسه ، وفي المواليد الحيّة، والنامية، والحامدة . وكان من نتيجة هذا التأثير أن تولدت أصوات كلمية ، وكانت فيما بعد هي الحلول الهجائي بلهجاته التي صارت في سموقها اللغوي حركات الحروف ..

ومن الممكن تعيين دلالات هذه الحروف بأصواتها حين كانت لغةً على شيء من الافتراض المقارب ، وسبيل هذا التعيين المجلات إطلاقاً ، وبالأخص منها اللفيف من العربية (١) .. فإذا بلغنا هذا التعيين فهما العربية فهماً تاماً ، لا في تأليف الثلاثي فقط بل في الموازين أيضاً .

« ويتفرّع عن هذا فهمُ سرّ الحركات ، وتبيّن سرّ الاختلاف في المعنى باختلاف الحركة الواحدة في الميزان .

« وإذا أخذنا في تحليل كلمات العربية على معاني الحلول خرجنا بمقاربات يمكنُ عليها فرضُ التطوّر . وإليك بعض الأمثلة من الكلمات التالية : شجر ، جبل ، جمل ، سمك .

المثال الأول : شجر ، شجرة ، وتحلُّ إلى حروفها ؛ ش : ومعناه سنّ ، وهو ينظر إلى مطلق النبات . ج : ومعناه جمل ، وهو ينظر إلى مطلق الارتفاع ر : ومعناه رأس .

والمعنى المؤلف : نباتٌ مرتفعٌ له رأس . وهو تماماً معنى الشجر . وانظر إلى تخصيص اللغويّ الشجر بما له ساق .

المثال الثاني : جبل ، وتحلُّ إلى حروفها ؛ ج : ومعناه ينظر إلى الارتفاع . ب : ومعناه بيت . ل : ومعناه الملاصقة والمساس .

١ - المجلات في العربية هي ؛ المثال مثل وعد ، والأجوف مثل عاد ، والناقص مثل دعا . والليف المفروق مثل وعى ، والليف المقرون مثل نوى ..

والمعنى المؤلف : بيت مرتفعٌ ملاصقٌ ، وكأنه للسحاب أو للأرض .
وهو تصورٌ صحيحٌ عن الجبل ..

وعلى هذا القياس تُحلّل الكلمات وتُردُّ إلى معانيها الأولية اعتماداً على
معاني حروف الجدول الأبجدي حتى يتمَّ لنا استخراجُ جدول واسعٍ يتناول
معاني الحروف والأصوات ..

الخلاصة : توصّل الإنسان الفطريّ في هذا الدور ، إلى مجموعة حروف
الجدول الهجائي بأصواتها ، وقد كان توصُّله بالمصادفة ، ومحاكاة الطبيعة ،
وتقليدها .

ومن هنا ، لا نطمئنُ إلى القول بأن لغات العالم تفرّعت عن مصدرٍ
واحد ، وإنما هي وليدة أسباب مكانية اجتماعية وانفرادية ، كالعادات
وليدة الطبائع والظروف .

كما عيّن الانسان الفطريّ معاني هذه الحروف ، واتّخذها بأصواتها لغةً
للتفاهم ، وقد بقيت ملاحظة هذه المعاني في وضع الكلمات إلى آخر العهد اللغوي ..
وإذا كان الإنسان الفطريّ لم يتوصّل إلى الجدول الهجائي بترتيبه الحالي ،
فلنما توصّل إليه كمجموعة لكلمات اللغة الفطرية .

وإذا كان الجدول لا يضمن لنا دراسة كلّ كلمات اللغة على وجه
التحقيق ، فانه يمكننا الاطمئنان إلى انفصال اللغة عنه ثنائية فثلاثية ، كما يمكن
الاسترواح بمعاني حروفه حتى يتمَّ لنا استخراجُ الجدول الواسع . وحروف
الجدول بترتيبها الحالي هي ثمانية وعشرون حرفاً .

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م
ن ه و ي .

الدور الثاني

دور المقطعين

أشرنا ، في التمهيد ، إلى أن الإنسان القديم ، جمع بين مقطعين واحدتين للدلالة على معنى جديد . وتلك الإشارة تحملُ في توسيعها معطيات نظرية طريفة . وهذه النظرية جديدة على علم تحليل اللغة .

بدأ الإنسان يسعى وراء مقاصده في هذا الدور ، وأخذ يحاكي الطبيعة ، ومن هذه المحاكاة التي تُعتبر مصدره اللغوي الوحيد ، ترك ثروة لغوية ، هي أكثر المقاطع الثنائية التي يمكنُ فرضها .

« ونحن ، وإن ذهبنا نقرر بأنَّ الثنائيات من وضع هذا الدور أو وليدة عوامله ، فلسنا نغني أن ذلك كان بقصد الإنسان إلى التأليف والتركيب ؛ وأتما انتزعا تارة من مصدر بسيط غير ملاحظ فيها تركيباً ، وتارة نشأت بنفسها من ضم المقاطع التي يحتملها التعبير ... وخصوصاً إذا كانت مجموعة المقاطع المضمومة تدلُّ على معنى شخصي واحد يتوحدُ في غايته بضرورة استمرار هذا التعبير لهذه الغاية ...

« وهذا صحيح ، ما دمنا نستطيعُ تعيين دلالة الحرف وصوته .. على ما في ذلك من صعوبات ؛ لأن معرفة دلالة الأصوات تماماً ، ودلالة الحروف

البسيطة كذلك ، تحتاج إلى مجهود كبير ، وإلى معرفة لغوية شاملة ، وإلى استقراء دقيق ، يقعدُ بالباحث المنفرد .. ولذلك أقتصر الآن من التطبيق على بعض الحروف فقط ليكون كدليلٍ على صحة النظرية من وجه ، ومدعاة لبذل الجهود وتوفيرها على تحقيق أصواتٍ وحروفٍ كل لغةٍ ونسبتها إلى الكلمات المؤلفة من وجه آخر .. » .

« ونحيلُنا لتعبير إنسان الدور الثاني ، وبيانه باعتماد معاني الحلول المجائي ، يوقفنا على مستوى الأخيعة الواضعة ، ويساعدنا على تحقيق التطور الوضعي وتاريخ الاشتقاق ..

« ونكتفي بتحليل مثالين ، يوضحان أن الثنائي من وضع هذا الدور ؛ هما : عبي ، والمعلّات .

المثال الأول : عبي ؛ تحلّلُ إلى حروفها ، ع : وتدلُّ على الحيوان الزئيري . ب : وتدلُّ على البيت .

وكان المعنى الأولي : حيوان البيت القوي ، الذي هو كناية عن الرجل . ثم اشتقَّ منه بعد أطوارٍ من الترقّي اللغوي اسمٌ للباس الرجل الخاصّ به ، العباية . ثم غلب الأصل في معنى الفرع المشتق ، وأميت معنى الأصل بالنسيان أو بعدم الاحتياج ، حتى صار في معنى الفرع حقيقة وضعية .

المثال الثاني : المعلّات عامةٌ ؛ وأرى أنها ثنائية ألحقت بالثلاثيات بتصحيح حركة الحرف حرفاً ، كما رأينا ، في التمهيد ، تشكّل (عوى) وبذلك تكون أقدم ما حفظ من اللغة . وقد قصد العربُ إلى تقليدها أو إمامتها ، في أدوارهم الأخيرة ، وتوسلوا إلى ذلك بأمرين :

أ— إبدال الهمز به ؛ وغلب هذا في المثال ، وهذه ظاهرة قلّما تنبّه إليها باحثو الاشتقاق العربي ، مع أن لها خطورتها في بناء الكلم وتحرير معانيها فمثلاً : أخى ، أصلها ونحى ... وأهمية هذه الملاحظة كبيرة في تصحيح التاريخ اللغوي ، وتمييز الأصول الموضوعية من الملحقة إلحاقاً .

ب- الحذف والتضعيف ، وهذه أيضاً ظاهرة لغوية لم يتهبوا إليها ، وهي بلا ريب عظيمة الأهمية من حيث وجوه المعرفة في الأولى ، فمثلاً : بنى ، يصار بها إلى نَبّ

والذي يؤكد أن المَعْلَات صور مصحّحة عن الثنائي الصوتي ، وأنها أصلٌ للثنائي المضعف ؛ هو الثنائي المخفّف كدم ، ويد ، وأب ... وذلك لأنها إن كانت ساكنة فلا معنى لتحريك الآخر وهي تعتمد على أقلّ ما به تمّ الكلمة ، وعليه فلم يبق إلاّ أن تكون منفصلة عن معلّ مما تكون به متخلفة بالنسبة إلى موضع اللغة ... ويدلّ لهذا الاعتبار فيها : أب ، المحفوظ بالإعلال والتضعيف والتخفيف ، وهو يتنظم في تطورات ثلاثة : أبا ، ابّ ، أبّ . وبقي أسبابٌ أخرى تقوي وجهة النظر المذكور ، تجدها مفصّلة في الأصل (مقدمة للدرس لغة العرب) الذي تقرّبهُ هنا إيجازاً وتبسيطاً .. وتُطْلَعُ على سِرِّ التضعيف الذي كان القصدُ منه طردَ كلمةِ العربية على ثلاثة أحرفٍ والتحلل من الصوتية ...

الخلاصة : حاكى إنسان الدور الثاني الطبيعة بمختلف أصواتها ، وقصد في آخرِ هذا الدور الى التأليف من منطقهِ ، بالمعنى الذي أوضحناه ، للتأليف والجمع بين مقطعين أحاديين ، وترك ثروةً هي أكثر المقاطع الثنائية .

ورأينا أن هذا الدور حالة لا بُدَّ منها في نشوء اللغات . وإليه يرجع الثنائي ، بما في ذلك المَعْلَات ، علماً بأن الكلمات التي فيها حرف حلقيّ تنظرُ إلى المعلّ رأساً على وجه الاطرّاد ، لأن واحداً من هذه الحروف ليس أصلاً . وحروف الحلقي ستة هي : ع ، ه ، ح ، غ خ ..

ولنما رأينا هذا الرأي في وضعِ المَعْلَات على أنواعها لتختلف الجامع المعنوي بين صورها المادية الست .. مما يدلّ على أنها وُجِدَت قبل الوضع اللغوي الدوري ، وقبل وصول العربية إلى ما وصلت إليه كلغة ذات فقه خاص واشتقاق ثابت مطرد .. فالمَعْلَات وليدة فوضى الوضع القديم ، وأقدم ما وصلنا من كَلِمِ اللغة .

الدور الثالث

دور المقاطع

أشرنا ، في التمهيد ، إلى أن هذا الدور ، دور المقاطع ، كان بقصد الإنسان إليه تلبيةً لحاجته ؛ إذ كان يجمع بين المقاطع البسيطة الواحدية وبين المقاطع الثنائية لتأليف دلالات مركبة ... وأشرنا إلى أن العربية اتخذت وحدتها في هذا الدور واستقرت في الثلاثي ...

ونُرجحُ بأن يكون مبتدأ هذا الدور ، هو بعينه عصر الحجر المهدّب ، الذي تمّ للإنسان فيه كثيرٌ من الرقيّ... وبهذا الترجيح يتمكن الباحث اللغوي في سهولة ، من استعراض أدوار النشوء في بناء هيكل اللغة ، على سنة تدريجية غير آخذة سبيلاً من الطفرة ، أو قائمة على أسس المفاجآت المحضّة .. والذي نقدره أن الانسان احتاج إلى الخطاب المبسوط ، بحكم عوامل الرقي والتطور ، فوجّه عنايته إلى اصطلاح المنطق ، وجمع جهده في انتزاع الكلم وتحصيلها من أي وجه ؛ كما نقدر أن الثلاثيات كانت تتزايد وتنمو وتتكاثر على سنة التركيب الكلمى الذي يتخذ بحكم التعبير به صيغة الأفراد ، ومعنى هذا أن عصر الحجر المهدّب شهد ثلاثيات كانت تستعمل للدلالة بها على مفردات من الأشياء ...

ويقع هذا الدور في حلقات متباعدة المدى ، لكنها بقيت خاضعة لطابع الثلاثي ، ولربما يكون هذا الخضوع نتيجة لسيطرة عقيدة الثلاث التي ظهرت في شئ مآتي الإنسان القديم .

وقد قسمناه إلى خمس حلقات ، تعاقبت على اعتبار الثلاثي ، ولم تتغير في أساسها ، وإنما اختلفت في نسب جعلت بينها تفاوتاً ارتقائياً فقط وفي بحث هذه الحلقات ، حصرنا النظر في التطبيق على العربية ، لأن تطبيقها فيما عدا العربية يحتاج إلى مجهود أكبر ، وعرض أوسع ... وخلصنا إلى مقومات كل حلقة بالنسبة لهذه اللغة :

١- الحلقة الأولى : تعتبر مرحلة اجتهد الإنسان لتكوين منطقته اللغوي والتعبير عن حاجاته ...

٢- الحلقة الثانية : تكثير اللغة وفوضى الزيادة .

٣- الحلقة الثالثة : التنب اللغوي ، وتنظيم موضع الزيادة

٤- الحلقة الرابعة : قمة بحثنا ، لأنها تمثل النضج اللغوي عند العرب كما يظهر في قاعدة القلب ، ومستلزماتها ، ونتائجها ...

٥- الحلقة الخامسة : المعاني التركيبية ، وطريقة العربي في وضع الرباعي من الثلاثي الخ...

الحلقة الأولى : تكوين المنطق اللغوي والتعبير عن الحاجة

في هذه المرحلة ، جد الإنسان ليخضع ما حوله من أجل معاشه ، وأعمل الحيلة لتكوين منطقته بين مطالب العيش الجديدة، فصارت له لغة على مقياس من تفكيره وحوالجه ..

ولا يُبعد أن تكون هذه الحلقة امتدت إلى آخر العصر البرونزي ، الذي تمّ فيه للإنسان وضع الحجر الأساسي في بناء الحضارة ..

وغاية ما يُقال في لغة هذه الحلقة : بقيت لغة الإنسان فيها على غير تناسب ولا نظام ؛ اجتهد في اصطناع كلماتها لإبراز ما في نفسه ، ولنقل ما يُريد إلى من يشاركه الحياة ويمجاوره المسكن ... فترك ، مع ذلك ، ثروة لغوية ، تتألف من :

أ- المفردات ذات المقطع الواحد .. وهي الجدول الهجائي فيما بعد .

ب- المفردات ذات المقطعين ... وهي المعلات في دور النضج اللغوي

ج- المفردات ذات المقاطع ... وهي التي انتهت كوحدة في العربية ، إليها تنحل كلمات اللغة ، وعنها تصدر ، وقد كثرت جداً ، وكان من وجوه كثرتها كون الفرد الواحد يُنطق بأشكال مختلفة لتأديات مختلفة أيضاً ..

الحلقة الثانية : تكثير اللغة وفوضى الزيادة

قارنت هذه الحلقة ، من حياة اللغة ، ما يُسمى في السوائر العلمية والاجتماعية بالعصر الحديدي ... وفي هذا العصر اخترعت الكتابة . مما يدل على العقلية اللغوية الراقية ، ويُشير إلى سمو هذه الحلقة من الوجهة اللغوية وهي ، في ظننا الخطوة الأولى لتنظيم اللغة ، ومن ثمّ تهياتها بما تمثلته للاطراد على سنة آلية مستقيمة ...

والمهم أن اللغة لم تعد اتكاليةً ابداً، فلم يعد الإنسان يتكل في تكثير اللغة وتسمية الأشياء ، على المصادفات الطبيعية والملابسات الظرفية ؛ بل أصبح يلجأ إلى التأليف تارة ، والتركيب تارة أخرى ، عند الحاجة ، وبحسب

المقتضيات .. ولكنه مع ذلك ، ورغم اعتماده على المفردات الأحادية في ،
تكثير لغته ، بقي فوضوياً في أمرين :

الأول ، لم يهتدِ إلى ترتيب جداول الهجاء على وجهه ...

الثاني ، لم يهتدِ إلى قانون الزيادة ومكانها ، فكان يزيد على الثاني ،
هكذا ، من غير تقرير لموضع الزيادة .

وتجدُرُ الملاحظة ، في ختام هذه الحلقة وسابقتها ، إلى مميزات كل منهما ،
 وإلى درجة التفاوت بينهما ... ويتقررُ ذلك بالنظر إلى الثلاثي في كلٍ منهما ؛
 ونخلص من هذا النظر إلى فرقين أساسيين هما : التركيب والقصد

١- فالثلاثي في الحلقة الأولى ؛ كان عبارة عن تركيب مؤلفٍ من
 ثلاث كلمات ، فلم يكن مفرداً في مفهومه وإن تعيّنَ بحكم دلالاته وموضوعه.

والثلاثي في الحلقة الثانية ؛ كان عبارة عن مؤلفٍ حرفيٍّ ، لا دلالة
 لحروفه على الانفراد في اللغة الآتية ، وإن كانت ذات دلالات أثرية عن عهدٍ
 من الوجود اللغوي أدنى .

٢- والثلاثي في الحلقة الثانية ؛ دخله القصد في أن يكون ثلاثياً ؛ بينما
 كان ثلاثياً بضرورة تشخص الموضوع للواضع ، في الحلقة الأولى .

الحلقةُ الثالثة : التنبُّتُ اللغويُّ وتقريرُ موضع الزيادة

ترتبت هذه الحلقة من الحلقة الثانية ؛ بمعنى أن الحيوية الحصبة في كيانها
 أدت إلى التنبُّت اللغوي في الحلقة الثالثة بكل ما اشتملت عليه هذه الأخيرة
 وبجميع ما امتازت به ؛ من طابعٍ لغويٍّ ، إلى عملٍ وضعيٍّ ، إلى نشوءٍ نظاميٍّ
 لا يختلفُ في شتى اعتباراته ، كما أدت إلى نوعٍ من بلوغٍ الحميٍّ ، دفعه إلى
 الاجتهاد في ضبط الزيادة وتعيين موضعها ؛ وهذا أهمُّ ما عمله العربي في

هذه الحلقة ، إذ اهتدى إلى محلّ الزيادة ، ومن بعدُ اطرَدَ التكاثرُ على سنة بعينها لا يعلموها ، ولا يبينُها ، بل يحاكي ويقلّدُ ويلحفُ في المحاكاة على قانونها .

« ومضى قدامى (١) رجال اللغة ومحدثوهم (٢) ، في غير تردّد ولا تنكّر ، على تعيين الآخر موضعاً للزيادة في الأكثر . وينبغي ألاّ يفهم من عبارتنا ، أن قدامى اللغويين ومعظم متأخريهم ، قدروا الدور الثنائي وأثبتوه كعمرٍ مرّت به اللغة ، في تطوُّرها الطبيعي للتكامل .. وإنما كانت كلُّ أبحاثهم أنّ الواضع لاحظَ عند وضع بعض الثلاثي معنى الثنائي ملاحظة مشتركة .. كقطّ في قطع وقطف وقطم ، وهكذا ... ولم يترددوا في هذا الظنّ حتى أصلوا عليه أصولاً ، ووضعوا ضوابط أتى عليها علماء الاشتقاق ؛ كابن جني في سرّ الصناعة ، والزجاج في الاشتقاق ، وابن الاثير في المثل السائر إلى سواهم (٣) ...

« ونحنُ ، وإن كنّا لا ننكرُ أنّ في كثرة من كلمِ اللغة ما يسندُ هذا الظنّ ، أو يحمل عليه ، نقولُ بخطأه ، ونرى رأياً مخالفاً لهم من وجهين :
١- نرى أنّ الدور الثنائي حالةٌ لا بدّ منها في نشوء اللغة ، كما أوضحنا في الدور السابق .

٢- ليس موضعُ الزيادة آخرَ الثلاثي ، وإنما هو وسطه دائماً ، في غير ما يكون حلقياً من المواد ؛ لأنّ هذه الأخيرة منقلبة عن أصوات هوائية تصحبُ الحرفَ ، ولم تستقر على الوجه الحرفي بالمعنى الدقيق إلّا بعدَ بلوغات لغوية عديدة . ومن ثمّ لا يصحّ أن نعدّ الحلقيّ حرفاً في مباحث التأصيل . فمثلاً

١ - أمثال الزنجشري والفيومي ويظهر جلياً في اعتمادهما « باب الفاء فصل العين » في ترتيبهما المعجمي .

٢ - أمثال زبدان في فلسفة اللغة . وأنثاس الكرمل في نشوء اللغة .

٣ - تلخيص هذه الضوابط تلخيصاً حسناً ، صديق حسن خان في رسالته : العلم الخفايق

عصفور ؛ ترجع إلى : صفر ، وهذه ترجع إلى : صر ، ومنه الصرُّ طائرٌ كالعصفور ، والصرصور الخ .

وأيضاً ما كان فيه حرفُ النون فالأكثر زيادته لأن النون تنوينٌ بالغٌ فقط ، فمثلاً : نهر ؛ ترجع إلى المصل : روى ، الذي منه الريّ .. وكذلك التاء يكثر كونها منقلبة عن واو ... وهكذا ..

الخلاصة :

كانت الحلقة الثانية كالنواة الحية التي أدت إلى التنبؤ اللغوي في الحلقة الثالثة ، وإلى النضج الذي دفع إلى تحديد موضع الزيادة .

ومن جهة ثانية ، رأينا رأياً مخالفاً لعلماء اللغة ، إذ حددوا آخر الثلاثي موضعاً للزيادة ، وحددنا وسطه بكل تأكيد بعد استقراء كلمات اللغة والوصول إلى صفتها العامة .

الحلقة الرابعة : النضج اللغوي عند العرب ، وقاعدة القلب ؛ مستلزمات ونتائج ...

ترتيبُ الجدول الهجائي :

ربما كان الحديث ، في كل هذه الحلقة ، مفاجأةً مطلقةً ؛ وهو رأيٌ يعتمدُ الاستنتاج ، وإن أنجدته الصدقُ على مفرداتِ اللغة ... وهو ، عندي ، أعظم أبحاثِ المقدمة وأخطرها .

« في هذه الحلقة ، تمَّ النضج اللغوي عند العرب ، فلم تعد اللغةُ في حاجةٍ إلى شيءٍ مما كانت تحتاجُه أولاً ، بل خضعتْ خضوعاً عاماً لأصول في الوضع ، اعتبرها اللغائيون (الفيلولوجيون) أسمى وأرفع ما عرفت أمة من الأمم ..

« تركنا العربي في الحلقة الثالثة ، يزيدُ زيادةً تعتمدُ طريقاً واحداً ؛

وفي هذه الحلقة الرابعة ، نراه يلجأ إلى القلب (١) ، ويجتهدُ بإتقانه ، رغبةً منه في أن يجعله السببَ الوحيدَ إلى الوضع غير المتخلف ... ولم يترك الوضعَ عليه حرّاً بل محكوماً بقوانين تحفظ الفكرة الواضعة ، وترجمُ عنها في وضوح ... ومن ثمَّ نرى العربي ، بعدما اعتمدَ في التزيّد اللغوي على المفردات الأحادية (أي الجدل الهجائي) ، يذهبُ إلى ترتيب هذه المفردات كمحاولة انتهت به إلى الترتيب الهجائي دون الأبيدي (٢) . لأن الجدل الهجائي أقربُ ما يكونُ إلى الأصل .. ولا يمكننا إلا أن نقبله كما هو لتصحيح الوضع في المستقبل بقطع النظر ... ونطمئن إلى اختياره دون الجدل الأبيدي لسببين :

١- شهادة المقاليب بحسب قاعدة الدوائر .

٢- تشكك الحفرين في قدامة الحروف الفينيقية ، بعدما اكتشفوا من آثار عرب الجنوب التي ترجع بتاريخها إلى ما قبل أقدم أثر فينيقي ، مما لا يبعدُ معه الظن بأن عرب الجنوب كانت لهم حروف على ترتيب خاص يكتبون بها ..

رتبَ العربيُّ الجدلَ الهجائي ، في هذه الحلقة ، وجعل القلبَ محورَ الوضع .. ثم اجتهدَ في تنظيم قاعدة المقاليب والوضع على اعتبارها ، حتى استخلص قاعدة موزونة جداً ... سنقرُّ بها ونشرحُ معقولَ العربيِّ فيها ، ليُصار إلى تقويم اعوجاج لغوي وفكري نسيرُ على انحنائه وانعطافه من زمنٍ غير قليل ولنكون أمناء على فكرِ أسلافنا من جهة الماضي ، ومصير أجيالنا من جهة المستقبل

١ - القلب هو الاشتقاق الكبير ، ومعناه توليد الثلاثي ست مواد بينها وحدة أي جامع معنوي مشترك ، وإن اختلفت بالخصوص ، والمثال المقرب : علم : هذه المادة تقلب هكذا في دائرتين علم ملح معل . عمل ملح لعم .

٢ - راجع التفاصيل للترتيب الأبيدي في كتاب أدب الكاتب للصولي ص ٢٩

قاعدة القلب أو الدوائر (الاشتقاق الكبير) ..

هذه القاعدة تنتشرُ في الكتاب الأصلي (مقدمة لدرس لغة العرب) من تصديره إلى خاتمته انتشاراً يؤكدُ أهميتها ، لا في الكتاب وحسب ، وقد أرسلَ في الناسِ من سنة ١٩٣٨ ، وإنما في القاموسين اللذين بُنِيا على قوانين المقدمة وخاطراتها المدروسة ، وهما : المعجمُ اللغوي ١٩٥٤ ، وهو موسوعةٌ لغوية علميةٌ فنية .. والمرجع ١٩٦٣ وهو معجمٌ وسيط علمي لغوي فني ...

ولأهمية قاعدة القلب البالغة ، سأحاولُ بسطَها مرةً واحدةً ، وفي هذه الحلقة ، لا بشكلها الضافي الذبول ، المتشعب ، وإنما بشكلٍ يظهرُنا على حقيقتها ، وما تتألف منه ، وعلى معقولِ العربِ اللغوي من خلالها ؛ وعلى أهمية نتائجها والمناقشاتِ التي تثيرها ، وبذلك تنتظمُ أمامنا نظريةٌ بل قاعدة كاملةٌ موزونة ..

أ - تعريف قاعدة القلب

هذه القاعدة ؛ تولدُ ست موادٍ لكلٍ ثلاثي ، على مثال تولدِ الكائنِ الحيّ ؛ وأيضاً تعيشُ في أدوار محدودة لا تتعداها ؛ وتخضعُ ككلٍ شيءٍ للناموس العام ؛ كما أنها تُعيّنُ المادة الأصل ، ثم المقاليبَ على التوالي التاريخي بحيث نقف من بعد على مقدار قدامية كل مادةٍ ومعرفة العمر الطويل الذي عاشت فيه ، وهي قانون العرب الأصلي في تكثيرِ لغتهم ، كما تشهدُ كلمات اللغة .

ب - تفصيلها

يتناولُ تفصيلُ قاعدة القلبِ جميع عناصرها وملابسها ، ويمكن

عرضه في فروع :

١ - تعتمد هذه القاعدة الجدول الهجائي أساسياً ، وتعتبر أقدم المواد من الثلاثي ما وافق ترتيبه .. فمثلاً : أقدم مادة من ثلاثي (م ل ك) هي : كلم لأن الكاف قبل اللام ، وهذه قبل الميم في ترتيب الجدول ..

٢ - تتولد المقاليب ، أو يفرخ الثلاثي موادّه بجعل العين واللام فاء وعيناً .. أي يجعل الثاني والثالث من الثلاثي أولاً وثانياً ، وعليه تُفرخ المادة السابقة (كلم) المادتين الثانية والثالثة : ملك ، مكل .. ولو ذهبنا نستولدها على الطريقة عينها فلا تلد إلاّ مادة الأصل ، كلم .. وهذا يشبه ، من كل وجوهه ، قانون الرجوع إلى الجذر « الاتافيسم » في البيوجيا .. ومن ثم يقف الثلاثي عن الانتاج إلاّ بنوع من التغيرات يجري عليه بعد تمثيله دائرة بعينها .. ونسمي المقاليب الثلاثة السابقة ، الدائرة الأولى .

٣ - إن التغير لتحصيل رأس الدائرة الثانية ، يكون بتقديم اللام من مادة الأصل إلى موضع العين . فتصبح مادة الأصل السابقة ، (كل) بالتغير وعن هذه المادة تنشأ المادتان : ملك ، لكم .. ثم يقف الثلاثي عن الإنتاج أبداً .. ونسمي المقاليب الثلاثة الجديدة ، الدائرة الثانية .

٤ - يتولد ست مواد عن الثلاثي ، كما أوضحنا في الفقرتين السابقتين من هذا التفصيل ، ويكون مثال القاعدة على الترتيب المذكور :

١ - الدائرة الأولى : كلم ، ملك ، مكل .

٢ - الدائرة الثانية : كل ، ملك ، لكم .

٥ - تقضي القاعدة بوجود جامع معنوي بين المقاليب الستة ، لا يمكن أن يتخلف وإن كان على بعد ، وإنما التخالف في الخصوصية فقط ، والخصوصية فرع قائم بذاته من فروع هذه القاعدة . سنوضحه بعد قليل .. فمثلاً : الجامع المعنوي بين المواد الستة في المثال السابق هو : « القوة » التي ترك أثراً .. والقوة في كل شيء بحسبه ... ومن ثم نقف على أن أصالة

نقل (كلم) إلى الكلام ، وما إلى ذلك من علامات النقل .. فقوة المادة (كلم) ترك أثراً بحسبها ، وكذلك قوة مادة (لكم) ترك أثراً بحسبها ، وكذلك بقية المواد ...

وسأضربُ مثلاً آخر لإظهار وجود الجامع المعنوي بين المقاليب الستة ، مهما خفي علينا ؛ ومثالنا الحديد لا يملك صفةً مشتركة ، ولا جامعاً معنوياً ظاهراً ، إذا سائرنا نهج القواميس .. ولكنَّ الحقيقة التي تنطوي عليها قاعدة القلب عند تطبيقها تنفي دعوى القواميس ، وتؤكد قانونها الثابت في وجود الجامع المعنوي بين المواد الست التي يُفرِّخها الثلاثي بالقلب . واليك تفصيلُ المثال :

محارة : ومعناها صدفة اللؤلؤ .

— يردُّها صاحب « لسان العرب » إلى فعل : مَحَرَ ، على رأي الليث ، وإن كان الفعلُ مماثلاً ؛ وهذا رأينا لأن قاعدة المقاليب تقطع بهذا ..
— بينما الجمهور يردونها إلى فعل : حور ، ذهاباً مع عدم وجود الفعل في اللغة .

— فموادها الست ، حسب القاعدة هي :

الدائرة الأولى : حرم ، رمح ، محر .

الدائرة الثانية : حمر ، مرح ، رحم .

— وعلى ضوء قاعدة المقاليب هذه ، نقفُ مبهورين للملاحظة الدقيقة التي بنى العربيُّ الوضعَ عليها ، وهي التخصيص في كيس الحمل الجنيني على فصائل النوع تخصيصاً ملاحظاً فيه أدقُّ الميزات . فإنَّ من المحقِّق أنَّ « اللؤلؤ » : حيوان في الدرجة الانتقالية ، ومن المحقِّق أيضاً أنَّ هذا كان شيئاً معروفاً لعصر الوضع العربي .. ولذلك :

— وضع للكيس الجنيني في الحيوان الانقبلي : محارة ، وعليه فالمحارة كيس جنيني للؤلؤ ..

– ووضع للكيس الجنيني في الحمي التام الحياة : رحم ، وعليه فالرحم كيس جنيني للإنسان ومثله ..

والخلاصة : إن هذا المثال وأمثاله لا تؤكد وجود الجامع المعنوي بين مقاليب الثلاثي وحسب ، وإنما تؤكد قُدامة كل مادة ، وتاريخ نشوئها كما تدعم صحة اختيارنا للجدول الهجائي أساساً للقاعدة ؛ ومن ناحية ثانية تحذّرنا من الاطمئنان إلى المعاجم بشكل مطلق ، وتنبّهنا إلى ضرورة إعمال قاعدة القلب فيما تسوق المعاجم من نصوص .

٦ – تقضي القاعدة بالتخالف في الخصوصية بين تقاليب الثلاثي ، كما قضت بوجود الجامع المعنوي بينها . ورأينا دقة الاستعمال العربي لهذه الملاحظة بوجهيها ؛ الاتفاق في العموم ، يعني في الجامع المعنوي .. والاختلاف في الخصوص ، يعني في الدلالة الخاصة لكل مادة ..

توضّحت فكرة العموم في المثالين السابقين : كلم ، محر .. ولتوضيح فكرة الخصوص ، وتعيين الاختلاف بالخصوصية نلجأ إلى أمرين هما :

أ – تعيين موقع المادة من الدائرة : ونعني به أن كل دائرة تجتمع في وحدة أخص تكون أكثر ظهوراً في المواد الثلاثة من الوحدة العامة للثلاثي في مواد الست ... ولإيضاح ذلك نقول :

– فوحدة الدائرة الأولى ؛ تكون بملاحظة المعنى في ما يقوم فيه ..

– ووحدة الدائرة الثانية ؛ تكون بملاحظة المتلبّس بالمعنى ..

– والوحدة العامة ؛ هي المعنى نفسه بعيداً عن العلائق الحسية والمعنوية ...

وبناءً على هذه التحديدات العامة نحدّد خصوص كل مادة :

١ – فالمادة الأولى من الدائرة الأولى ؛ تدلّ على الوحدة في أوضح صورها

٢ – والمادة الثانية ؛ تدلّ عليها في ملابس حسية ...

٣ – والمادة الثالثة ؛ تدلّ عليها في ملابس معنوية ..

٤ – والمادة الأولى من الدائرة الثانية ؛ تدلّ على وحدتها في جلاء ووضوح .

- ٥- والمادة الثانية ؛ تدلُّ عليها مع انفعالٍ ظاهر ..
٦- والمادة الثالثة ؛ تدلُّ عليها مع انفعالٍ مستخفٍّ ..

ب- الاجتماع الحرفي في المادة : ونعني به ردَّ الثلاثي إلى الثنائي ، بحذف حرف الوسط منه ، لمعرفة المعنى الأصل .. ثم تحرير معنى الحرف الذي حذفناه لنحصل على الثنائي .. ومن المعنى الأصل في الثنائي مع معنى الحرف نُحدِّد المعنى المجموع .. ومن هذا أصبح ضرورياً ان نتكلّم على تحديد معاني حروف الجدول بما تسمح به النصوص المحفوظة :

- ١- الهزمة ؛ يدلُّ على الجوفية ، وعلى ما هو وعاءٌ للمعنى ، ويدلُّ على الصِّفةِ تصير طبعاً ..
٢- الباء ؛ يدلُّ على بلوغِ المعنى في الشيء بلوغاً تاماً ، ويدلُّ على القوام الصلب بالتفعّل ..
٣- التاء ؛ يدلُّ على الاضطرابِ في الطبيعة أو الملابس للطبيعة في غير ما يكون شديداً ..
٤- الثاء ؛ يدلُّ على التعلّقِ بالشيءِ تعلّقاً له علامته الظاهرة سواء في الحسن أو المعنى ..
٥- الجيم ؛ يدلُّ على العظم مطلقاً .
٦- الحاء ؛ يدلُّ على التماسكِ البالغ وبالأخصّ في الخفيات ، ويدلُّ على المائيّة ..
٧- الخاء ؛ يدلُّ على المطاوعة والانتشار ، وعلى التلاشي مطلقاً ..
٨- الدال ؛ يدلُّ على التصلّب ، وعلى التغيّر المتوزّع ..
٩- الذال ؛ يدلُّ على التفرّد ..
١٠- الراء ؛ يدلُّ على الملكة ، ويدلُّ على شيوع الوصف ..
١١- الزاي ؛ يدلُّ على الثقلِ القوي ..

- ١٢ - السين ؛ يدلُّ على السعة والبسطة من غير تخصيص ..
 ١٣ - الشين ؛ يدل على التفشي بغير نظام ..
 ١٤ - الصاد ؛ يدلُّ على المعالجة الشديدة ..
 ١٥ - الضاد ؛ يدلُّ على الغلبة تحت الثقل ..
 ١٦ - الطاء ؛ يدلُّ على الملكة في الصِّفة ، وعلى الالتواء والانكسار ..
 ١٧ - الظاء ؛ يدلُّ على التمكن ..
 ١٨ - العين ؛ يدلُّ على الخلوِّ الباطن ، أو على الخلوِّ مطلقاً ..
 ١٩ - الغين ؛ يدلُّ على كمال المعنى في الغور أو الخفاء ..
 ٢٠ - الفاء ؛ يدلُّ على لازم المعنى ، أي يدلُّ على المعنى الكناثي ..
 ٢١ - القاف ؛ يدلُّ على المفاجأة التي تحدث صوتاً ..
 ٢٢ - الكاف ؛ يدلُّ على الشيء ينتج عن الشيء في احتكاك ..
 ٢٣ - اللام ؛ يدلُّ على الانطباع بالشيء بعد تكلّفه ..
 ٢٤ - الميم ؛ يدلُّ على الانجماع ..
 ٢٥ - النون ؛ يدلُّ على البطون في الشيء ، أو على تمكّن المعنى تمكّناً
 تظهر أعراضه ..

٢٦ - الهاء ؛ يدلُّ على التلاشي ..

٢٧ - الواو ؛ يدلُّ على الانفعال المؤثر في الظواهر ..

٢٨ - الياء ؛ يدلُّ على الانفعال المؤثر في البواطن ..

والنتيجة : بتقرير هذه القواعد للإشتقاق ، يُصبحُ سبيلُ الوضعِ مُعبّداً
 جداً .. فهو يُعيّنُ الخصوصية في غير تكلّفٍ ، بالاعتماد على الأمرين
 اللذين بسطناهما ، وأعني موقعَ المادة في التفريخ ، وهيئة اجتماع الحروف
 في المادة ..

وإليك مثلاً يوضح سيرَ القلب النظامي ، كما نُحبُّ أن نقرّره .. المثال
 هو مادة الثلاثي (ز ف ن) :

سير القاعدة :

- ١ - أقدم المواد ما وافق ترتيب الجدول ، وهو : زفن .
 - ٢ - توليد الدائرة الأولى : زفن ، فنز ، نرف .
 - ٣ - توليد الدائرة الثانية : زنف ، نفر ، فزن .
 - ٤ - هذه المواد ليست تجمعها وحدة معنوية ، هي الملحظ الوضعي الثابت - والجامع المعنوي هنا : الحركة الظاهرة منبثقة من الداخل ..
 - ٥ - إنما تختلف بالخصوصية فقط ، وسبيل تعيينها بشيئين :
 - أ - موقع المادة من الدائرة ..
 - ب - الاجتماع الحرفي في المادة ..
- وإنَّ من هذا الثلاثي (ز ف ن) ما هو غير محفوظ في المعاجم كداتي :
- فنز ، من الدائرة الأولى .. و : فزن ، من الدائرة الثانية ..
- فلو أردنا تعيين المعنى لكل منهما ، فما علينا إلاّ تطبيق القاعدة في تعيين الخصوص ، وذلك بالبحث عن موقعهما الدائري من وجه ، وعن اجتماع الحروف من وجه آخر ..
- وبعد هذا النظر والملاحظة نخرجُ بتحديد صحيح لمعناهما ، وإليك التطبيق :
- ١ - فنز . - يظهر معناها في الثنائي ، ولذلك نردها اليه وهو : فنز ، ومعناه الخفة ..
- نحدد معنى الحرف المزاد على الثنائي وهو النون ومعناه ، يدلّ على البطون ..
- نجمع معنى الثنائي الى الحرف فيتألف معنى المادة وهو : الخفة المتمكنة الباطنة .
- نحدد موقعها الدائري فنجدها الثانية من الدائرة الأولى ؛ وهذه تدلّ على الوحدة في ملابسات حسّية ، كما رأينا في الفقرة (أ) من هذا الفرع ..
- وقد بقي في القواميس مزيدٌ من هذه المادة ، هو الفنزج : ويدلّ على

الرقص .. وخلاصة المعنى : خفة متمكنة باطنة في ملابس حسية ، دل عليها المزيد ..

٢- فزن : - يظهر معناها في الثنائي ، لذلك نردها إليه وهو : فن : ومعناه الحركة في ميد ..

- نحدد معنى الحرف المزاد على الثنائي ، وهو : الزاي ، ومعناه يدل على التقلع القوي ..

- نجمع المعنى الأصل في الثنائي إلى معنى الحرف فيتألف معنى المادة وهو : الحركة المتقلعة في ميد ..

- نحدد موقعها الدائري فنجدها الثالثة من الدائرة الثانية ؛ وهذه تدل على الوحدة مع انفعال مستخف ..

- فموقعها ، وهيئة اجتماع الحروف فيها ، يعين خصوصية معناها .. وعليه فدلائها الشاملة هي : الاضطراب المتأثر بتأثير باطني ... كاضطراب ذوي الأمراض العصبية ، ورجفان الهرم ، وتوقد المراحل والمحركات ، وهكذا ...

وإذا أخذنا بزيادة أخرى ، كالهزمة مثلاً ، نخرج من المادتين بالمعنى التالي:

١- فنزأ : بمعنى الخفة الطبيعية التي تظهر أعراضها بتأثير باطني ..

٢- فزناً : بمعنى الاضطراب الطبيعي المتأثر بتأثير باطني ، كالمولود المرتجف لعلل فيزيولوجية خلقة ، وهكذا ..

والخلاصة : تقضي قاعدة القلب بأن مواد الثلاثي الست ، تجمعها وحدة معنوية ، هي الملحظ الوضعي الثابت ، وإنما تختلف بالخصوصية فقط ، وسبيل تعيينها بشيئين هما : موقع المادة من الدائرة ، والاجتماع الحرفي في المادة .. وقد أوضحنا ذلك عملياً بالنسبة للعموم في الفقرة الخامسة وأوضحناها بالنسبة للخصوص في هذه الفقرة السادسة ، من خلال : فزن ، وتقليباتها ...

ج - معقولُ العربِ من خلالِ القاعدة

أفاجيء بكلّ هذا ، في حديثي عن الحلقة الرابعة ، التي تمّ فيها النضجُ اللغوي عند العربي ؛ فرتّب الجلول - الهجائي ، واعتمد قاعدة القلب بكلّ ما تنطوي عليه فروعها من دقة استعمالية تفوقُ أرقى لغةٍ عصرية ، إن في الجامع المعنوي المشترك بين موادّ الثلاثي الستّ ، وإن في تخصيص كلّ مادةٍ بمعنى خاص ، بحسب موقعها في دائرة المقاليب من وجه ، وبحسب تجمع الحروف في المادة من وجه آتخر ..

ومن هذا يعجبُ الباحثُ العلميُّ أشدَّ العجب حين يقف على هذا الوضع المكتمل الملاحظة ، والذي لا يقعُ على مثله في أية لغةٍ عصرية على سموها العلميّ ، واقتعادهما اللغوي ؛ وقد أشرنا إلى ما يُبْهت فعلاً ، من عقلية الواضع القديم ، في دقته الاستعمالية ، ورقبته العقليّة . ومثلنا ذلك باكتشاف الجامع المعنوي بين : محارة .. و.. رحم ..

ومن ملاحظة الحركة الفكرية التي صدرت عنها أمثلتنا السابقة ، نصل إلى معقول العرب اللغويّ ، ونعلمُ أنّ الواضع القديم كان يُحرّر التشابه بين المسميات ليضع لها من مادةٍ تتوافق في مفاهيمها التي هي : ملاحظة الوضع ، وإن تخالفت في الخصوصيات ... وهذا شيءٌ راهنٌ بالتطبيق على موادّ اللغة ، كما لاحظنا في أمثلتنا المذكورة .. وما مقدار الثروة العظيمة التي حازتها العربية ، إلّا من عمل قاعدة القلب فقط ، بينما كان عمل الإبدال وما إليه في جانبه نزرأ يسيراً .

وبالجملة ، لستُ على تردد من أمر هذه القاعدة ، ولا على شك من صلاحيتها لتكثير اللغة .. ويكفي أنّها تضمّن إحداث موادٍ لا تعرفها عربيةُ المعاجم ، وإن كانت تدلُّ عليها ، لما تقرّر من وجود جامع معنوي بين المقاليب .. فلم يعد من الصعب أبداً ، تعيين الدلالات بحيث لو وضعها العربي ، لما تجاوز بها هذا المعنى .. عدا عن أنّها تعيّن الممات من المواد كحمر .. وعدا

كل ذلك نظمثنُ إلى معرفة العربي لها في هذه الحلقة ، وأنها خطتَه الوحيدة في الوضع ، سواء بنى الأصالة على الترتيب الهجائي أو الأبجدي .. وكيفما كان ، فلا بدَّ من اعتمادها كشيء نراه الكفيل ، فحسب ، بمنجاة العربية في مستقبلها البعيد .. وتوصلاً إلى تلك الغاية المخلصة السامية ، لا بدَّ من اعتمادها في تصحيح نصوص المعاجم ، التي لا نكاد نظمثنُ إلى كثرة منها ، في تلافي تخلف العربية حيال ما يغدقُ العلمُ من اتساعات موضوعية تستبَعُ تزييداً في اللغة ..

هذا هو نظر العربي في الثلاثي نشوءاً وتزييداً ، وهذا معقولُه القويم باعتماد تحصيله من الثنائي بزيادة الحرف في وسطه ، ثم بتوليدِه المواد الستَ على حسب قاعدة الدوائر أو القلب ، أو ما يسميه اللغويون بالاشتقاق الكبير ..

وقد يجابه فهمنا لمعقول العربي في نشوء الثلاثي ، والخطّة في الوضعِ وفقاً لقاعدة القلب ... بأحد ارتباين أوبهما معاً :

الاول : ما يخيّلهُ أصحابُ الفلسفة اللغوية انطلاقاً من خواطرهم المرسلّة في غير توازن بمذهبهم (١) في التركيب والاختزال لتحصيل الثلاثي ... وهذا الارتباب أقربُ إلى الفكاهة منه إلى التحقيق ، ويكفي أن نطلّع على أمثلته لنرى مقدار ما فيها من اعتمادٍ على التخيّل المحض ، والتقدير الواهم ..

ومنها قولهم في : قطف .. إنه من : قط . لفّ ... وفي : قمش ..

إنه من : قم . قش ... وهكذا مما لا يحتاج إلى تعليق ...

الثاني : كيف اتسقت اللغة على الترتيب الدائري أو قاعدة القلب ، مع العلم بأنَّ العربيَّ اهتدى إلى قاعدته ، بعد أن كانت لغته موفورة المواد التي ليست على اعتباره ؟

وفي الجواب على هذا التساؤل ، لا نرى في اهتداء العربي إلى قاعدة

القلب ، بعد غنى لغته بالمواد الثلاثية ، ما يتنافى مع الترتيب الدائري المفروض لأن الملاحظة ، كانت ساذجة وعمومية ، في الوضع الأول الذي ترك الثروة المذكورة ... وبعد الاهتمام إلى قاعدة المقاليل ، اجتهد العربي في تطبيقها على جميع المواد الموضوعية وسواها من حيث المعنى والخصوصية ... فقد تكون مادة ما أقدم مما تقتضي القاعدة بتقدمها ، ولكن بهذا المعنى والخصوصية تكون جارية مع مقتضى القاعدة ، بمعنى أن العربي أمارت فيها معانيها المتخالفة لبعثها على خطة ذات وحدة متناسقة ...

والخلاصة : لا محلّ للترتيب بوضوح المعقول العربي ؛ إن في نشأة الثلاثي من الثاني ، وإن في اعتماد قاعدة القلب لإغناء لغته ... مادام هذا المعقول يضمن اللغة البقاء في المستقبل البعيد إذا سارت على خطته الموزونة وانطلقت من منابع عقلية اللغوية الراقية ...

د - خاتمة

يُلاحظُ القارئُ عنايتنا بهذه الحلقة الرابعة ، واهتمامنا بإيضاح مقوماتها للتأكيد على النضج اللغوي عند العرب في تلك المرحلة .

وليس اهتمامنا في ذلك الماضي لعينه ، وإن دل على الدقة واكتمال الملاحظة بشكل يفوق أرقى لغةٍ عصرية... وإنما يتطلعُ هذا الاهتمام إلى مستقبل بعيدٍ ندفع إليه لغتنا العربية بين أشتات الباقية ...

ومعقولُ العربيّ ؛ في ترتيب الجداول الهجائي ، وفي اعتماد قاعدة القلب بكل فروعها ، وفي ثورته اللغوية التي أخضع فيها لقاعدته جميع مواد اللغة .. هذا المعقول وحده يكفلُ بقاء العربية في مواجهة المستقبل ..

ومن هنا كانت ثورتنا على الانحرافات المضلّة ، والأوهام المريبة . التي تشدّ معقولَ العربيّ حسبَ تصوراتها الشخصية لا حسب الحقيقة الكامنة في

طبيعة العربية وطبع العربي .. ولا أعرف أوضح من ارتسام الطبع العربي في طبيعة العربية ولا أضمن للبقاء من بقائهما معاً .

وقد عبرَ العربيُّ عن معقوله اللغويِّ الراقي ، بقاعدة القلب الموزونة الثابتة على موادِّ اللغة ؛ لذلك نجتهدُ في التوصل ، من وراء هذه القاعدة ، إلى نتائج هامة ، منها :

أ- تصحيح المعاجم بتحقيق الوحدات بين مختلف المواد ..

ب- الوقوف على الممات كمحر ، وقد تقدم شرحها ..

ج- الوقوف على الدخيل من الأصيل كما في : جبت .. وأظنُّ أن هذه الكلمة ، غريبة عن العربية ، وتعني الصنم .. وأقدَرُ تقديرًا قد يُطمأنَّ إليه ، وهو أنها مُحَرَّقة عن : ايجبت ، وهو اسم مصر عند اليونان ، ويظهر أن آلهة مصرية حُمِلَتْ إلى بلاد العرب في زمن البطالسة ، وعبدت فيها ، ولا يبعد أن يكون وصولها إلى الجزيرة وعبادتها حدث بعد حماة البطالسة على الجزيرة التي وصلوا فيها إلى أقصى تهامة (١) .

د- اعتماد الجامعة المعنوية بين مواد الثلاثي كاعتماد ها بين مفردات كل مادة على حدة .

هـ- وهي نتيجة النتائج ... أن نأخذ بالوضع الجديد على مقتضاها لنسدَّ نقصَ اللغة ونكفي حاجتها .

هذا اهتمامنا وهمنا ؛ ... وفاءً لحقيقة فكرٍ مضى ، وحماسةً لمصير عربية يأتي ... وأما ما قد يثارُ حول نظرتنا هذه ، فلا اعلق عليه كثيراً ، مادام البقاء للأصلح .. ومع ذلك ، فمحلُّه في الباب الثاني ...

الحلقة الخامسة :

المعاني التركيبية وطريقة العربي في وضع الرباعي

مرّ العربي^٤ بالحلقة الرابعة ، وقد وفرّ للغة كلّ عناصر البقاء ؛ فاعتمد الجدلّ الهجائي ، بمعانيه العمومية ، نواة اللغة ... واعتمد الثلاثي ، بخصائصه الحيوية ، وحدة الكلمة ... وقد أحكم كلّ ذلك بقوانين أكيدة ، أخضع لغته لها ، فعادت معيناً لا ينضب قوةً وتدفقاً ، رأينا برهانهما في توليد الثلاثي ، على قاعدة القلب والنواثر ، وما يترتب عليها من خصائص ، والغاية ، لم تعد لغة العربي في حاجة لغير مكملات تحكم اللغة ، وتنفي عنها التريث البطيء ، وتدفع بها إلى المدّ غير المنجزر ... ولو بقي العربي في جزيرته لبلغت لغته غايتها من التطور ، وتنظيم تلك المكملات ؛ ولما بقيت على شيء من فوضى الموازين ، والجموع ، والمصادر ، والأفعال . ولكن الحلقة الرابعة وقفت دون أن تنتهي ، فتوقفت اللغة فجأة بداعي الخروج من الجزيرة ، وتخلّل العرب في بقاع متباعدة من الأرض .

وجاءت الحلقة الخامسة ، وصادف العربي فيها من المعاني التركيبية ما لا تؤدبه كلّ الثلاثيات التي اعتمد ها في الحلقة الرابعة ، ولاحظ أن هذه المعاني تنبني على الثلاثيات ، كما لاحظ فيها زيادة من المعنى تفقّر إلى ما يؤديها لتمام دلالتها .. ومن هنا كانت حاجته إلى الزيادة ، ولكنه احتفظ بالثلاثي كوحدة للمعنى ، واستعان بحروف الجدلّ على صيغ هذه الوحدة بصيغة تجعل منها معنى مؤلفاً ...

لا ريبَ في أن العربيَّ قد توصل ، في هذه الحلقة والتي قبلها ، إلى زيادات تصريفية ، جعلَ موضعها في أوّلِ الثلاثي ... وأمّا الزيادة من أجل تحصيل كلم المعاني المؤلفة ، فجعل موضعها الآخر ... ومن ثمّ تولّدَ الرباعي والخماسي ولكن في تعاقب والحاجة ماسّة ... وعليه فالزيادات على أقسام :
١- زيادة البناء : وتكون على الثنائي لتحصيل الثلاثي ، وموضعها الوسط
٢- زيادة الاشتقاق : وتكونُ على الثلاثي لتحصيل الرباعي وما إليه ، وموضعها الآخر .

٣- زيادة التصريف : كتفعّل واستفعل ، وموضعها الأول غالباً لعدم الإلتباس .

٤- وأمّا زيادةُ الإسناد : كغربتْ ، فليست من أقسام الزيادة على معنى التأليف المراد هنا ، بل بها تصيرُ الكلمة مركبة ، لأنها سواء كانت علامةً أو ضميراً فهي شيء غريب عن الكلمة ، وإنما تُضاف لحاجة أسلوبية فقط . هذه هي الطريقةُ التي كان يجنح إليها العربيُّ ، لاستحصال الرباعي والخماسي ... فلقد كان لحروف الهجاء في مفهومه معانٍ عمومية يزيدُها على الثلاثي عند الحاجة للوضع في معنى "جديد" . وأعني بالرباعيِّ ، هنا ، الأصليّ كدخرج ، دون الماحقات كحوقل وما إليه ، فإنها ثلاثية زيدت زيادة تصريفية . وتنظمُ هذه الطريقة في يقيننا ، نظريةً لا مجال للشك فيها أو التردّد في الأخذ بها ... ولا بأس من إيراد أمثلةٍ تؤكدها ، كالقرطاس ، والعنقاش ، وختلم .

المثال الأول : القرطاس : ذكرت دائرة المعارف الإسلامية ، معتمدة تحقيقات : كلّمان هوار ، أن القرطاس : هو ورق البردي ... وانتهى إلى أنها دخيلة ... ولو اخذنا بتحليل لفظ القرطاس على ضوء النظرية السابقة ، طريقة العربيّ في الاستحصال على الرباعي .. لو صلت بنا إلى عربيتها بهذا المعنى فإن : قرطاس ، ترجع إلى قرط ، ومعناه في العربية : ورق الكراث

ولما كان الورقُ من البردي على نسقٍ أبسط ، أضافوا إليه : السين ليدلّ دلالة تشتملُ على أهم مميزات الورق النباتي المذكور .

والخلاصة : قرط + س = ورق البردي .

بمعنى أن : القرط ، ويعني ورق الكراث ، مجموعاً إلى حرف السين ، ويعني السعة والبسطة ؛ يعطي المعنى التحليليَّ للقرطاس ، وهو ورق نباتيُّ أبسطُ من ورق الكراث ، وهذه خصائص ورق البردي .

المثال الثاني : عنقاش : ومعناه المتجول في القرى ، وهو كذلك بحسب القاعدة فإنها ترده إلى الثلاثي : عنق ، ومعناه : شدة السير ... والشين تدل على التفشي وعدم النظام ... وعليه فالدلالة التامة له : السير على غير نظام ... وهو بعينه المقصود من المتجول في القرى ...

المثال الثالث : ختلم : موضوعه لأخذ الشيء خفية ... وواضح أنها تنظر إلى : ختل ، وتؤيد القاعدة في تحليل الأمثلة السابقة ، كنماذج لغيرها ، ما يؤكد ان العربيَّ كان يستحصلُ الرباعيَّ على هذه الصورة : ولقاعدة العربي هذه فوائدها المهمة ، ومنها :

١- وضعُ حدٍّ لدعوى التعريب في كل ما يشتهيه الدارس

٢- وضع قاعدة صحيحة للأبحاث اللغوية ، تكشف عن اعتبارات دقيقة متماسكة ، وتغيّر كثيراً من زيف التاريخ اللغوي ...

٣- إفادة غير محدودة في الوضع المستقبل ، وسدّ حاجة العربية وسط هذا المدّ العلمي الزاخر بالمصطلحات ...

٤- تصحيحُ نقول المعاجم عن الأقدمين ، الذين ظنّوا الرباعيَّ وما إليه ، تولّدَ بالتركيب والاختزال (١) .. وسنناقش هذه القضية في الباب الثاني ويكفي هنا أن نشير إلى بعض تخيلاتهم . لنصل إلى مثل ما وصلنا في تخيلاتهم عن تولّد الثلاثي .. مثلاً بعثر ... ظنّوا أنها من : بعث - أثير ... ومثل :

١ - راجع الصاحب لابن فارس ، ومقاييس اللغة

شفحطب ، من : شق - حطب ... الخ ، والعربية شبت عن هذا النحت بما فيها من القوانين العملية ، لأن النحت ظاهرة من طفولية اللغة ...

وبناء على يقيننا في هذه النظرية ، التي تمثل معقول العرب ، لا يوجد مزيدات نشأت من اختزال وما أشبه .. وإنما بصورة مطردة : السداسي يرجع إلى الخامس ، وهذا إلى الرابع ، وهذا إلى الثلاثي ، وهذا إلى الثنائي ، وهذا إلى الأحادي ، وهو مجموعة حروف الهجاء ، التي هي في ظننا لغة الإنسان الأول المتباعد في القدم ، وقد مرت بك ، في جدول يحدد معانيها العامة .

والخلاصة ، استحصل العربي على الرابعي من الثلاثي بإضافة حروف الجدول ذات الدلالات العمومية لديه ، وجعل ذلك قانوناً في وضعه .. وإنما توقفت الزيادة في العربية عند حد السداسي فقط ، لأن الزيادة بلغت ضعف الأصل ، وأكمل الزيادة العددية التكرار ..

وقد تأتي للعربي ، في أخريات هذه الحلقة ، أن يوسع من نظام الوضع باستخدامه قوانين ، لم تكن الحاجة ماسة إليها كثيراً ، ولا تكون .. وإنما هي قوانين قد تدعو إليها حاجة ، وقد يوضع عليها .. وهي في حالي الاستعمال والإهمال عنوان خصب اللغة ... ومثلها من اللغة كمثل الاستعدادات فيها الحياة ، وهي معيها أيضاً ...

ومن هذه القوانين التي نظنها ، الرابعي بالتكرار ، وهو الرابعي غير الأصم ، كذبذب ... وأرى أن استحداث هذا الوزان من الثنائي رأساً ، وهو متأخراً جداً ، والذي دعا إلى استحداثه الدلالة على المعاني التركيبية ، في صورها البسيطة ، كالحركات السريعة على المكان الواحد ، وسيأتي تحقيقه في الباب الثاني .. ولكن هذه الحلقة ، كسابقتها ، خطت دون أن تنتهي ، ومع ذلك فقد أخذت بالاستقرار شيئاً فشيئاً ... واستحدثت في سيرها ما تدعو إليه الحاجة من موازين ، دخلتها الزيادة الصرفية كافتعل واستفعل وما إليه ..

ولقد يكون هذا الأخذ الجديد الذي تدلُّ العربية عليه ؛ من إقرار الموازين بدلالات قسرة ... وإقرار الأفعال على باب واحد ... وكذلك المصادر والجموع .. قد يكون هذا الأخذُ إنهاءً حقيقياً للحلقة الخامسة ، ووصولاً بالعربية إلى المستوى الذي كانت ستصل إليه لو ظلت في محيطها بدون براح .

الفصل الثالث

التطور في اللهجة

تمهيد :

تنزل اللهجة منزلة الشكل من اللغة ، ولا تقل شأنًا عن الألفاظ ، لأنها قد تكون وحدًا فارقًا على خطر ..

وبحسبي ، هنا ، لا يتناول اختلاف اللهجات على اختلاف القبائل ؛ وإنما يستعرض تطور اللهجة على وجه عام ... ولهذا الموضوع جدته المُلددة ، ومكانته في تتبع الدرس العلمي بدقة وتحقيق ؛ لأنه سينقّض كثيرًا مما تقرر بين الناس كحقيقة لا ريب فيها . وستظل نتائجه ، وحدّها ، كفيلة بتوضيح ما يختلف عليه الباحثون من تعليل ونظم نشوء العربية .

فالباحثون عن اللهجات ، أخذوا بقايا التطور المستمر في قبيلة ما ، علمًا عليها وحدّها ، ولم يُراعوا أي اعتبار من اعتبارات اللهجة الواحدة ..

ونحن ، نرى خطأ هذا الرأي ، لأنه لا يصح من كل وجوهه ، وبالتالي لأن ما كانوا يسمونه باختلاف اللغات ، ليس له هذا المعنى حقيقةً ، وإنما هي بقايا خلفها التطور الذي لم يتكامل ..

وتقديرًا لنا هذه ، تفسيرٌ صحيحٌ لكل هذه المتخلفات التي حار في

شرحها علماء اللغة .. فجميع الاختلافات المحفوظة في البنية ، أو الإعراب ، أو النهج البياني ، إنما هي تطورات فقط ؛ وهي غير الاختلافات اللغوية ، التي ترجع إلى مخرج الحرف واتساقه أو تكسره ..

وأهم شيء ينتهي به هذا البحث ، هو ربط ما بين هذه الاختلافات بحيث تنتظم في سلم ارتقائي واضح ، وتسلسل تصاعدي صحيح .. لعل محاولتي هذه ، تحقق ما عجزت عنه الأبحاث حتى اليوم .. ولا غرابة في عجيء ما أقدّره أكثر ضبطاً وإنتاجاً مع منهج الصدق ؛ فعلى ضوء هذه التقديرات ، وصلت إلى ما خفي على اللغويين عموماً بدون استثناء ولا تمييز .. ومن أمثلة ما خفي على اللغويين ، ونعللّه التعليل النشوئي الصحيح ، ما يلي :

١ - المصباح (١) : يذكر صاحبه في كلمة : يَبْرين ... كلمة : يَعْقيد ، وهو العسل يُعقّد على النار ويذكر كلمة : يَعْضيد ، وهو بقلة مرة لها لبن لزج ..

٢ - المزهر : (٢) يذكر صاحبه في بناء : يفعل .. كلمات ، ينبوع ويسروع .. الخ ..

٣ - اللغويون عموماً : لا يترددون في ما ذهب إليه المصباح والمزهر ، من اعتبار الكلمات السابقة أبنية اسمية اشتق عليها توسعة .. وإنما اختلفوا في حروف التمثيل (٣) هل تكون أصولاً كلها ، أم فيها مزيد فيقابل بلفظة ..

٤ - رأينا نحن (٤) : نرد نظريتهم هذه ، ونقرر أن العربي مرّ بهذه

١ - المصباح ، كلمة يبرين ... ٢ - المزهر ، ج ٢ ص ١٠١ ..

٣ - حروف التمثيل تنحى الحروف التي تقابل الموازين ليعرف أنها أصل أم مزيد مثل « عنبس » هل وزنه فعل أو فاعل فن قال بالأول اعتبر النون مزيدة ومن قال بالثاني اعتبرها أصلية ..

٤ - الرأي مبسوط في النص الأصلي من المقدمة ص ١٤٣ .

الكلمات ، في عهد من عهود اللغة ، كأفعال فقط ؛ فقد كان ، في الحلقة الثالثة من الدور الثالث ، يتخذُ الفعلَ وصفاً ، وينطق بالحركة حرفاً .. فلا عجب أن يكون قد وصفَ بهذه الأفعال ، أمثال : يعقيد ويعضيد ، وينبوع ، ويسروع .. وما على شاكلتها فلزمت كأسماء ، وتطورت اللغة ، وبقيت فيها دالة على مسمياتها ، مع الاحتفاظ ببلونها الأثري الذي ينظر إلى وجود سابق ، كانت له هذه الظاهرة .. وبرهان ذلك في أمرين :

الأول : بقاء هذه اللهجة المقدرة ، على لسان بعض القبائل العربية (١) ، ودلالة هذا البقاء على أن تحلل العربية من هذا الطابع كان لعهد قريب من القرآن وأمثله ذلك وفيرة في المعاجم ؛ وإليك بعض النماذج :

١ - ينبعُ : تُرجمها المعاجم إلى بابي طرب يطرب ، وقعد يعقد .. وتؤكد ذلك النصوص ، ففي شعر عنتر (٢) : ينباعُ .. وفي كلام غيره : ينبوعُ ...

ومعنى ذلك أن الفعل : يبع ، تحلل وانفصلَ عن الشكل الأول له ، يوم كانت تُنطقُ الحركة حرفاً ، وليس ، ينباع ، وينبوع ، إلاّ الصورة المتدنية لشكله المتحرر منها .. وليست أبنية اسمية ، كما زعم اللغويون ..

٢ - نعم : يذكر ابن الانباري ، في كتاب أصول اللغة (٣) ، أنها وردت : نَعم .. كما أن : نَعَم ، وردت : نَعَام .. ثم قال : وهذا أكثر من أن يحصى ..

الثاني : كون كل ما جاء على الواو أو الياء ، ورد كذلك على الضم

١ - صاحب لابن فارس ص ٢١ . والفرائر للألوسي ص ٢٨٣ . والزوزني في المملكات ص ١٨٤

٢ - راجع قوله في المملكة : ينباع من ذفرى غضوب جرة زيادة مثل الفئق المكدم

٣ - راجع مبحث نعم في مخطوطة أصول اللغة لابن الانباري المحفوظة في دار الكتب المصرية .. وأيضاً أمهات المعاجم كالتأية لابن الأثير ولسان العرب لابن منظور والقاموس الفيروز آبادي وتاج العروس للزبيدي .. الخ .

أو الكسر في أبواب الأفعال ، مما يدلُّ على ما نذهبُ إليه من التحلُّل ، كما أوضحنا في فعل : ينبع ..

والنتيجة : لا مجال للشك في أنَّ هذه الكلمات أفعالٌ مضارعٌ أثرية بقيت في اللغة كأعلام على أشياء ، وهذه العلمية هي التي أدَّت إلى اشتباه اللغويين وخطئهم ، ولا يستبعدُ أن يكون الخليلُ قد فطن لهذا ، وإن لم يوضحه ، لأنه وفق في تسميته الضمةَ واواً صغيرةً ، والفتحةَ ألفاً صغيرةً ، والكسرة ياءً صغيرةً ... وبذلك تكون الياء في يعقيد هي الكسرة في الدور الأرقى ، وكذلك الواو في ينبوع هي الضمة في الدور الأرقى ..

وبناءً على هذه النتيجة ، نرى أنَّ العربية مرَّت بعهدين :

١ - العهد الصوتي : ويمتاز بقيام اللغة فيه على الحروف ، وباحتفاظها لعهد القرآن بهذه الألفاظ المتفاوتة حركةً وحرفاً ، مع الترادف المعنوي ، والوقوع على موقع واحد ، كما سنرى في شيمال وشمال .. مما تجلر ملاحظته والتنبيه إليه بالنسبة لكتبة القواميس في العهد الجديد ..

وهذه الصوتية دور طبيعيٌ ، لا بُدَّ لكل لغة أن تمرَّ به ، ويظهر أكثر ما يكون في اللغات الدنيا في سلَّم الارتقاء .. وقد طالَّ أمدُّه على اللغة العربية ، حتى كان طابعها خلالَ أدوار ثلاثة ؛ ولكن لم يكن على صفةٍ واحدة ، بل اختلف قوةً وضعفاً ..

أ - الدور الأول : يبدأ بالمرحلة الأولى من الدور الثالث في نشوء اللغة ، ويمتازُ بخصائصٍ تفصلُها في توسيع هذا التمهيد ..

ب - الدور الثاني : يقارنِ الحلقتين الثانية والثالثة ، من الدور الثالث في أدوار نشوء اللغة .. وله خصائصه المميزة ..

ج - الدور الثالث : ينزل منزلة الشكل من الحلقة الرابعة ، من الدور الثالث المذكور ولهذا الدور خصائصه الراقية ..

٢- العهد اللفظي : ويمتاز بقيام العربية على الحركات ، وبتحررها تحرراً غير مطلق من الصوتية ، وبتركها قوانين تُعِدُّ اللغةَ للتحررِ على الإطلاق كما سيأتي في الكلام على : نيدُ لان .. وبهذا العهد بلغت اللغة الشوط الأخير من ترقّي اللهجة .

ويقسم إلى دورين ، يستويان مع الحلقة الخامسة ، من الدور الثالث ، في أدوار نشوء اللغة :

أ- الدور الأول : يعتبر حدثاً انقلابياً شملَ اللغةَ من مناحيها ، واستغرقها في متفرّق شعبها إلا ما ندر وقل .. ففيه تقع كثرة الموازين التي تصدر عنها اللغةُ في اشتقاقاتها ، وله تخضع لغةُ المعاجم في أكثرها ، وتظهر هذه المسحة ، وكأنها المسحة التي تمثلتها العربية غاية ..

ب- الدور الثاني : يقع في ختام الحلقة الخامسة ، ولا يُعَدُّ انقلاباً كبقية الأدوار في ترقّي اللهجة .. وبه توقفت اللغة دون أن تنتهي إلى ختام مستقرّ تقوّد إليه عناصرُها الفعّالة .. كما سَنرى .. ويبقى أن نشير في خاتمة هذا التمهيد ، إلى ما سنشرحه حول تأريخ نظرية اللهجة ، ثم نشرح نظريتنا في تطور اللغة من كلِّ جوانبها ، ونقترح ما ينتشلها من قيودها ويُنهي بها إلى مستقرها الكامل ..

العهد الصوتي

الدور الاول : صوتية اللغة والبقايا الأثرية :

يبدأ هذا الدور بالمرحلة الأولى من الدور اللغوي الثالث ، ويمتاز بأمر أهمّها ثلاثة :

١- نطقُ كلِّ حركة حرقاً : والذي حملني على هذا الظن ، وجود كلماتٍ في العربية تشهد بأنّها وليدةُ عهود صوتية ، كما في : شيمال ، بمعنى

شمال .. ولا شك في أنها سبقت بعهود كانت أكثر صوتية ، حيث كانت مركبة من حروف ذات أصوات دلالات بعينها ..

٢- الابتداء بساكن ، والانتهاؤ بمتحرك نظنه الواو كما في الأشورية والبابلية : وهذه الخاصة تفهّم في فرعين :

الأول : الابتداء بالساكن : وتدعو اليه الموازين التي تدل صورتهَا على أنها عاشت في دور كانت تنطق فيه ساكنة الأول ، أمثال : اجفيل ، واخریط ، واعشوشب (١) ، وما إليه .. ثم في تطورات أضافوا الهزمة توصلاً إلى النطق بالساكن ..

وكذلك تدعو إليه الأسماء الاثنا عشر التي حفظت بهزمة الوصل ، فهي أثرية عن سكون الأول ، كما نطق (٢) ..

الثاني : الانتهاؤ بمتحرك ، هو الضمة الممدودة أو الواو : ويدعو إليه احتفاظ لفظ : عمرو ، بالواو في املائيته .. وحول ذلك جدل لا نقره ، ولا نرتاب بأن معرفة العرب للكتابة قديم جداً ، وإن كان تطورها بطيئاً ، اذ كانت محتكرة بأيدي أشخاص (٣) .. غير أن عدداً من قدامى ملوك العرب وفوي الخطرفيهم ، تسموا باسم : عمرو.. مما دعا إلى كتابته من أول العهد بالكتابة ، ثم تطور الشكل اللفظي ، وثبتت الكتابة ، وبقيت هذه الواو الزائدة ، عضواً أثرياً في الإملاء ، لا فائدة منه ولا غناء .. وأما القول بأنها للتفريق بين : عمرو ، وعمر .. فأمر هو أقرب إلى الخرافة كما لا يُقره منطق التطور .. ويدعو إلى ما نظنه ظاهرات كثيرة منها :

أ - ما في النصوص الحميرية مثل : أخت أمهو ، أي أخت أمه ..

١- أورد نطفة من البحث الاستاذ جبر ضومط في مجلة الكشاف التي تصدر عن بيروت ج ٣ عدد ١ و ٢

٢- والأسماء المحفوظة بهزمة الوصل اثنا عشر اسماً منها : امرؤ ، امرأة ، ابن الخ .

٣- راجع أدبيات اللغة العربية لزيدان ج ١

ب - ما في لسان بعض القبائل (١) من تحريك ضمائر الجمع للغائب ،
المضافة أو المقرونة إلى حروف الجرّ ، بالضمة الممدودة مطلقاً ..

ج - احتفاظ العربية بالوقف بالروم في بعض المواقع ، والروم حركة
مختلصة تميل إلى الضم (٢) .

د - بناء فعلون ، فإن أصله : فعلو ، وزادت العرب النون لتمكين
المنطق والتخلص من الصوتية ..

هـ - بناء فعلين ، ويرجع إلى بناء : فعلون .. وبما أن الاتباع ، في
العربية ، قانون شائع ، وواضح الأثر في كل مناحي اللغة ، فقد دخلوا بالياء
على الواو ، وأمثلة ذلك كثيرة (٣) .

وبالجملة : فإنني أرى ، في نتائج هذا الظن ، تعليل ما غمض على
اللغويين فيما سقطنا عليه .

٣ - النطق بالساكنين المتعاقبين ، الذي غدا محظوراً في الأدوار الأرقى
من حياة اللغة .. والذي يدعو إلى هذا الظن ظاهرات تقوم في طائفة من
الموازن ، وظاهرات أخرى تقوم في مفردات أيضاً .. والمعنى لم يكن التقاء
الساكنين محظوراً في العربية الأولى ، وربما كان شاهداً صحيحاً عليه بقاء
التقاء الساكنين في طائفة من كلم العربية المرتقية ، مثل : مادّة ، خويصة ..
فالألّف والّدال الأولى من : مادّة .. ساكنان ، وقد التقيا وكذا في خويصة ،
فالباء ساكنة ، والصاد الأولى ساكنة ، وقد التقيا ..

وقصارى القول : ان صوتية اللغة أمر لا ريب فيه ، ومرور العربية بعهد
الابتداء بالساكين والوقوف على متحرك ظنّ نظنّه .. وعليه شواهد قد تثبت ،
وكذلك من المحقق أيضاً وجود بقايا أثرية في اللغة تمثل وجوداً سبق وكان
ذا صبغة عامة .

١ - مثل : عليه ، إليهم وهو معروف في علم قرآت القرآن .

٢ - الألويسي في الضرائر ص ١٦٩ .

٣ - راجع المخصص لابن سيده ج ١٤ ص ١٩ .

الدور الثاني : الدورة اللغوية الطويلة :

يقارن هذا الدور ، الحلقة الثانية والثالثة من الدور اللغوي الثالث السابق الذكر .. ونرى أن اللغة بقيت على شيء من مميزات الدور السابق ، ونظن ظناً مؤكداً أنها بقيت محركة الآخر ، ولم تتحرر تماماً من التقاء الساكنين .. ومعنى هذا أن أسباباً من البناء اللغوي القائم ، جعل اللغة تتهياً للتحلل ، وإن لم يكن على الوجه الأكمل ، وعليه فقد بقيت الحركة تنطقُ حرفاً في كثيرٍ من مواضع الكلمة أي لم تعد تنطقُ كذلك باطراد ، ومن ثمَّ كان وجه التحلل. وأيضاً بقيت محركة الآخر ولكن على نسقٍ لا اختلاف فيه ، وهذا تقديرٌ لا لا نظنُّ أن في معاجمنا ما يسعُ بالشاهد عليه ..

وفي تقديرنا أن اللغة دارت دورتها وكانت طويلة جداً ، ومثمرة كثيراً ، وانتهت إلى الدور الثالث الذي خلصت فيه من حركة الآخر ، ولكنها تخبّطت في تجارب كثيرة حتى خرجت العربية نهائياً بتجربة الإعراب المدهشة (١) ، التي بلغت في أخريات الدور الثالث ..

الدور الثالث : النظرية الصوتية ودرجات الارتقاء .

مثلنا ، في هذا الباب ، لأدوار اللغات بنشوء العربية ، وتبعنا نشوءها في أدوارها التطورية الثلاثة ، وأكدنا أهمية الحلقة الرابعة من الدور الثالث ، وأوضحنا اهتمام العربي إلى قاعدة القلب في الثلاثي ، ووضعنا معقوله هناك بنظرية ثابتة تضمن للعربية الصبرورة في بقاء غير محدود ..

وهنا ، نعود إلى الحلقة الرابعة ، لتؤكد أهميتها مرة ثانية من خلال التطور في اللهجة .. فاللهجة أيضاً ، تطوّرت في عهدين ؛ صوتي ولفظي .

١ - حاول الاستاذ ابراهيم مصطفى صاحب كتاب : إحياء النحو ، درس هذه الظاهرة على وجه تحليلي نشوي .. ولو درس العربية على النهج التطوري الذي تأخذ اللغة به لوصل إلى حلول حقيقية وغير رأيه في أشياء كثيرة ..

أما الأول فقد تدرّج في ثلاثة أدوار ، أهمها الدور الأخير الذي ينزل منزلة الشكل من الحلقة الرابعة ، حيث تماثلت العربية فيه إلى الإعراب ، وانطبعت به كطابع راسخ ..

ويمتاز هذا الدور بصوتية اللغة في بعض جوانبها ، كما تؤكد البقايا الأثرية في المعاجم .. وسنبسط أسباب حفظ تلك الأثریات ، والنتائج المستخلصة من تحليلها ...

النظرية : كانت العربية صوتية في بعض وجوها ..

المؤيدات : لقد ظلّ من هذا الدور بقايا كثيرة في العربية ، وليس على معنى التصحيح فقط كما في ينبوع ويربوع ، وإنما على معنى بقاء اللهجة في بعض القبائل ، كما في أنظور .. مما يدلّ على أنّ انتقال العربية إلى اللفظية لم يكن لزمان بعيد ، ولذا بقيت منها بواق تشير إلى أن التطور لم يحدث دورته التامة .. ومن هذه البواق نستعرض مثالين :

اسم الفاعل ؛ وفي دراسة تطوّره ، ما يؤيد نظريتنا في هذا الدور ويبرهن على ما نذهب إليه ..

خذ اسم الفاعل ، في هذا الدور الثالث من العهد الصوتي ، وراقب تطوره في دوري العهد اللفظي تجد ما يلي بالترتيب :

أ - فاعيل فاعِل وفَعِيل .. فَعِل وفَعَل ..

وكان يصاغ في هذا الدور : ضارب وقائم ، وبقي منه آمين .. وهذا المثال من تطور اللهجة ، يوضح لنا منحى غامضاً من المناحي اللغوية ، قد خفيت على علماء اللغة ، وأورثتهم شبهة بالغة ، إذ اثبتوا اختلاف الدلالات باختلاف هذه الصور الميزانية ، والحقيقة ان الاختلاف استنتاج محض من عرض الأمثلة على كل وزان .. ولا أعني أن العربيّ كان يقصد إلى إماتة فاعل وفَعِيل

استغناء بفعل ، لو لم يكن الخروج من الجزيرة ، ولكن أقصد أن جميعها تطورات عن فاعيل المئات ، الذي يدلُّ على الذات المتصفة بالحدث .
ب - فاعول .. فعول .. فعُل ..

والصيغة الأولى صيغة مبالغة قديمة ، تطورت إلى الصيغتين التاليتين ،
ونقدر أن منه : يَقْظُ ، الذي ذكر صاحب متن المقصود (١) ، أن المراد منه المبالغة ، وبذلك يكون متطوراً عن يَقْظُ ، وهذه متطورة عن ياقوظ ..
ج - فاعال .. فعّال وفاعَل .. فعَل ..

وقد حفظت كل الانفصالات التي تعاقبت على هذا المثال (٢) ، بحيث نعمده كمثال تام لبرهان نظريتنا من جهة ، ولفهم مقدار التفاوت في درجات الارتقاء عند القبائل بالنسبة إلى التطور العام ..
ومنه في تاج العروس : خاتام .. خَتَام وخاتَم .. خَتَم .. والمقصود خاتَم اليد ..

وهذا المثال يحفظ كلَّ صور التطور ، وتلاوين الترقى ، ويوضح مقدار عمل التطور في العربية .. كما يحقق نظريتنا من كلِّ أطرافها ، ويعلل الاختلاف القبليَّ الجسيم ، ويعرف بمقدار العصور التي تكيفت فيها العربية حتى تمخضت عن لغة القرآن الراقية بجلتها الرائعة ..

٢ - تطوّر الميزان : ونقدّم أمثلة تقوم فيها التفاعلات ولما تستقرّ مثل :
نيدُلان وزئير ..

أ - نِيدُلان (٣) : ومعناه الكابوس أو شيء مثله .. وقد حفظ بصورتين نِيدُلان ، ونِيدُلان .. وهذا الاختلاف لفت نظري إلى حقيقة خفية كان يتوسّلُ بها العربي إلى ما ينبغي من التصحيح ..

١ - متن المقصود في التصريف .. اختلف في مؤلفه كثيراً .. راجع كشف الظنون ج ٢ ص ٥٠٨ ط .

ط . درسمات .

٢ - راجع الزبيدي في تاج العروس مادة ختم ..

٣ - راجع التصريف الملوكي لابن جني ص ١٠ ، والمبهم له أيضاً . ط القدسي القاهرة .

وعليه فهذا اللفظ كان في العهد الصوتي ينطق بالياء نِيدْ لَان .. على أنها الكسرة فقط .. ولما خُطت العربية خطوتها إلى التصحيح تعذر نقل نِيدْ لَان بالكسر فقط لما يترتب على ذلك من محذور الانتقال من الكسر إلى الضم .
ففصل بينهما بساكن .. وبما أن العربي طرد الهمزة في أحرف اللين عند التصحيح هَمَزَ الياء ..

ب - زَيْبِر : ومعناه ما يظهر من درز الثوب ، أو ما يعلو الثوب الحديد من وَبَرٍ ونحوه . وَيُمَثَّل وجهاً من التفاعل في مرحلة أرقى من المثال السابق .. وقد حفظ بصورتين ؛ حفظ بكسر المعجمتين ، زَيْبِر .. وحفظ بكسر الأولى وضم الثانية أيضاً ، زَيْبِر ..

ونحن حيال هذين الوجهين نظن بأن أصلهما : زَيْبِر .. وعند التصحيح في العهد اللفظي أبدلت الياء همزة : زَيْبُر .. وفي عهد أرقى نقل إلى : زَيْبِر .. بكسرها لإتباعاً ، وهو قانون شائع في الحركات كَمَنَحِرٍ وَمِنْخَرٍ ، وفي الحروف كطوبى وطبى ..

ومن هنا ندرِكُ أَنَّ وزن (زَيْبُر) الصوتي ، هو : فِعْلٌ ، والياء هي الكسرة الممدودة فقط .. ومن الخطأ إذن ما عليه أصحاب المعاجم من عد زَيْبِر رباعياً ووضعه في باب الزاي والهمزة ، وإنما يجب أن يعتبر ثلاثياً مزيداً زيادة أثرية لا زيادة تصريفية ، وأن يوضع في باب الزاي والياء ..

والخلاصة : في هذين المثالين من التفاعلات التطورية ، وفي تطور اسم الفاعل ، ما يؤيد نظريتنا ويرينا وجوهاً من تطوير الصوتي .. وأظن أن العربي في مثل هذا ، كان يرمي إلى إماتة الصوتي ولا يقصد إلى التكرار والتزيد .. ومع ذلك ، ولحسن الحظ وجدت أسباباً عملت على حفظ تلك الأثرية في اللغة ، مما ساعدنا على استنتاج ما نستنتج لتصحيح ما أخطأ به اللغويون ، ومن إقرار العربية في الوجهة التي قصد إليها العربي ، والتي تستطيع بها وحدها أن تكون لغة للمستقبل بين أشيائه الباقية ..

الأسباب التي حفظت الأثرية في اللغة أربعة ، هي :

أ - التشخيص العلمي ، كما في يربوع ويسروع .

ب - القصد الكنائي ، كما في يأجوج ومأجوج ..

ج - حداثة الارتقاء ، كما في أنظور وطومار ..

د - الكتابة ، كما في احتفاظ الإملاء بواو عمرو الزائدة ..

ولا بأس من إيضاح هذه الأسباب بشيء من التفصيل ، حتى نصل إلى النتائج الهامة التي نستخلصها من مزايا هذا الدور ..

ولا بأس من إيضاح هذه الأسباب بشيء من التفصيل ، حتى نصل إلى النتائج الهامة التي نستخلصها من مزايا هذا الدور ..

أ - التشخيص العلمي : المقصود بذلك أن يتخذ اللفظ مفهوماً شخصياً ، ويحتفظ بدلالة معينة .. فمن المعقول جداً ، ألا يتأثر اللفظ بالتطورات التي تعرض لأصله إلا نادراً ، بعد التشخيص العلمي ، لأنه فارقة في المعنى .. ومن هذا النوع أكثر ما حفظ من المتخلفات في العربية .. فمن الأفعال المضارعة مثلاً (١) :

١ - يسروع : اسم دويبة تكون في الرمل .

٢ - يربوع : اسم دويبة أكبر من الفأرة .

٣ - يعسوب : اسم دويبة من النحل شبيهة بالجرادة .

٤ - يقطين : نبات معروف ... الخ ...

ب - القصد الكنائي :

إنه بمثابة التشخيص العلمي أيضاً ، ولكن في المعاني ؛ فدلالة الكلمة أو التركيب ليس إلا المعنى المثلي فقط ، ومن أمثلة هذا الباب ، كما أرى ، يأجوج ومأجوج ..

١ - راجع الزهر للسيوطي ج ٢ ص ١٠١

والمقصود بـأجوج ومأجوج : ما يلزم عن معناهما الكنائي من التأجج المتدافع ، والتأجج في كل شيء بحسبه .. وهما مثّل من بقايا العهد الصوتي بقي في اللغة للغاية المثلية فقط ، وعليه ، فيأجوج : فعل مضارع من ثلاثي أجج.. ومأجوج اسم مفعول منه .. والمعنى التركيبي : التأجج المتدافع .. وأظن أنه كان يستعمل لعهد القرآن كمثل في هذا المعنى ، واستعان به القرآن لتأدية الغرض الذي يرمي إليه ، وبفضل استعمال القرآن له فقط بقي في معاجم اللغة .. ولا عجب أن يخفى هذا الخفاء وهو مستقل لعهد القرآن ، فقد ذكر ابن فارس (١) أن ألفاظاً في الحديث وقعت ، لا يعرف معناها على وجه الضبط .. ولهذا السبب حفظ قولهم (٢) : جوج يرقوع ، وفرس يعبوب ، وطريق ينكوب ، وأرض يخضور .. وعلى هذا الظن سنبي النتيجة الخطيرة في تفسير حركات الأفعال في أبوابها الستة المشهورة (٣) :

ج - حداثة الارتقاء :

بمعنى أن بعض القبائل تنفرد عن مجتمعتها ، فتظل خارجة عن حدود التطور ، إما لعدم اتصافها أو لحداثة ارتقاءها ؛ وبالتالي تبقى اللهجة التي نقدّرها على لسانها ، من مثل ما أنشد الفراء (٤) :

الله يعلم أنّا في تلفّتنا يوم الفراق إلى جيراننا صور
وأني حيث ما يثني الهوى بصري من حيثما سلكوا أدنو فأنظور
فأنظور ، وأبنة غيرها عدها السيوطي في المزهري ، وكلمات من هذا الدور لا تزال محفوظة في معاجم اللغة مثل : طومار ، اسم للصحيفة ، ووزانه فوعال .. كل تلك المتخلفات الصوتية إنما تشير إلى انفراد القبيلة التي كانت تستعملها أوالى قرب عهدها بالارتقاء ..

١ - الصاحبي ص ٣٤

٢ - المزهري ج ٢ ص ١٠١

٣ - الأبواب الستة المشهورة هي : نصر ينصر . ضرب يضرب . فتح يفتح . علم يعلم . كرم يكرم . ورث يرث .. وتستجد دلالة كل منها ..

٤ - راجع الصاحبي لابن فارس ص ٢١ . والضرائر للألوسي ص ٢٨٣ .

د - الكتابة :

ومن الأسباب التي حفظت الأثریات في اللغة ، الكتابة أيضاً ، وقد أوضحت ذلك ، في صدد البحث عن واو عمرو الزائدة ، في الدور الأول من هذا العهد الصوتي .

والخلاصة : عملت هذه الأسباب الأربعة ، على حفظ هذه الأثریات اللغوية ، التي ترجع إلى الدور الثالث من العهد الصوتي ، وتكشف لنا عن النتائج الهامة التي بلغتها العربية فيه ..

نتائج البحث في هذا الدور : تتجلى في تأريخ التفريخ اللغوي ، وضبط عين الثلاثي ، وانطباع العربية بطابع الإعراب :

أ - تأريخ التفريخ اللغوي : هذا البحث مهمٌ من كلِّ وجوهه ، ويكفي أنه الأداة الوحيدة لتأريخ التفريخ اللغوي والتشعب المديد ، على أن شيوع أمثلته في عربية المعاجم لا يُعْتَلَّ إلاَّ بهذا الوجه وعلى هذا النحو الذي شرحناه فقط ..

ب - تثبيت قاعدة الأفعال الثلاثية : على ملاحظة بحثنا في هذا الدور بنبي تصحيح القوائم التي يسوقها اللغويون كنوادير ، وتعبيد سبيل اللغة المعثر .. ومن ثمَّ يتسنَّى للعربية أن تستقيم على وجهها ، وتستقر في الوجهة التي قصد إليها العربي .. فإننا نرى ، من خلال صنيع العربي ، أن الحركات في الأفعال التي هي الأبواب الستة ، تنظر إلى دلالات بعينها لا تتأدى إلا بهذا الحرف الشكلي .. ثم في دور الاستقرار قصد العربي أن يثبت الأفعال على صورة آلية ؛ فالماضي مفتوح العين أبداً ، ووزانه فعلٌ ، إلاَّ عند الحاجة المعنوية فينتقل إلى بابي طرب يطربُ ، وكرُم يكرُم ..

والمضارع يكون على وزان يفعل مطلقاً إلاَّ للحاجة المذكورة . والأمر يتبع المضارع ..

وما بقي من اختلاف الأبواب التي قدرها الصرفيون ، ليست في حقيقتها إلاّ مثلاً من عدم الاستقرار اللغوي ، ولو مهدت الظروف للغة السبيل لاستقرت على الوجه الذي نقرضه لها بلا ريب .

وهذه النتيجة في غاية الأهمية لأنها تقوم اعوجاجاً خطيراً ، وتخلص من اضطراب أخطر .. ولذلك أنحصُ فكرتي في الأفعال ، مشيراً إلى جوانبها الثلاثة :

أ - الجانب التاريخي النشوئي ، حيث توصلت إلى أن الأفعال على صورها مهذبة عن صور أخرى ، تراءى لي أن من بقاياها أسماء الأفعال ..

ب - كلُّ المزيادات الصرفية قياسية ، ولكن لدلالات خاصة (١) .

ج - ضبط عين الفعل الثلاثي ، واضطراد جميع الأفعال على باب ضرب يضرب .. وهذا الجانب هو الأساس في هذا المحل ، وقد تعرّضتُ له المقدمة في أكثر من مكان .. ولا بأس من نقل القاعدة التي وصفتُها في مقدمة الجزء الأول من المعجم ، بالشكل التالي :

قاعدة الأفعال : درج المعجميون على الخلط بين ابواب التصريف الستة خلطاً كبيراً ، بينما اتضحت لي حقيقة في كتاب مقدمة ، وهي :

أ - أن التصريف ، بمعنى التلبس بالحال الفعلية في الزمن الخاص ، يخضع دائماً لباب واحد هو الثاني ، أي باب ضَرَبَ يضرب .. بينما الأبواب الخمسة الأخرى فإفادة معنى زائد .

٢ - فإذا أردت الدلالة على التفرقة أو التركيب ، فوق الدلالة على التلبس بالحال الفعلية ، تنتقل إلى الباب الأول أي باب نصَرَّ ينصُر .. ولذا طرده اللغويون في معرض المفاخرة والمغالبة ، الموضوع في هذه الصيغة : قامرته فقمَرته فأنا أقمره .. وعليه فكل ما يصاغ تصريفاً من الباب الأول

١ - راجع رسالة اللعج النواجم لظاهر خير الله الشوري .

يراد به ان الشخص تلبّس بالحال الفعلية وزيادةً على التلبّس تفوّق عليها ..

٣- واذا أردت الدلالة على التغلّب والانسراح تنقل الفعل إلى الباب الثالث ، أي باب فتح يفتح .. ولا تُلقن بالاً إلى ما اشترطه اللغويون من أن هذا الباب خاص بما كان عينه أولامه حرف حلق ، فهو تقدير واهن ، ولذا حاروا في تعليل ما شدّ حيرة كبيرة ..

٤- وإذا أردت الدلالة على التغيّر خلواً وامتلأ ، وجوداً وعدمًا ، تنقل الفعل إلى الباب الرابع ، أي باب عَمِمَ يعلمَ وجهلَ يجهل ..

٥- وإذا أردت الدلالة على الرسوخ والطبع ، تنقل إلى الباب الخامس ، أي باب حَسُنَ يحسُنُ وكرُمَ يكرُم ..

٦- واذا أردت الدلالة على التجزؤ والتقسّم ، تنقل الفعل إلى الباب السادس أي باب وَرِثَ يَرِث ..

وتبعاً لهذا التمييز كان لا بد من التمييز بين المصادر ..

وقصارى القول : إن ما نلحُ به هنا ، هو القول بقياسية الأفعال تبعاً للقصْد .. وهذا اللاحاح لا يتعدى دائرة الثلاثي المجرد ، وأما الأمر في دائرة الثلاثي المزيد فقد قرر قياسيته نقر غير قليل من أئمة اللغويين في القديم ، وفي الحديث ، ويمثل الجانب الثاني من فكرتنا في الأفعال ..

والخلاصة : نرى أن العربيّ اختار الكسر كأصل في الثلاثي ، ويؤكد رأينا هذا اطراد أبواب المزيد بالكسر ، إلّا ما لا يتأتى الكسر فيه ..

ولأنما جنح العربيّ إلى ما نقرره لأنه خضع لعقلية لغوية خطيرة ، كان ضرورياً معها أن يجهد بتصحيح ما سبق وضعه ، وأن لا يضع إلّا على نهج منظم ، كما رأينا في ما تقدم من شرحنا لمعقول العرب اللغوي من خلال قاعدة اللواثر أو الاشتقاق الكبير ..

ج - انطباع العربية بطابع الإعراب :

في أخريات هذا الدور تماثلت العربية إلى الإعراب ، وانطبعت به كتابع راسخ .. ولكن كيف انتهت إليه وانطبعت على اعتباره ؟ هذا لا يزال ظاهرة غامضة لا نحلُّ على وجهٍ طبيعي ..

والإعراب على أي الاعتبارات يضع العربية في منزلة سامية من حيث الجانب اللغوي بل سيظلُّ الشاهد العظيم على مبلغ الصقل الذي أخذت به العربية ، وعلى مبلغ العقلية التي تناولتها ..

وقد غني المستشرقون بدرس الإعراب من ناحيته النشئية (١) .. كما وفَّق في ذلك صاحب كتاب إحياء النحو (٢) .. فدرس الظاهرة على وجه تعليلي نشوئي ، وانتهى إلى تعيين فائدته ومعاني حركاته. ولكنه انتهى في الموضوع ولم يصل إلى الجواب عن كيف نشأ الإعراب ؟ .

وقد اجتهدت بفهم هذه الظاهرة على الوجه التطوري الذي أثبتَّ عموم أثره على العربية ، في كتاب : دراسات على فنون العربية ..

والخلاصة : هذا الدور الصوتي في اللهجة يؤكد البرهان على أهمية الثلاثي المعللة في الحلقة الرابعة من الدور الثالث اللغوي .. كما يؤكد بأن العربية انفصلت بعد تمخضات وبلوغات طويلة واستوت في أكمل ما تكون لغة بما لها من مميزات ، فهي في وجهي الإعراب والبنية ، أدقُّ اللغات في ملاسة اللفظ للمعنى ملاسةً حقيقيةً من كلِّ الأقطار ... وربما كان المثني شاهداً قاطعاً لا يقبل التردد في تمييزها ، فنحن حين نرى المذهب البياني في اللغات قاطبةً يُعبر عن الاثنين بسبيل الجمع ، ندهش كثيراً وعلى وجه غير محدود للدقة العربية التي تبالغ في اعتباره .. ونجدُ غيره شيئاً كثيراً يشهد بدقة العربية كلغة ،

١ - راجع المشرق رايت في كتابه : مقارنة نحو اللغات السامية .

٢ - وراجع الاستاذ ابراهيم مصطفى في كتابه : إحياء النحو .

ويشهد بمبلغ التسامي اللغوي في طبيعة العربي ، ولكن الإعراب من بينها أكثر ما يكون إحكاماً وعمقاً ، وأكثر ما يدعو إلى الدهشة .. ولعلّ خفاء تعليقه من أسباب الدهشة المستمرة ، وينبغي أن لا يفوتنا أن الإعراب من بين أشياء العربية استوى على وجه التمام ، واستقرّ على الوضع الأكمل ، بحيث نفى عنه الزوائد والبقايا الأثرية ، واتخذ وضعه التقنيّ في العربية ، وثبت كصبغة لازمة .

العهد اللفظي

رأينا في تمهيدنا لتطور اللهجة ، أن العهد اللفظي ينقسم إلى دورين يستويان مع الحلقة الخامسة من الدور الثالث في أدوار نشوء اللغة .. ورأينا أن اللغة أخذت بالترقي وعملت عليه ، ولكنها لم تخضع بكاملها لما يقتضيه قانون اللفظية ؛ فبقيت صوتية في أنحاء ، وظلّت قلقة في موازين .. ومردّ ذلك إلى سببين :

١ - أثر مبارحة الجزيرة ، بهذه السرعة ، في إيقاف عمل الإصلاح اللغوي وفي جزر مدّ التهذيب .

٢ - أثر اللغويين الذين اجتهدوا في الحصر والضبط فقط ، حتى خيل من صنيعهم أنها في منزلة من الوحي كما كان خيالهم - فعملوا عملاً لا يعينها بالذات وإنما كان تعليمياً أكثر مما هو شيء آخر ..

ولترك الأسباب التي أوقفت عمل الإصلاح والتهذيب لنستعرض عمل العربيّ في هذا العهد بدوريه :

١ - الدور الأول : الانقلاب والمعاجم .

كان مراحاً لنشاط العربيّ بصورة أكثر عملاً وجهداً ، وأكثر انتاجاً وتصحيحاً .. ففيه تقع كثرة الموازين التي تصدر عنها اللغة في اشتقاقاتها .. ولقد كانت عملية التصحيح فيه جسيمة جداً ، مما يُشعر بطول زمنه ، ويكفي

أن نعرف أنه حدث انقلابي يشمل اللغة من مناحيها ، ويستغرقها في متفرق شعبها إلا ما ندر . ويظهر كل ذلك في بحث الموازين بحيث لا يصعب معه بعد ذلك تعيين التاريخ للاشتقاق .. وفي هذا الدور صححت أكثر الموازين والمفردات عليها من مثل :

أ - فاعل . فاعيل .. من .. فاعيل ..

ب - فاعول .. من .. فاعول .. الخ ..

ومعظم اللغة التي في المعاجم تخضع إلى ما قضى به هذا الدور ، وتظهر في هذه المسحة ، وكأنها المسحة التي تمثلتها العربية غاية ، فلم تعد لها إلا في ارتفاعات حدثت في الدور الثاني ، لم تكن في ذوق العربي وفي مفهومه إلا تنويعاً فقط ..

٢ - الدور الثاني : التنويع والتوقف ..

يقع هذا الدور في ختام الحلقة الخامسة ، ويُعبر عن أغراض تنويعية محضة ، ويُعتبر دوراً تكميلياً للدور الأول ، لأن العربي أرادته للاستثناء إلا فيما تمس الحاجة إلى إمامته ... ومن الأسباب التي أضعفت من عمله ، وجعلته دوراً تكميلياً ، بقاء العربية قلقاً فيه من بعض النواحي ، كما في الاختلاف البين في أبواب الثلاثي ، يقابله الاطراد الموزون في المزيادات ، وقد توقفنا عند هذا الاختلاف في نتائج الدور الثالث من العهد الصوتي ... وأشرنا إلى دلالة كل باب ، وإلى قلق المضارع والمصادر ، على عكس الماضي الذي تقرر في وزان : فعَل مطلقاً ، إلا لغاية معنوية ليست في ذات الدلالة وجوهرها بل تدخل في كيفها فقط ..

وهذا النظر ينفصل عن اللغة وهي قلق على معنى أنها لم تستقر تماماً بداعي الخروج من الحزيرة .. ويتوقف عمل التنقيح اللغوي ، الذي كانت بقاياه تتمثل في الأسواق الموسمية ، كعكاظ ، وذو المجاز ..

والخلاصة : لا نعدُّ هذا الدور انقلاباً كبقية الأدوار في ترقِّي اللهجة ،
ويتلخَّصُ عمله في الانتقال بكلِّ حرفٍ إلى حركة مع الاحتفاظ بالتأدية
نفسها ، أو مع اعتبار تغيير بسيط .. ومن أمثله في الموازين :

أ - فعِل .. من .. فاعِل . أو . فعيل .. كفارج وفرح ..

ب - فعَل .. من .. فاعَل . أو فعَال .. كملَّك وملاك ..

وهذا يقدِّم مثلاً من الإرتقاء الواضح في شتَّى نواحيه ، يجدر بنا أن
نستفيد منه بقصد التنويع في وضعنا الجديد ، مسaireً لنهج العربية في إبان
عملها النشويّ ..

وفي جملة ما أدَّى إليه هذا الدور ؛ التخفيف بالإسكان ، حتى كان
قانوناً شائعاً عند العرب ، ومن كثرته عدَّ قياسيًّا فيما كان ثانية حرف حلق ..
واجتهاد العربية بالتخلص من التقاء الساكنين ، وهو مظهر من مظاهر الطفولية ..
وبهذا الدور كان ختام اللغة ، بمعنى أنها وقفت ، ولم تنته ، فأوقف
انجزارها المفاجيء ما فيها من عناصر فعالة ..

وتجنيء محاولتنا في هذا الكتاب لتحرك عناصر العربية الفعالة ، مرةً
ثانية ، لترتقي إلى حيث يفرض التطور ، وتستقر في كمالٍ يَبْقَى بقاء المستقبل
السرمد ...

تأريخ نظرية اللهجة :

أوّل من أمسك بطرف من نظريتنا في اللهجة ، هو الخليل بن احمد
الفراهيدي (١) .. وبرهان ذلك في أمرين :

أ - تسمية الحركات ؛ الكسرة ياء صغيرة ، الضمة واواً صغيرة ،
الفتحة ألفاً صغيرة ..

١ - راجع بحث « العين » في كشف الظنون لملا كاتب جلبي .

ب - تغييره صنع أبي الأسود الدؤلي (١) ، في الاستعانة بالنقط للدلالة على الحركات التي هي الأحرف المحذوفة ، فاختصر من الألف الفتحة ، ومن الواو الضمة ، ومن الياء الكسرة ..

ثم وضحت الفكرة عند اللغويين من بعده ، وإنه لم يتوسعوا بها ، ومن هؤلاء اللغويين الذين أشاروا إليها لإشارات تؤكد وضوحها في أذهانهم :

١ - الرازي (٢) ، قال : الحركات أبعاض المصوتات ..

٢ - السكاكي (٣) ، قال في الكلام على اسم الآله : ويأتي على مفعال ومفعلة ومفعل ، وعندني أن مفعلاً هو الأصل وما سواه منقوص منه بـعِوَض أو بغيره ..

٣ - الغلاييني (٤) ، ومن المحدثين الشيخ مصطفى الغلاييني ، فقد ارسل رأياً في الموضوع ، خلاصته :

أ - الحركات أحرف مد في عهد اللغة القديم ، ثم سقطت وقام مقامها أحرف صغيرة ..

ب - الحركات فرع وأحرف المد الساقطة هي الأصل ..

ج - لا مدود أصيلة في اللغة ، والمدّ الموجود منقلب عن أصل أو هو زائد .. ومن هذا التلخيص نقف على أن الشيخ لم يجاوز في تقديرنا للثور الأول من العهد اللفظي ، وكأنه أراد بحث ما هو معجمي فقط ، دون مجاوزة في التقدير ..

وبذلك نكون قد ألمنا إلمامة سريعة بتاريخ انبعاث هذه الفكرة عند اللغويين ، وكيف انتشأت .. ونكون قد عرضنا توسيع النظرية بما قدمناه من دراسة على العهدين اللذين مرتّ بهما اللهجة ؛ العهد الصوتي بأدواره الثلاثة ، والعهد اللفظي بدوريه الانقلابي والتكميلي ..

١ - راجع نزهة الالباء في اخبار الادباء لابني البركات ابن الانباري .

٢ - راجع الصحابي أوفقه اللغة له .

٣ - راجع كتاب مفتاح العلوم

٤ - مجلة الكشف البيروتية : س ١ / عدد ٢ / ص ١٤٠ +

الفصل الرابع

التطور في اللغة

نظرية التطور

بات بالامكان تقريبُ ما نريدُه من بحثنا الذي بسطناه في الفصلين السابقين : أدوار اللغات ونشوء العربية .. ثمَّ التطور في اللهجة ، وقد طبّقنا كل شيء على العربيّة ، وعيننا باللهجة شكل اللغة المتطور عن الصوتي إلى اللفظي ... وهنا نصوغُ الفكرة بالشكل التالي :

مرّت العربيّة ، كغيرها من اللغات ، في أدوار ثلاثة ؛ دور المقطع الواحد ، ودور المقطعين ، ثم دور المقاطع .. وهي بذلك إنما تطورت عن الأحادي الذي كان مجموعة حروف الجدول الهجائي التي تمثل لغة الإنسان الأول المعرق في القدم .. وصارت إلى الثنائي فالثلاثي حيث استقرت فيه ونشطت في حلقات خمس .. وعنه كان الرباعيُّ فالحماسيُّ والسداسيُّ ..

فالعربيّة كانت صوتيّة تطورت إلى لفظية في عهدين ينتظمان في خمسة أدوار تواكبُ حلقات الدور اللغوي الثالث ، وتنزل منه منزلة الشكل .. لكنّها في تطوُّرها عن الصوتي احتفظت ببعض وجوه الصوتية بسبب مغادرة

العربيّ لجزيرته من جهة ؛ وبسبب الذين تناولوا اللغة ، وكان طابع مدرستهم الجمعُ فقط ، ثم الوقوف في وجهِ كلِّ اجتهد يرمي إلى تحرير اللغة من الأثرّيات القلقة في الأفعال والمصادر وفي الموازين والجموع .

والخلاصة : تطوّرت العربيّة لغةً ولهجةً ، ولكنها توقفت قبل بلوغ ما كان يقصده العربيّ منها ، وظلت الأثرّيات القلقةُ مظاهرَ الحرج فيها ... ونحنُ في عملنا نحاول ، مخلصين لوجه الحقّ والعلم ، أن نعودَ بها إلى حيث توقفت ، فنحركها بالاتجاه الذي دفعها فيه الطبعُ العربي ، ونحرّرها من استعباد القيود التي شدّها إليها اللغويون المحافظون ؛ لعلّها تحرّرُ ، بدورها ، الفكرَ الذي تمثّلُه وتعبّرُ عنه ..

مؤيدات نظرية التطور .

تمثّلُ نظريتنا هذه توسعةً ونتيجةً لما بحثناه من نظرية اللهجة وصوتية اللغة .. ويؤيدنا في ما نذهبُ إليه مؤيدان ؛ الأول من اللغة نفسها ، والثاني من اللغويين القدامى .. ولأهمية الأول تؤخّره لنبيّ عليه نتائج النظرية ..

١ - المؤيد الأول : اللغويون الأولون :

إن دعوى التطور ، لا ندّعيها نحن فقط ، بل عرفها الأولون ، وإليك ما يقول ابن اسحاق في ما نقل عنه ابن النديم صاحب الفهرست (١) : « وإن الزيادة في اللغة امتنع العرب منها بعد بعث النبي (ص) لأجل القرآن .. ومعنى هذه العبارة ، كما هو صريح منها ، أن العربية كانت خاضعةً للتغيرات المستمرة على الدوام ، فهي بين الزيادة والتنقيح على سنة غير متخلّفة .. وهذا هو الغرض المقصودُ من التطور الذي نجتهد بإثباته .. ومعنى عزو الإمتناع من الزيادة إلى القرآن ، أن القرآن نظّم من حواشي

١ - الفهرست لابن النديم ص ٧

العربية وأخضعها لقانونٍ بيانيٍّ ثابت ، وأمات ما هو متراوحُ الفوضى فيها ، وانتاشها بحيوية أخرى جديدة ..

على أن ابن اسحاق ، لم يفهم السرَّ الصحيح لهذا الانجزار ، وقد صرحتُ به غير مرة من المقدمة ، وهو : توزعُ العرب في الأنحاء ، وتناول المدرسة اللغوية العربية على وجه حرجٍ جدًّا ..

والغريبُ أن يعودَ اللغويون لإحياءِ الفوضى التي أماتها القرآن .. فالقرآن باعتماده لغة قريش ، أمات ما عداها ؛ ولكن اللغويين عادوا فأحيوها وتعلقوا بها على وجه غير قليل ، بل زادوا تعلقاً بإحياء اللغات الجنوبية ، وانتابهم بعض الخطأ في جمع العربية فسكتوا عن التنبيه على لغات القبائل وانقرادات الجهات ...

والشيء الذي لا يُشكُّ فيه أن العربية لم تستقر لعهد القرآن على وجه نهائيٍّ ، وإن كانت قد أخذت فيه بقوةٍ وعنف .. وفي الحق أن القرآن كان سبباً فعالاً لتهيئة هذا الاستقرار ، وإعداده على الوجه الأكمل ؛ وليس كذلك فحسب بل أسرع أيضاً في تحقيق الاستقرار وهضم المتخلفات .. التي تمثل مع الوجود الأرقى وضعاً قلقاً وشاذاً أيضاً .. وذلك لأنهم اعتبروا القرآن آية البيان في العربية ، فاحتنوه في كثير من التقليد وأخذوا أنفسهم به أخذاً عنيفاً ، وفي غير اقتصاد ..

والأمرُ الطريف ، أنك واجدٌ تطور العربية كائناً في حلقاتٍ محفوظة النسب ومقدرة المنازل على صورة خالية من الفراغات حتى التفاعل والمغالبة التي يثيرها الارتقاء وتنتهي بغلبة الأصلح ... وهذا شيء لم ينتبه إليه ، حتى اليوم ، كلُّ دارسي اللغة على وجه العموم ، ولم يُعيروه شيئاً من اهتمامهم بينما لحظه علماء الكوفة في كلمات قليلة (١) : كأيمن ؛ جمع يمين .. اختصر أو تطور فقيل : أيمن ، بحذف الهزّة والنون .. ثم اختصر كذلك فقيل : م ..

١ - راجع خاتمة المصباح المنير للفيومي .

و .. م ... ثمَّ وقف هذا الدرسُ بشكلٍ أحبطَ اعتباره بصورة مطلقة .
 الخلاصة : عمِلَ التطوُّرُ عملَه في مادَّةِ اللغة كما عمِلَ في صورتها ،
 وكان أهمُّ عملَه في حروف الإعلال .
 ويؤيِّدُ دعوانا في التطور لغويُّون قدامى ؛ كما رأيتَ في رواية صاحب
 الفهرست ، وفي ملحظ علماء الكوفة ..
 وقد أوضحنا مدَّعى التطور هذا ومثلناه تمثيلاً وافياً في صدرِ الكلام
 على انتقال العربية من الصوتية إلى اللفظية ؛ ورأينا هناك السيرَ التطوريَّ ومقدارَ
 عمله ، واستطعنا أن نسوق أمثلةً فذَّةً يتجلى فيها أسلوبُ الارتقاء واضحاً ،
 وهي أمثلةٌ : نِيدُلان .. و .. زَبِير .. وقد رنا أن زَبِيرَ يُمثَّلُ تمامَ العملِ
 في نِيدُلان ..
 وبالعودة إلى تلك الأمثلة وتوسعتها تقدِّمُ المؤيِّدَ الثاني والأهم لنظريتنا .

٢ - المؤيد الثاني كلمات اللغة المتطورة

رأينا في بحثنا لنظرية اللهجة ، أن تطوَّرَ اسمُ الفاعل ، وتطور الميزان
 يمثلان مؤيِّداً أكيداً لرأينا في صوتية اللغة من بعض وجوها لإبَّان الدور الثالث
 من العهد الصوتي .. وهنا نذكرُ بالمثالين السابقين ، ونقدِّمُ أمثلةً أخرى
 من تطوُّرِ الإعلال والأفعال والصوتية ... لنُظهر فيها مقدارَ ما عرَى العربية
 من تطوُّرٍ بليغ نقلها من وضعٍ إلى وضعٍ آخرَ يبعدُ عن الأول كثيراً .. وإليك
 الأمثلة :

أ - أمثلة تطوُّر الميزان

تتجلى هذه الأمثلة واضحةً في أمثلة اللغة المحفوظة من أوزان قديمةٍ
 أميتت في عهد البلوغ اللغوي ، ومن هذه الأوزان المماتة : فِعْلُ وفِعْلان ..

ومن الكلمات عليها :

١ - نِيدُْلان .. نِيدُْلان ..

٢ - زِبِير .. زِبِير .. زِبِير ..

٣ - حَبِك .. حُبِك أو حِيك ..

المثال الثالث وما قيل فيه : « ليس في كلام العرب .. فِعْل .. إلا حَبِك .. يؤيدُ افتراضنا لوزانه الممات ، واعتماداً على مجيئه بصورتين هما : حَبِك وحُبِك .. نرى أن أصله حَبِك ، ولما قضت العربية باستثقال هذا البناء وإماتته ، نقلوا كلماته بأحد وجهين ؛ إما باتباع الفاء للعين ، وإما باتباع العين للفاء .. ولما كان الاتباعُ في الضمِّ قليلاً ، نظنُّ أنَّ العربية قصدت أن تستقرَّ عليها بالكسر ..

يُرينا هذا المثال وغيره الطرافة في طرق تطوير اللغة ، والانتقال بالكلمات التي هي على أوزان مائة ، ويقضي ككل أمثلة اللغة المحفوظة ، بأن الإلتباع ترك أكبر الآثار ، وكان قانون تطوّر العربية وارتقاؤها في الجملة .. وقد لحظّ وجهاً سرياً مما نقرّر السكاكي في مفتاحه ، فقرّر الاتباع حقيقة لغوية واقعة (١) ..

والخلاصة : أن عمل الارتقاء يبلى في هذه الأمثلة تام الحلقات ، بحيث يجعلنا ندرك كيف كانت اللغة تتطور آخذة مأخذاً موزوناً . والأمور التي يمكننا أن نستفيد منها من هذه الأمثلة على وجهين :

الوجه الأول نسبة ارتقاء القبائل

بمعنى أن القبيلة التي تنطق : نِيدُْلان متخلفة عن التي تنطق بها : نِيدُْلان . والكلمة متخلفة من حيث هي .. وكذلك القبيلة التي تقول : زِبِير ، متخلفة

عن القبيلة التي تنطق بها زبير .. والكلمة من حيث هي وافية الارتقاء ،
كاملة التطور ..

بيد أنه بقي تقصيرٌ وقع فيه الرواة القدامى ، وهو عدم تعيين القبائل التي
تنطق بها هكذا على وجوه مختلفة ، الأمر الذي كنا ، بالاستناد إلى هذا
النظر، نجعل منه ميزاناً للتقدم القبلي ومقدار التخلف .. وفوائد هذا ، عدا
التأريخ اللغوي ، الوقوف على أن الاختلاف مرجعه إلى عمل التطور ، وليس
إلى الانفراد اللغوي مما كان يتوهم معه وجود لغات في الجزيرة ، تنفعل كل
لغة على حدة ، بينما الآن يتجه النظر إلى أن اللغة خضعت لظروف واحدة ،
وتطورات متساوقة ، واتجاهات تتقارب كثيراً وتتخلف أحياناً ..

الوجه الثاني : الوقوف على تأريخ القوانين التي خضعت لها اللغة ، ويستنتج
منه أمور ، هي :

١ - أن قانون منع الانتقال من الكسر إلى الضم أقدم من تمام تحلل اللغة
من الصوتية ..

٢ - إن إبدال حرف اللين بالهمزة تخلصاً من الصوتية ، وليد الضرورة ،
وهو متأخر عن قانون منع الانتقال ..

٣ - إن قانون الاتباع بالحركة متأخر جداً ..

ب - أمثلة تطوّر اسم الفاعل

رأينا في بحث اللهجة أن صيغ اسم الفاعل : فاعل ، فاعيل ، فعيل ، فعل ، فعل ..
تستوي كلها في أصل الدلالة ، وأنها ارتقاءات عن فاعيل الممات ، قصد
بعضها التنويع وبالبعض الآخر الإمامة .

ونرى هنا أن العربي قصد أن يطرّد زنة : فاعل ، في كل ثلاثي مجرد من

غير نظر إلى الأبواب .. وإذن لا حاجة لاختلاف اللغويين في أبحاثهم حول صيغه ، أيُّها القياسيّ (١) .. وحول أبحاثهم في اسم الفاعل من الثلاثي المجرد .. فصيغ اسم الفاعل تطورات تفيد إفادة واحدة ، وقد قصد العربيُّ أن يعرض بها على كلِّ الموادِّ في اللغة ، فحال بينه وبين قصده ما ذكرناه من مغادرة الجزيرة ، وعمل اللغويين المحافظ .. فاكتفى بما وصلَ إليه ، وأمر الاكتفاء معروف عند اللغويين الأولين ، فقد قالوا في المصدر من الفعل المضعّف : أن العرب استغنوا في بعضه بأسماء وقعت موقع المصادر كما في وصاة مكان توصية وزكاة مكان تزكية ، وصلاة مكان تصلية ..

ج - أمثلة تطوّر الأفعال

عرضنا لقاعدة الأفعال ، في نظرية اللهجة ، وبسطنا معقول العربي في تسوية الاختلاف بين أبواب الماضي والمضارع .. وكان رأيُنَا مبنياً على تحليل الأثرية المحفوظة من بقايا اللغة في عهودها الأولى ونعود هنا ، فنتناول الفكرة بشكلٍ أوسع من خلال الكلمات التالية :

١ - دراك .. هيهات .. ويّ ... وتقول فيها ؛ دراك : اسم فعل أمر بمعنى أدرك .. وهيهات : اسم فعل ماضٍ بمعنى بعد .. ووَيّ : بمعنى أعجبُ بكذا ..

وعندي أن كلمة : دراك وأمثالها ، بقايا تُمثّل الفعل الأمريّ قبل أن يتهدّبَ تمام التهذيب على الشكل الذي انتهت به العربية .. وكذلك : هيهات و ويّ .. وبقيةُ أسماء الأفعال ..

٢ - يَرَاع .. ينبوع .. وهذان يعبران عن صورة الأفعال في العهد الصوّتي .. فالأول : فعلٌ ماضٍ متخلف .. والثاني : فعلٌ مضارع متخلف

١ - راجع المصباح ج ٢ ص ١٠٦٦

أيضاً .. ولكنهما ليسا على خلافٍ مع الوضع الذي استقرَّ عليه الإعلان ، مما يدلُّ على أنَّ ترتيب الأفعال على وضع مهذب ، سبق تمام التحلل من الصوتية ... ولكن بقيت الاختلافات بين أبواب الماضي والمضارع ، ونحن ظننا ، وأبدينا هذا الظن ، بأن هذه الأبواب أيضاً أثرية ... والواقع أن اختلافها كان له مفهوم في طبع العرب الأقدمين ، لأن شكلية الحروف كان لها تأثير في تمام المعنى ، ومن ثمَّ نشأت هذه الأبواب ، فإذا لم تكن مقصودة في الواقع .. وبهذا لما أدرك العربية عهد الإصلاح والتهديب . حاولت التخلص من الاختلاف المذكور ، الذي لم يعد له معنى في الوضع الأخير ...

وعليه فقد كان للفعل بعد هذا ، ارتقاء آخر "أخذ" سبيل التحرر من قيود الاختلاف ، الذي سببته ظروف ماضى أوانها .. وهذا الارتقاء يظهر في المثالين الثالث والرابع ..

٣- وهِل يوهِل .. ومن معانيه الوهم والخطأ والضعف والخوف ، وأول وهلة : أول شيء .. والمثال يلي ما قدمنا ، ويظهر فيه عمل التطوُّر بنقله إلى باب : فَعِل يَفْعَل .. واعتبارها أصلية فيه ، وعلى قلّة وشاذّة في باب فَعِل يَفْعِل .. وهذا المثال متخلّف من وجهين :

أ - التصحيح مع موجب الإعلال ..

ب - الدوران بين بابي طَرِب يطرَب .. وحسب يحسَب .. ويظهر من هذا أنَّ العربي فكّر بتوحيد الأبواب قبل تمام عمل الإعلال .. ولذا نقدّم المثال الأخير والأرقى ...

٤- وثِق يثِق .. مصدره الثقة والوثوق والموثق ، ومعناه الإثمان .. وهذا المثال أرقى من سابقه لأنه جاء من باب مِمات مع الإعلال الذي هو تمام العمل الارتقائي ، كما تشهد عبارة الفيومي في مصباحه (١) ، وتصدّق كلِّ مارأيناه وجئنا به ..

- والخلاصة : نستنتج من تسلسل الارتقاء المفروض في الأفعال ما يلي :
- ١ - إن الصور التي عليها الفعل على اختلافه مهذبةٌ سُبِقَتْ بصور أميتت وأخرها ارتقاء الأمر ، ثم استقرَّ في أنه يتبع المضارع ..
 - ٢ - أن تهذيب الأفعال سبق التحلُّل من الصوتية ..
 - ٣ - أن توحيد أبواب الأفعال متأخَّر عن التحلل من الصوتية ..
 - ٤ - أن الإعلال متأخَّر في الطبع العربي عن توحيد أبواب الأفعال ، ويكون أيضاً آخر أعمال التطور فيما وقع فيه ..

د - أمثلة تطوُّر الإعلال

الإعلال في غايته يرادُّ للتصحيح ، وهو وسيلةٌ لبقَّةٌ وسامية ، والإعلال يفيدُ المعنى الطبيعي ، كما في : طال .. فانه يفيد العُول بنمو طبيعي .. وأما التصحيح مع موجب الإعلال فيفيد المعنى بتكلف او باضطراب ، كما في : طولٌ .. فإنه يفيد التكلف في الطول ..

هذا التعريفُ بالإعلال مأخوذٌ من الباب الثاني ، ومقدَّمٌ على بابهِ ليساعدَ على إدراكِ الحركة الارتقائية في تطور قاعدة الإعلال ، الذي نتابعه في الأمثلة التالية :

- ١ - عَوِيَّة ، معناها صياح الذئب ، وهي من أقدم الأمثلة المتخلفة ، حق لتدعو إلى التساؤل عن أسباب بقائها ..
 - ٢ - سَيْقٌ بالإشمام إلى الضمِّ ، وسَيْقٌ بالكسر .. ويأتي بعد المثال الأول في التخلف ، وذلك لأنه يحتفظ بعمل ارتقائي أولي ، تقوم فيه مغالبة شديدة تنتهي في المنطق العربي إلى الكسر المحض .
- وعليه فالإشمام ليس حركة كانت في اللسان العربي كما توهم عبد القاهر الجرجاني في كتاب الإيضاح ، وإنما هو انتقال وتطوُّر لم يتمَّ أو يتكامل ..

ومن ثم يظهرُ أن الإشمام لإعلالٍ بين أيدي التطور .. ومثالنا السابق يؤيدُ رأينا ، فقد مرَّ في ثلاثة أدوار من الترقى المتطور حتى بلغ ما هو عليه :
أ - نُطقت أوّل مرة : سَوْقَ ..

ب - ثمَّ أُعِلَّتْ بإتباع الواو للحركة فقيّل : سَيْقَ ، وفي ذلك إشمام ، فالإشمام يعني نطق الضمة قبل الياء مع خفة التكلم ..

ج - ثمَّ أُعِلَّتْ بإتباع حركة الفاء لحركة العين فقيّل : سَيْقَ .. وعليه استقرت إذ لا مطلب وراء ما وقفت عنده .. وفي العربية بقايا كثيرة تؤكد ما فقرضه افتراضاً بصور الواقع (١) ..

٣ - صَوْمَة وصامة .. وهذا مثال يجيء بعد ما تقدم ، وهو غايةٌ أرقى من العربية المحرّرة ، وارتقاءٌ قعدت عنه اللغة .. وذلك لأن مثلَ : صَوْمَة ، يعتبر في العربية الشائعة كامل الإعلال تام التهذيب .. فمجيءُ : صامة فيها ، ارتقاءٌ جديدٌ بدأ ووقفَ دون أن يؤثرَ أثراً كبيراً ..
والخلاصة : يستنتج مما تقدّمَ أمورٌ أهمُّها :

١ - ان الملَّ كان على التصحيح في أقدمِ عهود اللغة ، لا كما ظن النحاة من أنَّ ما قبل الإعلال افتراض تعليمي ..

٢ - إن قانون الاتباع هو قانون الإعلال الصحيح ..

٣ - ان الإشمامَ إلى الضمِّ لإعلالٍ أوّلٍ وليس بحركة زائدة أميت ..

٤ - ان الاتباع يَعْمَلُ في الاعلال على التناسب ولو لأدنى ملابسة .

هـ - أمثلة تطوّر الصَوْتِيَّة

الصوتية مبحثٌ شديدُ الخطورة ، لأنّه أصلُ العربية الذي تطوَّرت عنه إلى اللفظية ، واجتهدت أن تتخلَّصَ من كل آثاره الباقية ، ولا يزال الاختلافُ

١ - راجع خاتمة المصباح ص ١٠٩٠

القائمُ على الورود بأحرف المدِّ أو بحركاتٍ من جنسِها .. ولقد رأينا أنَّها انفصالاتٌ وتطوراتٌ في الحقيقة ، ورددنا وهم الجماعة القائل : بأنها ناشئة عن اتباع الحركة أو أنها لغات ، لأنَّ نظرهم يعتمِدُ الحركةَ أصلاً .. والمتخلّفات الكثيرة تؤيد رأينا كما بسطانها في كلامنا على اللهجة ، ونضيف هنا كلمةً جديدةً نذكر من خلالها بما نريدُ ونستنتجُ بعض النتائج ..

أ - فمن يقف بالروم ، كان ينطقُ بها بأثر حركة على الشفتين ، نِيَصَال ..

ب - ووردت على ما ذكره ابن الانباري في أصول اللغة (١) ، نِصال ..

ج - ووردت كما هو السائد في اللغة ، نِصال ..

والمعنى في هذا المثل : أن أقدم القبائل تخلّفاً ، التي تنطقها نِصال ، بالروم ، لأنَّ الوقف بالروم ، كما حققنا ، بقيةٌ من الوقف بالواو .. فتخافت في المنطق العربي إلى حدِّ الإحماء ، إلّا في لهجة متخلّفة ، بقي أثره الإشاري فقط عندها ؛ ويليهما تخلّفاً القبائل التي تنطقها بالكسر .. وأرقاها التي تنطقها كما استقرت عليه في العربية بمحذف الياء ..

ويُستنتج من هذا أمور ثلاثة :

١ - أن الروم بقيةٌ من صفة الوقف العمومية ..

٢ - أن أحرف المدِّ كانت هي الحركات ..

٣ - أن الإعراب سبق تمام التحلل من الصوتية ...

الخلاصة : تضع هذه الأمثولات قاعدةً علميةً لدرس العربية ، لا تنافي مع عفو الطبيعة ، إذ تظهرنا على مراحل الرقي اللغوي ، والتطور من الصوتية إلى اللفظية على خطّة تبعدُ عن الأسلوب الغيبي . وهي جملةٌ من أمثولات تجمعُ إلى الندرة الطرافة والجمال ، اجتهدتُ بعرضها على وجهٍ فذٍّ ونحوٍ

١ - أنشد مثالا على ذلك : لا عهد لي بنيصالي أصبحت كالشن بالي

طريف .. وهذا النحو من العرض والشرح يبدو أجمل ما يكون حين يتوسع به ، ويُدرّس على نسقه كلُّ ما سمّاه العلماء ، بالضرائر ، والنوادر ، وتداخل اللغات ، واختلاف القبائل ، والشذوذ ، والغلط ، وما إلى ذلك ...

نتائج نظرية التطور

تنظم نتائج هذه النظرية في شعبتين أساسيتين ، يتفرع عنهما كلُّ شيء يتعلقُ بالعربيّة مادّةً وصورةً ، وإحدى هاتين الشعبتين تنبني على الثانية وتلزم عنها :

الشعبة الاولى : تكادُ تلخّصُ مُعطيات هذا الباب الذي تناولنا فيه تاريخ النشوء اللغوي وتطوّر اللهجة .. لأن دراسة العربيّة والانتشار عليها بصورة استقرائية علمية معمّقة أو صلنا إلى تقرير الأمور التالية :

- ١ - كان الجدول الهجائي بحركاته لغةً للإنسان القديم .
- ٢ - نشأت العربية نشوءاً تطورياً عن الجدول ، فالأحادي أصل الثنائي ، وهذا أصل الثلاثي ، وهكذا ، كما فصلنا مسبقاً ..
- ٣ - تطورت العربية اللفظية عن أصلها الصوتي على أدوار متعاقبة .. وعلى هذه النتيجة ومراقبتها تنبني الشعبة الثانية من نتائج النظرية ..
- الشعبة الثانية : هذه الزمرة من النتائج تعتمدُ على الأولى ، وتفرّعُ عنها ، وهي استنتاجيّةٌ اجمالاً وأهمُ فروعها :

١ - تساعدنا بمراقبة مقدار المسافات التي عملها التطور في اللغة على مختلف الأنحاء سواء في الإعراب والإعلال والموازن والاشتقاق والأفعال والمصادر .. وتُطلّعنا على تلك المسافات الواسعة التي بقيت واضحة في منطق القبائل المختلفة ، ومنطق القبيلة الواحدة . وبالتالي نقف موقفاً مخالفاً مع علماء

اللغة بشأنها ؛ فهم يتدعون لها وجوهاً من التعليل ، كالاختلاف القبلي ، وتداخل اللغات ، والضرائر ، والشذوذ ، والغلط ، وغير ذلك من حيل التحيّل ..

أما نحن فنعتبرها أثراً من آثار التطور العام الذي تخضع له كل لغة في سيرها الارتقائي ، وتبقى هذه البواقي والمتخلفات لأسباب مكانية وظرفية ، أو لأنّ التطور لم يتمّ دورته بما يكفي لأن يأتي على كل موائل الوجود المهضوم.

٢- ان التطور الذي أثبتنا أثره على المفردات ، في الأمثولات التي قدمناها ، يصدق عمله في الأسلوب والمنهج البياني على شتى أوضاعه ومختلف صوره ؛ ومن شاء أن يدرس أثر التطور في البيان ، فما عليه إلا أن يمعن النظر في كتاب « المجاز » لمعمر بن المثنى المعروف بأبي عبيدة ، ففيه تقع على تطورات مختلفة جداً في هذه الناحية سماها مجازات أي أساليب ؛ والحق أنها أبعد ما تكون عن معنى التسمية ، وما هي عند البحث إلا تطورات وبقايا من مجازات انقرضت ..

٣- حتى الشعر لم يفلت في أوزانه من الانصقال بالتطور والتكامل على مده .. ولقد يتسنى للباحث أن يربط بين بحور الشعر العربي القديم ، بحيث يتسوّق في نشوء تصاعدي صحيح ، وإن بقيت بعض الحلقات فراغات ، فهي تنظر إلى أبحر أميت ، كما أميتت في نظرنا « فاعيل » ، وبقي ما ينظر إليه ... وكان من نتائج هذا الدرس على الشعر أن انتهت إلى نتيجة خطيرة ، وهي أن البيان العربي ابتدأ نظيماً ، وتطور كذلك آخذاً نحو التحلل .. وكان من آخر البحور المرتقبة ، الخفيف وما إليه ، والرجز المرصّع الذي منه تحلّلت الأسجاع وبدل لهذا التحام الرصيع الشعري والسجع عند الكهنة الشعراء .. وعليه فيكون السجع حلقة ما بين الشعر والنثر ، لأنّ البيان العربي قام زمناً في الفقرات المثلية والأسجاع القصيرة ، قبل أن يستوي في النثر القرآني ...

٤- إن القرآن تناول العربية ولما تستقر ، بحيث كان سبباً قوياً في تهينة الاستقرار على أكمل الوجوه .. وإنّ فيه صورة واضحة عن شتى تطورات

النثر ، حتى يكاد يحتبك مع النظم في بعض السور ، كثل : إنا أعطيناك الكوثر . ولكنه يعودُ فيأخذُ في مذهبٍ انفرادي ، ينتقل بالبيان العربي على مثل الطفرة ، ويهدو هذا المذهب الجديد واضحاً في سورة المؤمن ، وفصلت ، ومحمد ، والطور .. ومعنى هذا أن القرآن يجمع مختلف صور البيان العربي قبله ، ويأتي بها على نحوٍ مُعجزٍ جداً ، ثم يسوقُ أسلوباً جديداً لا ينتسب إلى بيان العربية بمال ، وربما كان في اجتماع هذه الصور الشنتى من الأساليب في القرآن ، على مسحةٍ متسامية ، سرّاً إعجاز القرآن الصحيح ..

وليتنبه إلى الفرق بين الروح القرآنية ، والأسلوب القرآني .. فدعوانا أن في القرآن صوراً من أساليب شنتى ، لا يعني أن روحَ البيان فيه مختلفة ، وقد بسطنا ذلك مفصلاً في كتاب « مقدمة التفسير » ، بعنوان : نثر القرآن .. والفرق شاسع بين أسلوب البيان أي طريقة نظم البيان ، وبين صبغة أو طابع البيان التي تنتسب إلى المعنوية والروح فقط ؛ فإن مقالَ الشاعر على بحور مختلفة لا تنفيه عنه ، هذا واضحٌ جداً ولذلك لا أظن فيه .. وأحرى بنا أن للرسـ بيان القرآن على هذا النحو ، لأنه الوثيقة السامية في البيان العربي ، حتى نطبع به على الدوام ، فأشدُّ الكتاب تطرفاً عنه ، أشدُّهم تعلقاً به على الحقيقة ، لأن البيانَ غذي القرآن ..

والغاية ، إن القرآن أَمات الفوضىَ في العربية ، وأخضعها لقانونٍ بيانيٍّ ثابت ، ودلَّ فيما دلَّ على تطورها ، كما أوضحنا في المؤيد الأول لنظرية التطور اللغوي ..

هـ - ظَلَّتِ العربيةُ غيرَ خالصةٍ من علائقِ الفوضى ، في الأفعال ، والمصادر ، والجموع ، والموازن ..

وهذه النتيجة في غاية الأهمية ، لأنها معتمدنا في تشخيصِ الداء ، وينطلقنا لوصفِ الدواء الذي يشفي لغتنا من قلقها ، ويشفيها من تقليدنا المتعصب ، ويبلغ باللغة مستقرها الذي كانت ستصل إليه لو ظَلَّتْ في محيطها ..

فالعربي القديم عمل على إقرار هذا القلاق ، ولكن لغته وقفت دون ما كان يقصد منها ، بسبب الظروف التي صادفتها في تلك المرحلة من سيرها التطوري ، وبسبب اللغويين المحافظين الذين كانوا عرباً أكثر من العرب ، فاحتجوا بالسماع ، ووقفوا في وجه التطور الذي تعنيه العربية وتدل عليه بقاياها الأثرية ..

لذلك أحاول وصل ما انقطع من تطور اللغة ، لعلها تبلغ الهدف الوضعي المعين لها .. ومحاولي هذه مبنية على أمور استقرائية وأخرى استنتاجية ، أهمها :

أ - تبدو العربية متخلفة في بعض النواحي أو ضعيفة فيها ، ويبدو عمل اللغويين لمعالجة ذلك كعمل الياثس المتعلل ، يقنع نفسه بأنه أشفى على الغاية وأنهى كل شيء ، وهو لم يبه شيئاً إلا في ظن نفسه .. وللغويين أعذارهم ، فقد بذلوا الجهد ، ولكن اللغة لا تسمح بأكثر من ذلك .. ومسكينة هذه اللغة كيف تستطيع أن تسمح بأكثر من ذلك ؟ وقد قيلوها بأنواع من القيود لا تعرفها ، وألزموها بها رغم أنها قد تهدمها وتركها أنقاضاً ؛ كما في دعوى السماع ، وغير ذلك من أشكال تحكيمية لم يفقهوا وجه السر فيها ، فقالوا : هكذا خلقت ، ولم يعملوا الفكر في ما يعني اللغة من التطور ، وفي ما يريد العربي من لغته .. فجاءت تقديراتهم المدعوة « بعلم اللغة » ، نوعاً من الأفكار الشخصية لا أكثر ، فبحوثهم لا تعبّر عن ملحظ العرب .. ولذلك كان طبيعياً أن تتخلف اللغة عند حدود ما سموه قياساً وسماعاً ، علماً بأن القدماء أشاروا إلى ما يلغي هذا الوقوف ، كما في عبارة علي لسان أبي عمرو بن العلاء (١) : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرأ لانتهى إليكم علمٌ وشعرٌ كثيرٌ .. واذن لا اعتبار لقلة الورد عن العرب أو السماع عنهم

١ - انظر أدب الكتاب للصولي . ط مصر ، والإنباء لابن القفطي ، وطبقات الشعراء لابن سلام الجسعي الخ .

لأن الضياع وعدم التحمل يُلغي ما يتمسكون به من حرمة السّماع التي أوقعتهم في التناقض التام ..

ومثلُ هذا في الخطورة ، ما يعتمدُه اللغويون اليوم من ترقيع أمزاق الماضي ، وغض الطرف عن مطالب العصر ، بل والتحوّل بالبحوث اللغوية إلى ما ينفّر من العربيّة ، ويجعلُها مستحيلةً على عشاقها ، ناهيك عن أعدائها ؛ على غرار ما فعل الأستاذ (١) نجاني في كتابه : ترويق الجو في تحقيق الكلام على لو .. الذي كتبه في ثلاثة أجزاء ، والحق لو كانت وحيّاً لكفرنا به .. ومثلُ هذا من ألاعيب الفراغ كثير ..

ب - هذا شأن اللغويين ، قدامى ومحدثين .. أما شأن اللغة ، فيتلخّص عندي بأن سمعتها إنما ترجعُ إلى قوانينها الغنيّة الثابتة لاغير .. والأخذ بهذا الرأي يهدم الحصنَ المنيعَ الذي حبسوا تطوّر اللغة وراءه من مزاعم السّماع أي ليس في كلام العرب .. وإلغاء السّماع الذي حجّر اللغة يقتضينا التأمل في فكرة التطور اللغوي الذي يشير إلى معقول العربي ، والعودة بالعربية إلى حيث توقفت لنأخذها بالسبيل التطوري الطبيعي .. وهذا الأخذ يحتاج إلى أمرين :

١ - استعراض الوجوه التي يبدو فيها التخلف لتكون فيه البيّنة ..

٢ - اقتراح التنقيح الحديد الذي يقرّر معقول العرب من وجه ، ويقيل عثار العربية بحيث يُعدّها للمستقبل المملود من وجه آخر ..

الأمر الأول : وجوه التخلف

وهذا يعينُ على البحث في أمر القواعد التي سنتهجها في وضع ما نضع ، وفي تقدير الوضع على صورته الموزونة ..

غادر العرب جزيرتهم ، وتخلّوا في بقاع متباعدة من الأرض ، ، قبل استقرار لغتهم بصورة نهائية ؛ فلم يقرّروا الأفعالَ على باب واحد ، رغم أنهم كانوا يقصدون ذلك ، فظلت العربية قلقلة من هذه الناحية ، وكذلك في

١ - ترويق الجو للأستاذ نجاني الذي كان مدرّساً في دار العلوم وهو بحق موسوعة نحوية ندر نظيره .

المصادر والجموع .. كما أنهم لم يقرروا الموازين بدلالات ثابتة قارة ، مع أنهم استحدثوا الموازين ، وكان قصدهم يتّجه إلى التحديد ... وهذه أهم الوجوه التي تخلفت العربية فيها ، لأسباب تكرر ذكرها :

١ - الوجه الأول : الأفعال : تقدّم البحث في الأفعال ، مرّةً في نتائج البحث في الدور الثالث من العهد الصوتي ، في تطور اللهجة ، وأثبتنا قاعدتها هناك ، كما وردت في مقدمة المعجم ؛ ومرّةً ثانية في أمثلة تطوّر الأفعال .

ولأن حديث الأفعال مفاجئاً ومفيداً ، نعود إليه هنا ، لتعليل التفاوت الذي نشهده في الثلاثي والذي تقدّر أنه نتيجة لعدم الاستقرار . فالثلاثي وليد الأزمان المتباعدة في القدم ، ووليد أدوار الفطرة ، الأمر الذي يجعل كيانه ساذجاً .. ولكنّ العربيّ في عهد رقيه ، جنّح إلى التنقيح في الأفعال حتى تأخذ سبيل الاستقرار ، كما هو الحال في المزيادات ، غير أنه لم ينته بها على الوجه الأكمل ، فبقيت بين متجاذب من دور التنقيح والقديم ، أدّى إلى مثار من الاضطراب الواضح في عين الفعل المضارع المصاغ من الثلاثي .

ونظنّ بأنّ العربيّ قصد أن يطرد الأفعال المضارعة على الكسر دون تخلف ، ودليلنا على هذا شيوع الكسر كحركة أصلية ، فهي في التقاء الساكنين وفي الابتداء بالساكن ، تكون على لزوم أو أرجحية ... ولقد أدرك الصرفيون هذا ، واختلفوا في أيّهما الأصل ، الباب الأول أم الثاني .. وعلى هذه الملاحظة بنى الاملائيون القدامى قاعدة : الكسر يغلب غيره ... وردّ المحققون الرفع على المجاورة ، كما فعل ابن الشجري في أماليه (١) ... بينما الجرّ على المجاورة شائع مشهور في الضرورات بلا خلف فيه ، كما أنّ الانباع بالكسر كثير في الموازين ، ونادر بغيره (٢) ...

ولذا نعتدّ الكسر اعتماداً لا تردّد فيه ، بدليل غلبته في المزيد الذي

١ - راجع الضرائر للألوسي ص ٢٦

٢ - راجع سفر السعادة للسخاوي .

هو بلا ريب من عمل الأدوار الأرقى ... ونقدّم صورةً مقترحةً من الاستقرار المفروض في الأفعال للإيضاح ..

أ - الفعل الماضي : يكون على وزن : فَعَلَ .. مطلقاً ، إلاّ الحاجة معنوية ، فينقل إلى بابي طَرِبَ وكرُم ..

ب - الفعل المضارع : يكون على وزن : يَفْعِلُ .. مطلقاً ، إلاّ الحاجة المذكورة .. وهذا في غير الحلقي فيكون من باب فتح مطلقاً ..

ج - فعل الأمر : يتبع المضارع ..

والخلاصة : كلُّ ماضٍ بالفتح مطلقاً ..

وكل مضارع بالكسر مطلقاً ..

وكل حلقي بفتحهما مطلقاً .. وأحرف الخلق ستة هي : هـ ، ع ، ح ،

غ ، خ ، كما سبق ذكرها

وما بقي غير ذلك فأثرّياتٌ من بقايا التطوّر ...

وليس معنى هذا أنا ندعو إلى خرق حرمة النص فإن ما مضت به المعاجم

يتقيد به إذا كان محلّ وفاق ، فان اختلف فيه فالراجع الكسر ...

وكذلك كلُّ اشتقاقٍ في المستقبل يلزَم هذه السبيل ويتطرّد عليها ..

٢ - الوجه الثاني المصادر

والمصادر من الثلاثي بقيت كذلك قلقة في اللغة ، ويدل على هذه الملاحظة

أنّ القلق لا يعدو الثلاثي أيضاً ، بينما نجد المزيادات على اطراد وغير تختلف ،

إن في المصادر أو في الأفعال .. ولا ريب في أنّ هذا القلق يرجع للأسباب التي

قمناها مصادر وأفعالا .. وهي أسبابٌ معقولة جداً لأن الثلاثي كان في اللغة

بمترلة التراث القديم .

وحتى تعرى القواعد من الاضطراب الواقع لا بُدَّ من تصنيف المصادر إلى نوعين :

أ - مصادر متعينة في المصدرية ..

ب - مصادر معنوية أي تابعة للمعنى ..
ونُرجِّح ، زيادةً على ذلك ، أنَّ المصدر الميميَّ كان أشبه بمحاولة من العربيّ لطرده في الثلاثيَّ على وجه مطلق ، كما هو الحال في المزيدات ..

٣ - الوجه الثالث الجموع

كذلك الجموع لم تستقر إلاّ في قلّة من الكلمات ، غير أن العربيّ أخذَ بصورةٍ جديةٍ لإقرارها . وهذه أمثلة نقدر أنّها قديمة ، لأنها جموع لأسماء الإيام والأشهر (١) :

أ - قالوا في جمع سبت ، اسم اليوم : أسبُت ، سُبوت ، أسبات ، أسابت ، أسابيت ..

ب - قالوا في جمع رمضان ، اسم الشهر : رَمَضانات ، أرمِضة ، أرمِضة ، أرامِض ، رَمَاضِي ، رماضين ، أرمُض ، رمضانون .. الخ ..

ج - ومن الأمثلة التي فيها قدامة وفيها تطوّر .. ديوان .. ووزانه ، فِعَال .. أخذ بالإعلال .. ويؤيد هذا جواب أبي عمرو بن العلاء (٢) حينما سئل عن ديوان هل ينطق بفتح الدال ، فقال لو جاز هذا لقليل في جمعه : دياوين .. فقال خلف الأحمر ، وكان في مجلسه ، إنه سمع شاعراً حميرياً يُنشد :

عِديني أن أزوركِ أمّ عمرو دياوين تشقّق بالمداد

١ - أدب الكاتب للصولي ص ١٨٥

٢ - المرجع السابق ص ١٨٧

فما حاوله أبو عمرو استنكاراً ، وإلتما قال : إنَّ حميرَ لم يُفدِها هواءٌ
نجد .. وهذا يُحتملُ أن يكون جمعاً قديماً أُميتَ في دور التنقيح بلواوين ،
أو جمع قبلي متخلف ، أو هو فاعلة من خلف .. وكلّ هذا غير بعيد وإن كنا
نميلُ إلى أنه جمع قبلي ، ويؤكدُه ردُّ أبي عمرو ..
والخلاصة : قد تكون كثرةُ صيغ الجمع دليلاً على القدماء ، لأنَّ
معناه أنه لم يتنخلُ بمحاولة التنقيح ..

٤ - الوجه الرابع الموازين

وهذا وجهٌ كبيرُ الأهمية ، لأنَّ الوجوهَ السابقة ، تمثلُ فوضى الصورة
وعدم استقرارها .. أمّا هذا فيمثلُ وحدَه بقيةَ الفوضى المعنوية في اللغة ..
فلم تحدّدْ للصيغة دلالة على اطراد ، فتحملُ الكلمةُ معنيين أو معنىً مؤلفاً
بما تُفيده الصيغةُ والمادة التي منها الاشتقاق ..

على أنَّ العربيةَ مع كل ما نرى فيها من فوضى هذه الناحية ، لا ينكر
أنها أخذت في سيطرة الاشتقاق وغلبته بهذا النحو ، فاستقرت في موازين لم
تعدْ تُستعملُ إلاّ على وجه لا تتخلفُ عنه دلالة الهيئة ، كما في مفعّل
ومفعال ومفعلة للآلة وكما في فاعل ومفعول إلى كثير من مثلها ..

ولربّما كان هذا الأمر لا يعني العرب القدماء ، لأنه لم تكن بهم حاجةٌ
إليه من جهة عدم شمولهم بحركة علمية ، بيد أنه يعنينا كثيراً وكثيراً .. فإنَّ
بقاء الموازين على فوضاها لا يتناسب مع المفاهيم العلمية الدقيقة ، التي تضطّرنا
لأن نجعلَ دلالة لازمة للهيئة الميزانية .. ومن ثم لا يكون عناء الواضع كبيراً ،
كما ترسم للميزان ، أيضاً ، صورة عند السامع تكون على مقدار من المعنى ..
فعلى الواضع الجديد ، أن يتوفّرَ على تخصيص الموازين بما يقارب أن
يكون جامعاً لشتى المشتقات عليها ، وإلاّ ما لم يكن الوضع على هذا اللون

فلن يكون فيه غناء ، عدا عن التفاوت الذي يستغرق المقاييس ، وتبدو معه اللغة على تباينات وعدم تساوق ..

وليست معالجة هذه الناحية على طَرَف من السهولة ، بل على العكس صعبٌ جدّاً ، ومفيدٌ جدّاً ، وضروريٌّ أن لا تخلو منها لغةٌ توسّمُ بسمَةِ الرقيّ الوضعيِّ ، إذ هي أجلى ظاهرات الرقيّ العديدة .. وهذا التحديد الميزاني يجعلُ الوضع الاصطلاحيَّ خاضعاً لعملِ آلي ، يوفرُ غناءً الواضع وغناء المستعمل على السواء .. واللغة التي تكون على فوضى منه ، تبقى ضعيفةٌ عن تناول الأشياء ، وإذا تناولتها فلا تكون لها الصبغةُ اللغوية المحكّمة ..

وللأهمية البالغة التي لهذا الوجه ، وضعنا ، لأول مرةٍ في كتب الدراسات العربية ، خصوصيات ثابتةٍ للموازن .. وأفردنا لها باباً مستقلاً ، يحلُّ مشكلة الفوضى المعنوية في اللغة ، وأسميناه : « داء العربية ودواؤها » ..

الخلاصة : نخلص من استعراض وجوه التخلف اللغوي إلى ما بدأنا به ، فالعربية لم تزل على فوضى من الأفعال والمصادر والجموع والموازن .. ولن تستقرَّ على ما كان ما يريده العربي من لغته ، ولن تطمئن بين أشياء المستقبل الباقية ، إلاّ بإزالة ما ظلَّ متشبّثاً بها من علائق الفوضى ؛ بسبب ظروف العربي ومغادرة جزيرته أوّلاً ، وبسبب اللغويين وتشدّدهم في السماع وفي ما يكتمُّ اللغة ويمنعها من الانفتاح على الحياة العصرية والمستقبلية ، ثانياً .. لذلك نقدّم الأمر الثاني ، من شأن اللغة ، بصيغة تنقيحٍ جديدٍ يضمن لها الاستقرار والبقاء ..

الأمر الثاني : التنقيح الجديد أو الإنهاء الحقيقي للحلقة الخامسة :

تمهيد :

في الفصل الذي بنيناه على « أدوار اللغات ونشوء العربية » ، رأينا عمل التطور في العربية ، خلال الأدوار الثلاثة ، وقلنا في الحلقة الخامسة من الدور الثالث والأخير : إن العربية تجاوزت الحلقة الخامسة دون أن تنتهي ، ولكنها مع ذلك أخذت بالاستقرار شيئاً فشيئاً .. واستحدثت في سيرها ما تدعو إليه الحاجة من موازين ، دخلتها الزيادة الصرفية كافتعل واستفعل وما إليه . ولقد يكون الأخذ الجديد الذي تدلُّ عليه العربية ، من إقرار الموازين بدلالات ثابتة ، وإقرار الأفعال على باب واحد ، وكذلك المصادر والجموع .. قد يكون ذلك هو الإنهاء الحقيقي للحلقة الخامسة ، والوصول بالعربية إلى المستوى الذي كادت تباغته لو ظلت في محيطها بدون براح ..

والذي يضع العربية في موضع قلق ، وبصورة تكاد تجعل منها لغتين : لغة القرآن ، ولغة تبتدىء بالقرن العشرين ، تتفاوت كلتاها تفاوتاً يكون لا أقلَّ في أساليبه ومفرداته من اللاتينية والفرنسية ... هو موقف اللغويين التقليدي المتناقض ، وتهجمهم على العربية تهجئاً لا يميزه هذا الورع الذي يأخذون الناس به ... وأعني به جمع لغات الجزيرة ، وبعبارة أدق لهجات الجزيرة ، والمداخلة بينها مداخلة مطلقة بغير تمييز ولا تنبيه ، والاستنتاج منها مجتمعة قواعد اللغة ، في حين أنهم شهدوا ، بالاختلاف فيما بينها

بصورة مؤكدة ... وهذا الموقف التقليدي لم يبرح عتبته المحدثون ...
ونحن لم نقرّ هذا الاختلاف حسب معناهم به ، وانما أثبتنا أنه تطوّر فقط
بأخذ سنة ارتقائية ...

ولا نبعد عن الصواب إذا علّنا موقف اللغويين المتفاوت بأسباب أهمّها ،
عدم تفاهم لغويي البصرة والكوفة ... واتخاذ الخلاف بينهم صبغة تعصّية
صرفاً ، فتشدّدوا بمنطق السماع وعدم الحفظ أخذاً على مذهب الخصوم ...
وليس معناني أن السّماع كان من أوليته كذلك ، ولكن أريد أن أقول أن هذا
الاغراق الشديد فيه هو من جراء التعصّب القائم والتحامل البالغ ... وهذا
مأخذٌ شعروا به ، ولكنهم سمّوه تنقيحاً ...

وإليك ما يحكونه في هذا الصدد .. قالوا : ينتظم التنقيح للغة العربية
بأربعة أدوار (١) :

- ١ - كان يعمل يعرب بن قحطان ..
- ٢ - كان يعمل اسماعيل لما أصهر إلى جرحهم ..
- ٣ - كان يعمل قريش بالتدريج انتخاباً من لغات قبائل العرب التي كانت
تفد عليهم في كل عام ..
- ٤ - كان يعمل علماء المصرين ؛ البصرة والكوفة ، إذ قصرُوا اختيارهم
على لغة قريش وستّ قبائل من صميم العرب ، لم تحتك بغيرها .. الخ

الخلاصة :

في ظروف العربي التي أخرجته من جزيرته ، وفي مواقف اللغويين الذين

(١) راجع خطة حفي ناصف ص ٧٦ من مجموعة خطب نادي دار العلوم ..

خرجوا عما كان يقصدُ من لغته .. في هذين السببين يكمن مرضُ العربية الذي قصرَ بها عن مطالب العصر ، ناهيك عن مطالب المستقبل ..

ولا شفاء لها إلاّ بمعاودة درسها مرّة ثانية ، وتنقيحها تنقيحاً جديداً لا يخرج عليها في الأساس ، ولا يقصّرُ بها عن مطالب العصر وتطوّر المستقبل .. ولا بأس بتسمية ما نحاوله تنقيحاً خامساً ، وربّما كان تنقيحاً يكشف وحده ، حقيقة الماضي ، وينيرُ طريق المستقبل .. ومن ثمة غداً ضرورياً أن تلخصَ أهداف التنقيح الجديد ...

أهداف التنقيح الجديد ...

١ - حذف السّماع من اللغة إلاّ بالمعنى الذي سنقرّره في الباب الثاني ، من هذه المقدمة ... وبذلك نختصّ العربية من علائق الفوضى في أفعالها ونقرّها على باب واحد هو باب ضرب يضرب ، وفاقاً لما أوضحناه في الباب الأول .. كما نتناول القواعد على النحو الذي يجب أن تكون عليه جرياً مع معقول العربي في لغته ؛ إن في قواعد الإعلال ... أو في كلّ ما يتفرّع عن بحث الأفعال ، ثلاثية وغير ثلاثية ، من اشتقاق وغيره ... ومن حاصل هذا الهدف يتكوّن الباب الثاني ، معقول العرب ومستقبل العربية ..

٢ - السّماع بصوغ موازين الثلاثي من أي ثلاثي كان ، وكذلك موازين الرباعي .. لأن التزايد المستمرّ في اللغات السّامية يخضع لقانون الاشتقاق أي الموازين ، أو قلّ التحرك من الداخل .. كما قرّر علم اللغة المقارن ، وفصلناه في مقدمة المعجم ... ولأن العربية غنيّة في موازينها التي تبلغ الثلاثمائة للثلاثي الواحد ، كما أثبتّها سيبويه في كتابه النحوي الضخم ..

٣ - تخصيص هذه الموازين مفردةً أو مجموعة بدلالات قارة ثابتة ،

(١) راجع مقدمة المعجم ، قاعدة الأفعال

لا تختلف على اختلاف المواد ... ففعال : يُخَصَّص بما يدل على الزائدة الأجنبية :
auto .. وفعالية : يُخَصَّص بما يلاقي في الاجنبية : ism ... وبذلك
تسهلُ مهمة الوضع الجديد ويكون أكثر علمية ، كما رأينا في وجوه
التخلف .

٤ - توحيد المعاني في المادة الواحدة ... ونعني بهذا جعل كلِّ معاني
المشتقات من مادةٍ ما ، معاني لها ، سواء أكانت مجردة أو مزيدة ... مما يصحُّ
معه اشتقاق المجرّد من المزيد الذي جوزه الشاطبي وغيره ... وبذلك تكثر
الوحدات المادية للمادة الواحدة .

ومن حاصل هذه الأهداف الثلاثة يتكون الباب الثالث في كتابنا ، بعنوان :
داء العربية ودواؤها ... فقد بسطتُ فيه كافة الموازين بتفصيل وتعليل ...
وحققت أن دلالة الكلمة من اللغة ، على المعنى الحاصل في خيال المستعمل ،
دلالةٌ مقايسةٌ وموازنةٌ ، وبالتالي اللغة غاية لا وسيلة ...

٥ - الاستفادة من قاعدة الدوائر أو القاعدة الدائرية ؛ بوضع مواد جديدة
لم يسبق للعرب أنْتهم وضعوها ، أو وضعوها وأُميمت .

٦ - الاستفادة من سنة الرباعي وما إليه بزيادة الحرف على الآخر بعد
تحرير معاني الحروف الهجائية ...

٧ - المعاقبة أو الإبدال ...

وهذه الأهداف الثلاثة تقع في المرتبة الثانية من اعتبارنا ، رغم أهميتها
وخطورة نتائجها ، وقد بحثنا الهدفين الخامس والسادس في الباب الأول ، كما
رأيت ، وسنعود لذكرها مع الهدف السابع في الباب الثاني ...

ومن مجموع هذه الأهداف التي جاء بها تنقيحنا الجديد للعربية ، تتحقق
الحاجة الى مجمّع لإقرار السماع الذي ارتأيناه ، ووضع المعجم العربي بطريقة

تلبى متطلبات العصر ، وتمتد المستقبل بما يحتاج .. وعلى تفصيل هذه الحاجة المزدوجة ، وإيضاح الشكليات اللغوية ؛ من خط ، وإملاء ، وبيان ، ومعان ، وبديع ، ونحو ، وصرف ، وعروض ، وغير ذلك من اللواحق التي لا يؤثر عدم اعتمادها كالمجاز ، والتضمين ، والفك في محل الإدغام لدلالة ، والتصحيح مع موجب الإعلال لفرض .. على كل ذلك بنيتُ الباب الرابع ، بعنوان : المجمع والمعجم وشكليات اللغة .. وقد جعلتُ الشكليات في هذا الباب لتنسبَ رقعة الوضع أمام الواضع الجديد ، بحيث لا يصادفهُ عناء ملحف ، ولا مجالدة جهيدة ، ولا عنت مرهق ...



الباب الثاني

معقول العرب ومستقبل العربية

« ... وعلى رغم ما في البيئات العامة من ازورار عن التطور ، فقد ظهر تأليف عن فكرة ناضجة في التطور ، نفتتها لبنان ، وتبتتها مصر وفيها طُبعت ... »

ولم تتأثر بها هذه البيئات العامة ، ولم يبلسا فيها توجيه ...

ولكني مع ذلك أشير إلى النتائج التي رتبها السيد « العلابي » ، على ما قال : إنه معقول العربي ووجهته في السير بلغته ... والتي يرى أن نتابع نحن اليوم تحقيقها ؛ لنصل بالعربية إلى الاستقرار ، والاستكمال ، والتخلص من ظواهر الفوضى والاضطراب في مادتها وصورتها ...

وبمعرفة هذا المعقول العربي نستطيع ردّ الحياة النامية الى العربية ، وبسط رقعة الوضع أمام الواضع اليوم ؛ فتستبدل العربية بضمورها نماء ، وزيادة داخلية ذاتية .. من كيانها ومادتها ، لا بتعريب من كلمات غيرها ، ولا بنحت مُصطنع من كلماتها ... وانها لغايات نستمع في سبيلها قول كل قائل ..

أمين الخولي

« مشكلات حياتنا اللغوية »

مقدمة الباب الثاني

انتهينا في خاتمة الباب الأول ، إلى التفصيل بأهداف التنقيح الجديد للغة العرب ، الذي اقترحه صاحب « المقدمة » ، آخذاً بسبيل لا يخرجُ على العربية في أساسها . ورأينا أولَ ما يُقررُ حذفَ السَّماع من اللغة ، إلّا على الوجه الذي بسطه في « القسم الثالث من المقدمة » .. وما نسميه هنا « باباً ثانياً » .. وقد وصفه بالتصدير قائلاً :

« وجاء القسم الثالث ، فتناولنا فيه القواعد على النحو الذي يجب أن تكون عليه . فكان فيه نقد لما تعارفنا من قواعد الإعلال حين فرضناه باعتبار آخر . وما إليه من إقرار الأفعال على باب من الأبواب . وستجد أنا عانينا كثيراً في التقدير والافتراض ، حتى انتهينا إلى أصحِّه في أسلوب النقد والتعليل .. »

وهنا تجلر الإشارة إلى معاناته في التقدير والافتراض ، وتنصته إلى معقول العربي في لغته ، ليخلص العربية من علائق الفوضى والقلق في أفعالها وقواعدها وسائر فنونها ... وحتى يظهر كتابه « دراسات على فنون العربية » حيث سبكه بأسلوب قاعدي تعليمي .. نكتفي بتقديم هذا الباب « معقول العرب ومستقبل العربية » ...

لأنَّ هذا الباب نتيجة من نتائج الفهم التطوري للغة العرب ، وتوجيه قومٍ لمستقبلها ، إذا كان أصحابها يريدون لها حياةً وازدهاراً ... فمعقول العربي الصحيح غيرُ الأوهام الحاسطة التي تواضع عليها سالفو اللغويين ،

وصيرها التاريخ عقائد لا يجرؤ على مسّها المحدثون ...

والمهم ، أنّ هذا الباب يَعرض ما فيه حقيقة النية اللغوية في الماضي ، وإرادة حياتها في المستقبل ، من خلال فصوله الثلاثة :

الأول : السماع وأحوال الثلاثي ، وما يتفرعُ عن ذلك من قواعد ...

الثاني : الرباعي والخماسي والسداسي ، وما يتصلُ بها من نحتٍ ومعاقبة ..

الثالث : ظواهر العربية المختلفة ، كالتعدي والززوم ، والاعراب والتعريب

...الخ

وبذلك يأخذ بيد طلاب العربية إلى إدراك الفقه اللغوي ، والتقعيد العربيّ ، من خلال خصائص اللغة .. إن في الاشتقاق بأنواعه ، الكبير وقد سبق تناوله في الباب الأول ، الأكبر وهو المعاقبة ، الكبّار وهو النحت ... وإن في الظواهر الأخرى ..

الفصل الاول

السماع وأحوال الثلاثي

السماع او ليس في كلام العرب

روي أن سائلاً سأل أبا عمرو بن العلاء ، عن ما لو سمع من العرب شيء مخالف لعلمه فقال له (اسمي ما وافقني قياساً وما خالفني لغات) .

هذه عبارة على اقتضاها حتى نجيء في كلمات ، وعلى اختصارها حتى تقع في حروف ، تشرح غامض الموضوع ، ككتاب واسع المادة . وأظنها ظاهرة بنفسها حتى لا تحتاج الى تعليق . ولكن ما نحن في حاجة إلى فهمه ، هو السبب الذي حدا بأبي عمرو ومدرسته ، إلى أخذ العربية بهذا النوع من التقييد ، والضرب من التحكم . ولعل السبب قد أتى مشروحاً بالكلمة نفسها أو هي تشرحه بالفعل ، وتدلل عليه بصراحة باللغة لا خفاء فيها ولا غموض ، وهو لا شيء أكثر من أن السماع أقرب سبيل الى ضبط العربية ، حين يخفى ما يمكن أن يكون علة جامعة .

وهذا الأخذ طبعي في أول الأمر بالدرس ، ثم يتشكل على وجه آخر . ولكن المدرسة اللغوية انتهت بما ابتدأت به ، من أصول لم تجاوز رسومها إلا على وجه الندرة . وقامت أسباب عززت بعض هذه الأصول ، حتى عادت من العربية كما تكون العربية من نفسها . ومن هذا القبيل ، السماع فقد اعتمد من

أجل سبب ساذج بسيط ، لا يعدو كونه أخصر طريق الى الحصر ، ثم اشتد الغويون في اعتماده الى حد كبير ، أخذ عليهم الطريق الحقيقي للدرس العربية على وجه صحيح .

فكان ما اتخذه الأول وسيلة إلى الضبط في فاتحة الدرس ، علة القوضى في خاتمته . والأسباب التي توفرت عند متأخري اللغويين للتمسك بالسماع نجيء في أمور .

(١) أنه أقرب طريق للحصر والشرح .

(٢) تشبعهم بنظرية التوقيف في اللغات .

(٣) الخوف على سلامة اللغة أي إحاطتها من أن تعبت بها الاهواء وتغشاها فوضى تبعد بها عن صيغتها الأولى .

(٤) خلة البيان القرآني في اعتقادهم . فأنهم ذهبوا مع الظن بأن اطلاق القياس في العربية يبعد بها عن لغة القرآن .

(٥) الانانية العلمية أو الارستقراطية العلمية فان أهل الاختصاص من اللغويين اذا تسامحوا بالقياس لم يعد لهم المقام السامي الذي يتمتعون به مما جعلهم يتشددون بالسماع إذ كان السبب الوحيد الذي يحفظ لهم هذه الرعاية المهددة إذا أباحوا للناس القياس .

هذه في نظري الأسباب الهامة التي جعلت اللغويين يلحون في الاعتداد بالسماع إلى حد منكر ومنتهى مجوج . وما أخذوا فيه بالاعتدال كما أخذ الأولون منهم ، بل أفرطوا في تحكيمه حتى انتهى بتقييد العربية على الوجه الذي نشكو منه ونألم له . وأدى بالعربية إلى الجحود والتحجر والالتواء المطلق .

والعجب أن يكون السماع الذي اتخذ سياجاً للعربية من أن يعبت بها مهتد إلى الصمت بالكذب والاختلاق ، فان أكبر ما حمل اللغوي على الاختلاق

هو السماع ، ضرورة ما كان من عدم الاطمئنان إلا إلى الشاهد والنص والرواية . فكان إذا وضح له شيء من أسرار العربية يجد نفسه مضطراً ليشق الناس بما انتهى إليه ، وليسمع عنه ما يقول ، ان يدّرع بشاهد أو بشواهد وربما بقصيدة أو بقصائد .

هذا شيء نعرف من نواته كثير أبحث أجديني في غنية عن ايراد أمثلة مما حفظت كتب الأدب والتراجم . والذي يلفت حقيقة من أمر هذه الشواهد انها لا تحفظ في الغالب الكثير إلا شطراً أو شطرين ، ولو طلبت للشر آخر وليت مثلاً لأعيالك الطلب كأن الشر لُقطة الطريق والبيت بيضة العقر .

ولكن ما لا شك فيه ان إباحة القياس للعفو ، قد يحمل على الاختلاف الكبير في الوضع والاصطلاح ومذهب البيان وما إلى ذلك . مما يضطر معه إلى ابقاء عمل السماع في المحيط اللغوي ولكن على معنى آخر غير معناه . فلسنا نعني به الورود عن العرب ، وانما نعني به الإباحة للواضع فقط (كالعرف الشامل أو المجامع) فمثلاً قلب الماء زايأ كما في زمك وهمك ، لا يجوز أن يترك للمستعمل يجري فيه على هواه دون تواضع أو اصطلاح ، وكذلك فيما بقي من القوانين النادرة .

وهنا نأتي على معنى القياس عندنا أيضاً . ونعني به وقوف المستعمل عند وضع الواضع والتصرف بالمادة على وفق القانون المخول في الاشتقاق والتصريف . والواضع هو (العرف الشامل والمجامع والعالم) بعد تصحيح الوضع على مقتضى الاستعداد الحرفي وقواعد الاشتقاق . وعليه فمفهومهما في أخصر عبارة .

السماع : الإباحة للواضع ، على قانون العربية في أشياءها النادرة .

القياس : الإباحة للمستعمل ، على قانون التصريف والاشتقاق .

وما وراء ذلك من القياس والسماع عبث مطلق وتلاعب حقيقي . ولما لم يكن للسمع مفهوم صحيح له اعتباره ، اختلف العلماء على اللوام في تطبيقه . فما يراه بعضهم سماعاً محجوراً ، يراه البعض الآخر قياساً سائغاً . وهذا شيء عام في المفردات والضوابط ، وأقرب مثل أسوقه كلمة (اقتطف) التي ردها كثير من اللغويين بدعوى عدم السماع والحفظ ، بينما قبلها آخرون واستشهد بأنها وقعت عند الأعشى وجريير . فان السماع مبني على الحفظ وما لم يحفظ أكثر مما حفظ كما قال أبو عمرو بن العلاء : مما يكون سائغاً معه أن نقبل ما يؤيده القياس وكفى . على ان اعتماد السماع المشدد جعل اللغويين يتمحلون لكلم يصححونها كما فعل الشهاب في شرح درة الغواص ، مما كان تلاعباً محضاً وعبثاً منكراً مهتد إليه سماع دعوى السماع .

الثلاثي

سبق منا القول بأن الثلاثي وحدة كلم العربية ، وعليه استقرت في الثروة البالغة عظماً واتساعاً .

وعلى ملاحظة الثلاثي بنى اللغويون أبحاثهم في المعاجم والقواميس رغم اختلاف الاصطلاح ، وما كانوا يترددون في هذا النظر ، ومن ثم قال (١) الميداني (والاسم المتمكن لا يكون على أقل من ثلاثة أحرف ، حرف يبدأ به ، وحرف يوقف عليه ، وحرف يفرق به بين الابتداء والوقف) ولتشبههم بهذا الرأي ردوا كل مزيد إلى ثلاثيين ، وتكلفوا في ذلك عرق القرية كما يقولون ، وبالغوا في هذا التكلف حتى ألفوا شأنه ، وظنوه مقياساً لغوياً لا اختلاف عليه أو ليس مما قد يختلف فيه . وعليه وحده بنى ابن فارس الكلام في كتابه

(١) فراجع نزعة الطرف في علم الصرف ص (٧) ط . الجوانب

(مقاييس اللغة) وأكده أيضاً في كتابه (الصاحبي) ونوه بهذا الصنيع فقال (١)
(قول العرب للرجل الشديد (ضبط) من (ضبط وضبر) و (صهصلق)
من (صهل وصلق) وفي (صلدم) من (صلد وصددم) الخ .

وكيفما كانت النتائج المركبة التي انبنت على اعتبار الثلاثي . فلا شك في أنهم على حق من هذا الاعتبار المذكور . فنحن إذن على وفاق معهم في أمر الثلاثي ، بل نشفع رأيهم بتأكيد لا تردد فيه ، على ما في هذا من بداهة لا تستدعي خلافاً أو منازعة . ولربما انحصر خلافاً معهم في وجهين :

(١) كيف نشأ الثلاثي

(٢) ليست كل مادة من الثلاثي وحدة على حدة ، بل هي طرف من وحدة يستوي في دائرة الثلاثي .

عند هذين الوجهين يكون اختلافنا واللغويين القدماء ، وليس هذا بالأمر الذي لا يؤبه له من حيث ترتب النتائج ، بل له شأنه وسيظهر لك كيف هو جدير بالبحث المشيع وحرري بالدرس المستفيض .

وينبغي أن نتكلم هنا في بحث القواعد بتحر وأناة بالغين ، وأن لا نرسل الكلام إرسالاً يأتي معه ضعيفاً ، شأن كل مرسل على عواهنه .

أما الأول : وهو وجه كيف نشأ الثلاثي ، فحديثنا عنه الآن ليس على معنى ان الجماعة الأولى في شعبة الدرس اللغوي ، وقفت عند الثلاثي على تقدير انفصاله عن عهد ثنائي لون العربية بلون يشبه أن يكون طابعاً عاماً ، كلا فقد قلنا بأن الجماعة اللغوية لم تكن ملاحظتها نشوئية ، وإنما اتخذت اعتماد الثنائي وملاحظته لخدمة الضبط والحصص ، ولتحقيق الاشتقاق فقط .

(١) راجع الصاحبي ص (٢٢٧)

وكيفما كان الأمر ، فحديثنا الآن عن تأكيد أن الثلاثي نشأ عن الثنائي ، وان كثرة من الثلاثيات احتفظت بها العربية بعد تصحيح الصوت حرفاً ، وهذه الثنائيات التي نظنها هي المجلات نفسها . فيجب إذن ، أن نتخذها عمدتنا في الدرس لفهم الثلاثي على وجهه ، لأنها الأصل الذي انفصل عنه ، ولم يكن عمل التصحيح إلا ضرباً من إقرار اللغة على صورة واحدة من الثلاثية ، فالواوي منها ينظر إلى الضمة المملودة ، واليائي إلى الكسرة كذلك . ومن ثم يتأيد ما ذهبنا إليه ، من ان هذه الحركات تراد (١) لمعان بعينها في العهد الصوتي ، ثم تصححت كل حركة بحرف من جنسها بعد أن اتخذت العربية وحدتها في الثلاثي .

وعليه فهذه المجلات ثنائيات مصححة ، وهنا يلزمنا أن نتكلم عن ضروب التصحيح التي لجأ إليها العربي وهي عندنا تقع في أمور .

(١) جعل الصوت حرفاً . وهذا السبب هو الذي أدى الى الاحتفاظ بالمجلات رغم أنها ثنائية .

(٢) التضعيف . والمثل عليه (بصا) نقل الى (بصّ) بخطف الحركة

(١) ولا يكون غامضاً بعد هذا وجه اختلاف المعنى مع عدم اختلاف المادة الا بالواوية واليائية فقط كما في (دحوة ودحية) لان اختلاف حرف الصوت يغير في المعنى ومن ثم نجد الأنماط تختلف معانيها باختلاف الابواب لأنه ينظر إلى هذا الملحظ فكان العربي إذا أراد تأليف الكلمة عمد إلى حرف ما على صوت بعينه ليدل على معناه فاذا غير الصوت تغير المعنى على مقدار من خصوصية الصوت . وبالأخص إذا علمت أن الثلاثي في العربية جملة مؤلفة من ثلاث كلمات في طبع القديم وبارتقاه اللغة تناسوا اختلاف الدلالة باختلاف الصوت واستقرت هذه الألفاظ في معانيها على أشكالها من الاختلاف الأثري . وهذا هو السرفي تعدد أبواب الثلاثي ولقد اعترضني باحث لغوي بالانمال التي حفظ ضبطها في المعاجم من بابين كنيع وقد في غير اختلاف معنوي وكان ان أجبت بأن عدم حفظ الخصوصية لا ينفيها ولقد يمكن تحليل عدم الخصوصية بتناسي العرب لها أو بخفائها على الرواة ولقد ثبت ان الرواة اعتمدوا في تمييز المعاني على المفهوم من الشر أو الثرو ومن ثم جاءت كلمات كثيرة غير محررة .

وتضعيف الحرف والأخذ بهذا النحو يرجع الى عهد ارقى من الأول في اللفظية ،
فإن الأول تصحيح بالتحويل وهذا تصحيح بالحذف .

(٣) لإبدال الهمز به . كما في (يشّ) نقل الى (أشّ) .

هذه هي الوسائل التي نظن ان العربي تذرّع بها لتصحيح الصوتي ، وهي
تختلف في مقدار أثرها على اللغة ، ولكن وان اختلفت شيوعاً واختصاصاً
فقد كان لجميعها تأثير واضح . ونستطيع أن نقول من بعد هذا ، ان مطلق
الثلاثي نشأ عن الثنائي على هذه الصورة التي عليها المجلات بزيادة حرف من
الهجاء قد سبق لنا بيان أن محله (١) الوسط ، ولكن لم نخض هناك في مقابلات

(١) لا أنكر أن الاخذ الاحتمالي في أن يكون المزيد على الثنائي . الفاء أو العين أو اللام
الذي قرره دارسو اللغة من قبل . قد يبدو على بعض الكلمات ضرورياً حين لا يظهر تمام المعنى الجامع
في الحشو ولكن مع ذلك لا أرى في هذا ما يهدم اعتبار النظرية كشيء يشمل اللغة في أكبر عدد من
المواد المحفوظة وهذا وحده كاف في التحويل على نظرية زيادة الحشوفان النظريات المعروفة في صدر
التاريخ وما اليه ترتكز على المشاهدات الأكثر انتشاراً . هذا من وجه ومن وجه آخر يبدو ما انتهى
اليه الجماعة لا يجاوز أن يكون احتماليا لا يصح ان يكون نتيجة درس تعتمد . على أن ما يجب التنبيه
اليه هو ان المداليل المعجمية المحفوظة ليست هي المعاني الحقيقية أحياناً بل تأصلت بعد نقل او تجوز
وليست هي كل المعاني فما ضاع أكثر مما حفظ ومن وراء كل هذا يباح في نزعة العلم ان نمتد نظرية
الزيادة حشوا بدون تردد في دراستنا التاريخية . وطريقة تطبيق النظرية أن نتناول المادة بعد تجريد
حرف الوسط و نتناول معها المجلات التي وقع فيها هذان الحرفان على ترتيبهما فاذا أردنا ان ندرس
(شح) وجب لنحقق معناها تماماً ان نأخذ معها (شحي شوح وشح) لأن هذه المجلات جميعها
ثنائية صوتية صححت بجعل الحركة حرفا والحركة تراوحت بين أن تكون عند الاول والوسط والآخر
فنشأ بعد التصحيح المثال والأجوف والناقص وكما سبق ونبهنا ان هذه الحركات معانياً في العريضة
الساذجة فلا عجب اذا وجدنا هذا التباعد المعنوي بين المثال والاجوف والناقص مع كونها من ثنائي
حرفي واحد ويترتب على هذا انها اذا أخذت بالتضعيف ينشأ عنها جميعها ثنائي واحد وهو (شح)
ومن ثم تتنظم له جريدة من المعاني المتخالفة وهذا الرد الى الملل هو الذي يضمن لنا توزيع المعاني الى
البلور الاولى على وجه حقيقي وقد بقي شيء آخر يحذر التنبيه عليه وهو أن تعيين المعنى الاصل أو
الجامع المعنوي فيه عسر غير قليل ولكن بين أيدينا ظاهرة قد تعين بعض الشيء وهي ثبوت المعنى الواحد
في التطورات الجذر الثنائي الواحد وهي الملل مثل (وشح شوح شحي شح) والمهموز مثل (أشح
شأح شحاً) والمضغف الثنائي مثل (شح) والثنائي المكرر مثل (شحشح) فانها قميّة بان تكشف =

على الظن المذكور، نظراً الى أن مهمتنا اذ ذاك التاريخ فحسب . ولناخذ في سرد أمثلة ومقابلتها ، حتى نخرج منها بترجيح لأحد وجهي التقدير ، وان كنا نقرر أن تقديرهم قد يتبادر لأول وهلة وهو علامة الحقيقة ، ولكن لا يستقيم الى النهاية بل يتخلف كثيراً . والسر في هذه الظاهرة هو ما قدمنا من أنه راجع الى دلالة الحروف المجتمعة ، فان لها دلالة مقارنة ومتقاهمة . ومن ثم اشبه الاولون ولكن العلامة الفارقة دائماً في تحرير التقديرات ترجع الى ما يتم عليها المعنى . وسيظهر هذا في عرض الأمثلة ومقارنتها .

(عبل) قال أصحاب المعاجم في معناها (الضخم من كل شيء) وكأنه وحدة المعاني في المادة فعلى منهج الأولين ترد الى (عب) زيدت عليه اللام ، وعلى منهجنا ترد الى (عل) زيدت عليه الباء ، والوجه في ترجيح ما نذهب اليه ، أن (عل) من مشتقاتها ما يدل هذه الدلالة ، قالوا (العل) ذكر المعزى الضخم العظيم وأيضاً القراد الضخم . وفيه نجد تمام معنى (عبل) بينما أخص ما استعملت فيه (عب) يدل على تدافع السائل فقيل بجر عباب وهكذا . وأنت تجد في وجه الملاحظة بقطع النظر عن الاستعمال في السائل ، التدافع لا التضخم كما هو ظاهر .

وخذه في الزيادات . فعند الاولين (عبث وعبث الخ) مما لا يظهر فيها جامع إلا على تحمل بينما تجد فيما ترجع اليه (عبث) على رأينا . وحدة معناها بلون فند وهو (عث) ومن مشتقاتها (العثا) الرنم في الغناء و (العثة) المرأة البذيئة .

= من المعنى الاصل . هذا ما بدالي حقيقياً وأظن كذلك لا شك فيه ولكنه يحتاج الى الاناة بالدرس والى عدم التطلع بالانتكار والتفنيد والتروي بالمقابلة . فان المسألة القنوية تستند على ما بين أيدينا من (تقليدات لغوية) تشبه كثيراً التقليد للورخ والحفري وتبعد أشد البعد عن المحاكاة العقلية المحض . فهي تعتمد المقارنة بين المواد ومعانيها وادراك وجه التعاشق فيها .

والزيادات عندنا (عتل وعثل الخ) وانظر كيف تجدد بينها جامعاً معنوياً ظاهراً قالوا (العتلة) الهرواة الغليظة والعصا الضخمة من حديد وقالوا (العثل) الغليظ الضخم الى غير ذلك مما يظهر بالتبع ويتضح بالاستقراء آخذاً هذه الطريقة .

فنحن نحالفهم في هذا ونلحف في المخالفة ، وأرانا على حق في هذا الخلاف أو هو كل الحق والصدق ، وكيفما كان فانه لا يعيننا في العمل اللغوي أبداً ، لأن العربية لم تعد على شيء سوى الثلاثي ، وانما هو يمت إلى التاريخ اللغوي في التأصيل والتفريع على المواد المحفوظة .

وأما الثاني من وجه خلافنا مع الأقدمين . فهو في أن وحدة الثلاثي المقاليب الستة ، وليست وحدته المادة الواحدة . وهذا ما نسميه (بالقلب) ويسمونه بالاشتقاق الكبير وأما القلب عندهم ، فيعنون به غير هذا . يعنون به (الترادف في صورة القلب) كجذب وجذب ويأس وأيس فكلها بمعنى واحد . وهم يرجعون سببه إلى تراحم حروف الكلمة على اللسان وتسابقها . وعلة ابو عبيد البكري بسبب ذهني ، ومن هنا فرقوا بينه وبين ما مرجع الترادف فيه الى اختلاف اللغات كما نبه عليه ابن سيده في مقدمة المخصص وناقشهم في جذب وجذب بأنهما من القلب لأنهما عنده لغتان .

ومن ثم لا يكون للقلب عندهم عمل في تكثير اللغة إلا في كلمات الترادف فقط على أنه كشيء غير مقصود أيضاً . ومن هذا نعرف أن صاحب الفلسفة اللغوية لم يتحرر عنده معنى القلب في اصطلاح الاقدمين إذ لم يفرق بين القلب واللغة قال (١) (القلب عبارة عن تقديم وتأخير أحد الحروف من اللفظ الواحد مع حفظ معناه أو تغيير طفيف وهو أقل وروداً من الابدال) فبإثره تشعر بقصدته وأنه يكون لتغيير في المعنى وليس بصحيح ، ولا بأس من تحرير

(١) راجع الفلسفة اللغوية ص (٢٠) .

مفهوم هذا الاصطلاح والاختلاف في وقوعه .

ذهب الكوفيون إلى وقوعه في الأفعال وسواها كبكل ولبك وطامس وطاسم ورده البصريون في الأفعال والمصادر ورأوه لغة ، وأثبتوه في مشتقات المعاني كما في جرف هار وهائر . ومن هذين المذهبين نشأ مذهب آخر استدلائي وهو ما حكاه السخاوي في شرح المفصل بقوله (إذا قلبوا لم يجعلوا للفرع مصدرأ لثلا يلتبس بالأصل ويقصر على مصدر الأصل ليكون شاهداً للاتصال نحو يش بأساً وأيس مقلوب منه ولا مصدر له فاذا وجد المصدران حكم النحاة بأن كل واحد من الفعلين أصل وليس بمقلوب نحو جبد وجذب وأهل اللغة يقولون ان ذلك كله مقلوب (١)] .

وعبارة السخاوي تفيد أن الخلاف بين الكوفيين والبصريين اشتهر بمذهب أهل اللغة وبأن المذهب الثالث اشتهر بمذهب النحاة وهو ارتاء متأخر .

والقلب بهذا المعنى نسميه (بالقلب اللفظي) وهو غير واقع عندنا في اللهجة الواحدة إلا على قلة لا يمكن تحديدها وأكثر منه بين اللهجات . وأمة هو فليس له عمل أبداً في النمو اللغوي والتزيد الكلمي ، وهذه الكثرة التي يسوقونها ترجع في رأينا إلى ما قبل عهد الاستقرار ، وتنظر إلى عهود كانت فيها كاملة الحياة ، ثم تناقصها المد الزمني حتى لم تبق منها إلا بقايا داخل الرواة في بعض منها لعدم التمييز ، وداخل العرب في البعض الآخر اكتفاء بدلالة المادة العتيقة . فمثلاً وجود (يأس وأيس) يدل على أن أيس أثرية اميتت مشتقاتها لأنه لم يدخلها عمل الاعلال .

وبالجملة فنحن نوافق ابن السكيت في دعوى ابطال القلب بهذا المعنى إلا في قلة ترجع الى لهجات القبائل واختلافها ويمكن تحديدها . وهذا القلب اللفظي بديهي أنه غير القلب الذي نعنيه لأن ما نقصده هو ما يلاقي الاشتقاق الكبير في

(١) راجع المزهج ١ ص ٢٨٥ .

عبارات الاولين ولثأت بين يدي الموضوع بفذلكة تاريخية عن انقداح هذه الفكرة عند علماء الاشتقاق القدامى .

تاريخ فكرة الاشتقاق الكبير

يمكننا أن نؤرخ فكرة الاشتقاق التحقيقي (بالخليل بن احمد) وهو بهذا رأس طبقة كان يتوسع عملها بين حين وآخر منفعلاً بالعقلية التي تخدمه ولون الثقافة السائدة. ولا شك في أن للثقافة العامة أثرها من حيث توجيه مختلف البحوث ولقد ظهر هذا في بحث اللغة... فنسقه عند الطبقة التي يجيء على رأسها (ابو علي الفارسي) وتلميذه، له طابع فلسفي من الطابع السائد لذلك العصر . ومهما يكن من آثار من تعاقبوا في طبقة الخليل لم يجاوزوا خطته واعلامه ، بل نقول انهم لم يتحققوها كما يجب وأيضاً نقول في غير مبالغة ، لم يكن عمل الطبقة الثانية إلا شرحاً لما بدأه الخليل ، فهو أول من تبين الوحدة بين المقاليل وتناولها بالدرس ، وزاد بأن أراد حصر ما في العربية من الثلاثي على ضوءها بعد تحقق أن للكلمة الثلاثية ستة مقاليل فيها المهمل والمستعمل . ومن ثم كان عمله خطيراً جداً ولا يفهم من هذا أنه قصد الاستفادة من المهملات بعد عمل نظامي عليها ، وانما كان جهده فيها عملاً تحقيقياً فقط . ولقد استفاد بشرح فكرته (محبّرة النديم) في كتابه (١) جامع النطق الذي شرحه الزجاج .

ولا نتوسع بذكر عمل هذه الطبقة ، لأن بحثهم وان اتجه هذا الاتجاه غير انه بقي محافظاً جداً ومنطبعاً بالرواية ، ولكن لا ينكر ان انتاج هذه الطبقة في الاشتقاق الصغير كان بالغاً جداً وقوياً أيضاً ، وهو يعادل انتاج الطبقة الثانية في الاشتقاق الكبير التي يجيء على رأسها الفارسي وتلميذه ابن جني وان كان تلميذه هو وحده صاحب الثروة الطائلة والنتاج الواسع الذي ننسبه إلى

(١) راجع معجم ياقوت ج ١ ص ١٤٩ .

طبقة . ومع ان ابن جني اعتمد هذا الاشتقاق وبالع في اعتماده لم يكن على اقتناع من ان عمل العربي كان آخذاً هذه الصورة قال (١) السيوطي (وهذا مما ابتدعه الامام ابو الفتح وكان شيخه الفارسي يأنس به يسيراً وليس معتمداً في اللغة ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب) .

والطبقة الثالثة تبدأ بالعلامة الحاتمي وتلميذه السكاكي ولا نغفل فيها ذكر ابن الأثير صاحب المثل السائر ، فهؤلاء حققوا النظرية بصورة أكثر عملية . على أننا لا نعرف للحاتمي أثراً باشره بالتأليف في هذا الموضوع سوى ما نقله عنه تلميذه السكاكي في المفتاح . وحم علينا أن نذكر عبارة السكاكي وابن الاثير ليتضح لنا مقدار تطور التعليم عند رجال الطبقة الثالثة . قال (٢) السكاكي في المفتاح (وان تجاوزت إلى ما احتملته من معنى أعم من ذلك كيفما انتظمت ، مثل الصور الست للحروف الثلاثية المختلفة من حيث النظم . والأربع والعشرين للأربعة . والمائة والعشرين للخمسة سمي الاشتقاق الكبير) وتأمل جيداً قوله والاربع والعشرين للأربعة تقف على أن تعليمه لم يكن أكثر من تصور عقلي يعوزه التطبيق والاستقراء ، ومع اني أذهب في احترام الحاتمي مذهباً بعيداً يجعله الثالث بعد الخليل وابن جني ، أعتبر هذه النظرية مجازفة منه ومن تلميذه ذي المجاذفات الجمة في بحث الفنون الادبية ، حتى قصد في حين أن يصطنع لمنطق بمصطلحاته في محيط الأدب مما أدى الى مسخ حقيقي فيه ، ومع ذلك كان صاحب عبقرية نادرة .

ثم يزيدنا هذا التلميذ المخلص ، أن شيخه الحاتمي أحكم قانوناً في الدرس اللغوي سماه بالاشتقاق الأكبر وسيظهر لك من عبارة السكاكي أنه إغراق في الاستنباط والتحمل . قال (٣) (وها هنا نوع ثالث من الاشتقاق كان يسميه

(١) راجع الزهرج ١ ص ٢٠١

(٢) راجع المفتاح ص (٧)

(٣) راجع المفتاح ص (٧)

شيخنا الحاتمي رحمه الله الاشتقاق الأكبر وهو أن يتجاوز الى ما احتملته اخوات تلك الطائفة من الحروف نوعاً أو مخرجاً ، وقد عرفت الأنواع والمخارج على ما نبهناك وأنه نوع لم أر أحداً من سحرة هذا الفن وقليل ما هم حام حوله على وجهه إلا هو) ومثاله بأن تنتقل بالحروف إلى ما يجانسها في (قط) مثلاً التي تنوع إلى (قطب وقطف وقطع وقطل) وكلها تتضمن معنى القطع .

ويجانس (قط - قص) ومنها (قصم وقصل وقصف وقصر وقصا) وهي تفيد معنى القطع في جميعها .

ويجانس (قص - قض) ومنها (قض وقاض وقضم وقضب وقضع)

ويجانس (قص - كس) ومنها (كس وكسر وكسع وكسم)

ويجانس (قص - جذ) ومنها (جذ وجذب وجذف وجذم)

ويجانس (جذ - جز) ومنها (جز وجزأ وجزر وجزع وجزح وجزم) وجميعها تتفاهم في القطع .

وهذا كما ترى شيء يعتمد الحدس فقط ونظن بأن قانون الاشتقاق الأكبر سرى عند الحاتمي من المشجرات اللغوية التي أفردتها اللغويون بالتأليف ، ومن قارن بينها ظهر له مقدار التقارب غاية ما في الأمر ان تلك مشجرات كلمية وهذه مشجرات حرفية . ومع ان قاعدة الاشتقاق الكبير بلغت عند الحاتمي كما ترى بقيت قاصرة جداً ، ولم تخدم إلا خدمة بيانية فقط وكان الحاتمي قصد الى هذه الغاية البلاغية خاصة .

وفي هذه الطبقة ينفرد ابن الاثير بملحظ دقيق ولكن لا أدري أوقع له عفواً ، وهو ما يظهر ، أم قصد اليه قصداً . بناء على تصوره ان العربي جنح الى الوضع على هذا الترتيب مراعيًا المشابهة بقاء الكلمة . قال (١) (وأما الاشتقاق

(١) راجع المثل السائر ص (٢٩٤)

الكبير فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول فتعقد عليه وعلى تراكيبه معنى واحداً يجمع تلك التراكيب وما تصرف منها وان تباعد شيء من ذلك عنها رد بلطف الصنعة والتأويل إليها ، ولنضرب لذلك مثلاً فنقول (ان لفظة (قمر) من الثلاثي لها ستة تراكيب وهي : (قمر - قرم - رمق - رقم - مقر - مرق) فهذه التراكيب الستة يجمعها معنى واحد وهو القوة والشدة) والملاحظ الذي أقول بأن ابن الأثير انفرد به على جميع باحثي الاشتقاق الكبير ، هو هذا الترتيب باعتبار الفاء . مما كأنه يرمي الى غاية نشوئية حاصلها انا لو فرضنا مادة كذا أصلاً ، فالمادة التي يكون لها فاؤها عقت بها اشتقاقاً كما ترى في صنيعة (قمر قرم) وان كنا نستبعده لأنه لم يشر اليه أصلاً .

وبعد ابن الأثير لا اظن أحداً عرض للقلب بعمل مشعر ، وانما كان كل عمل الادباء بعد ذلك نحوياً ومعجماً فقط .

وبالجملة لم تكن هذه النظرية أكثر من وسيلة يستر وحوون اليها ويتعللون بها ، كما قال (محمد صديق حسن خان) في رسالته (العلم الخفاق) ولهذا السبب ظلت أبحاثهم فيها مضطربة فلم تقم على أساس فقهى ، وقولنا بأنها غير فقهية لا يطعن في عملهم أو يقلل من قيمته ، وانما هي السنة الفكرية الدائمة في كشف الغوامض تبدأ غامضة ولكن مع ذلك فيها عناصر الحل الأخير .

القلب أو قاعدة الدوائر

هنا نريد ان نتكلم على القلب وقواعده في نتائج بحثنا ، غير متأثرين أحداً ولا ملزمين به ، وانما كشيء نراه الكفيل فحسب بمنجاة العربية في مستقبلها البعيد . وقد نكون على خطأ في تقدير أنه خطة العربي القديم في الوضع ، وقد نكون على صواب والاصابة غير بعيدة عنه . وسيان لدينا أكان هذا القانون في طبع العربي أم لا ، ما دام يسد عوزنا وفيه البلاغ ، وينزل من طبعنا منزلة

ما لم يكن العربي ينبو عنه أو ينكر أمره .

نبهنا فيما سبق على أن القلب في عرفنا يستوي مع الاشتقاق الكبير في عرف أئمة اللغة . وقدّمنا أيضاً أن الزيادة في الثلاثي تكون في محل (العين) ولم نفرّد من هذا الرأي إلا بطرده في كل ثلاثي . ونقدّم بين يدي الموضوع التنبيه على أن عمل القلب خاص في محيط الثلاثي لا يتجاوز إلى غيره مما ظنه العلامة الحاتمي وقدره تقديرأمرسلاً لا يعتمد شيئاً من المنطق ، وهو في جملة لا يجاوز كونه معادلة حسابية فقط تقوم على الأرقام والأعداد .

تقدّمنا (١) بشرح قاعدة القلب في الباب الأول . وفصلنا في مقوماتها التي توضح معقول العرب في لغتهم ... وبسطنا نتائجها التي تغني العربية وتضمن لها البقاء بين أشياء المستقبل الخالدة .. وعرضنا في ذلك لوجوه المناقشة حولها..

وهي وجوه دقيقة ، والجواب عليها ليس هيناً على سبيل البسط والتحرير ولكن يمكن أن نجيب عنها بجواب اجمالي ويعتبر كافياً في الرد مع ذلك . وحاصله أن الافتراض العلمي أي المصوغ على أساليب صحيحة يعتبر مبدأً علمياً ما دام يصلح أن يكون علة للسؤال عن الشيء ولا ريب في أن هذه القاعدة صالحة لأن تكون جواباً عن كل ما يسأل عنه في اللغة .

ولأن الموضوع على شيء من الدقة كان ضرورياً أن نتعرض لشرح انحاء المناقشة وبالأخص فيما يتعلق بالحللول . حينما حاولت درس هذا الخاطر وتطبيقه على كالم اللغة الشتي ، وقعت على نص أشبه ما يكون (بالتقليد) فهو اذن أثري ، وفيه ما يدعو إلى التساؤل لأنه يخالف كل ما عرف واشتهر ومضى الناس على تقريره واعتماده وهو ما أورده ابن النديم في الفهرست قال (١) (وان نقرأ من أهل الانبار من أبياد القديمة وضعوا حروف الف ب ت ث

(١) قاعدة القلب مفصلة في الباب الأول ص (٥٩)

(١) راجع الفهرست ص (٧)

وعنه أخذت العرب) وهو يعزو هذا الزعم الى ابن اسحاق وأنا على اعترافي بما عند القدماء من اسطورية في التحديث عن الماضي البعيد ، لا أنكر انه أنه من خاطري المطمئن إلى الابجدية ، بحيث جعلني آخذ بامتحان القاعدة على وجه آخر ولهذا الشك وجوهه .

(١) هذه المسحة في الابجدية التي هي أقرب الى الاصطلاح والضغط .

(٢) اتخاذا الابجدية في حين عوضاً عن الارقام الذي ينظر اليه (حساب الجمل)

(٣) الظن القوي في دائرة المباحث المشرقية بأن للعرب أحرف هجاء خاصة كتبوا بها لا تقل (١) قديماً عن الخط الهيروغليفي والاشوري .

فنحن اذن منه على ما يدفع بنا الى الشك ، فلم ندخر وسعاً في تتبع المواد وتقدير المعاني ، الأمر الذي أفضى بنا الى اعتماد الجدول في كثير من الاطمئنان وان كنا لا نزال على ريبة من انه كذلك كان بكل حروفه ولكن لا يسعنا إلا اعتماده على ما هو بلون تمييز لتصحيح الوضع في المستقبل . ولناخذ بعرض مادة غامضة لئلا نرى مقدار ما فيه من صدق . (عقر) بمعنى جرح ومنه العقيرة بمعنى الصوت في قولهم (رفع فلان عقيرته) حمل اللغويين على التساؤل في حيرة ، عن السبب في تولد العقيرة بمعنى الصوت من عقر بمعنى جرح . ومن ثم ذهبوا يتحللون له التعاليل والفروض حتى انتهت عند ابن دريد (وهو من هو في انتحال الحكاية) برواية قصة (٢) طريفة جداً زعم أنها وقعت لرجل عثر به رجله فجرحت فرفعها ووضعها على الاخرى ثم نادى بأعلى صوته فقال الناس رفع فلان عقيرته أي رجله المعقورة وتناسوا فيها دلالة الأصل

(١) كما حققه الاستاذ سايس والدكتور كليز . راجع مجلة المعرض البغدادية السنة الاولى ج ١

(٢) راجع مقدمة الكافي للشيخ طاهر الجزائري .

لندل على القصة من باب تأصيل الفرع . وعندنا أن الأصل في معنى (عقر) الصوت بدليل ظهوره في أغلب المواد من مثل (رعى) و (قرع) ونقل الى الجرح بالملابسة في موضوع بعينه ، وأميت في عقر المعنى الأصلي وبقيت العقيرة كحلقة اتصال بين التطورين على ما أثبتته القاعدة .

هذه هي انحاء المناقشة على القاعدة ، ولقد يرى في وجوه الدفع على اجتماعها ما لا يصحح الغرض ولكن هذا لا يعني الشك في صحة القاعدة أبداً . فاننا جميعاً نذكر حديث الفروض الطبيعية الذي بها يتم التفسير الكوني . وصوت للطبيعي ووجوه الحائر امام التجارب التي لا تزال مجهولة للناموس . على ان موضوع كون هذه القاعدة على ترتيبها اعتمدها الوضع القديم في واد ، وموضوع ضرورة اعتماد الوضع الحديث لها في واد آخر . فلقد تقرر بما لا يحتمل ريباً أن بين مواد الثلاثي الست جامعاً معنوياً وانما وجه الخلاف في الخصوصية فقط . وما من ثلاثي يمكن فرضه إلا وضع العرب عليه . بيد أنه لم يتم وضع كل مواده دائماً ، وعليه فيمكن انتزاع الجامع المعنوي منه وتعيين الخصوصية بمساعدة الثنائي الذي لا نظن في أمره مناقشة . وبهذه القاعدة يترتب الوضع ويستقيم وتظهر فائدتها في الأشياء التي تتفرع أنواعها عن وحدات كالفصائل في الحيوان والنبات والجراثيم . فالمادة الاولى تخص بالدلالة على الفصيلة ، ويوضع منها للنوع الذي تكون فيه أوضح ، ويوضع لبقية الأنواع على مقدار ما فيها من مشابهة في اللزوم أو الانفكاك . وفي حال ما إذا لم يعتمد تقديرنا في أن العربي كان سائراً بالافعال لطردها على باب (ضرب) نعمت مذهب أبي زيد الانصاري الذي اعتمده الفيروزابادي في القاموس وهو اذا جاوزت المشاهير من الافعال فأنت بالخيار بين الكسر والضم . وان كنت أميل الى طرد الكسر للجمع بين مختلف آراء النحويين فان الفراء يذهب إلى أن الأصل في المضارع الكسر وعليه فأبو زيد يجيزه والفراء يعينه .

صرحنا منذ سالفه ان القلب عامل هام في تزايد الثروة اللغوية حتى أشبه من

كل وجوهه التكاثر بالانقسام في النقاعيات . ومن هنا كان ذلك المد اللغوي الدائم في العربية حتى لم تعرف له جذراً إلا حين وقف عمل القلب فيها .

قواعد الثلاثي الاخرى

ولقد بقيت ، عدا قاعدة القلب ، عوامل أخرى ضعيفة في نفسها ، وضعيفة في انتاجها . عملت في الثلاثي عملاً محدوداً جداً وهي :

- ١ - القلب اللفظي
- ٢ - الاعلال
- ٣ - الاتباع
- ٤ - المزوجة
- ٥ - التخفيف بالإسكان
- ٦ - فعلية المصدر
- ٧ - الرد إلى الأصل
- ٨ - التضاد
- ٩ - الترادف
- ١٠ - تداخل اللغات .

١ القلب اللفظي

هذا الذي عناه الأقدمون باسم القلب ، وقد خرجوا عليه كثيراً واختلفوا في أمره كثيراً وأغرق فريق فأنكره كابن السكيت . وهم مع هذا التعليق

الطويل والأخذ بالموضوع مأخذ الدرس الواسع لم يتحدد كما يجب فبقي غامضاً في شروطه غير متوضح في مناه التعليمي . وكان في أوضح بحوثه قائمة من السماع .

وقد قدمنا شيئاً عنه وعلقنا على اختلافهم ، وليس بنا من حاجة هنا للاعادة مرة أخرى . وإنما سنقصد من أول الأمر للكلام على رأينا فيه دون ما وقوف عندما قرروه من أمثلة وشواهد . ولكن بما أن هذه الكثرة المثالية عرفت بأنها من القلب فلتتكلم على العوامل التي سببت اليها ونظن بأن لها سببين .

(١) اضطراب الحروف على اللسان . فلا تنطق موزونة ويدخل فيه الاختلاف القبلي وهذا هو القلب اللفظي فقط ومن أمثلته — لعمري ورعيلي ، وما أطييه وأيطبه الخ .

(٢) الأمانة ونعني بها أن تكون مادة المقلوب حية بكل اشتقاقاتها ثم لا يعرف منها إلا اشتقاق واحد بقي اما نسياناً او استغناء فيلحق بالأقرب صورة ومعنى وأمثله ماء سلسال ولسلاس والخذخذ والدخدخ الخ مما يمكن تمييزه بالرد إلى الأصول الثنائية التي هي المعلات وتبين المعنى فيها . إذن فهذه تنظر إلى مواد كانت كاملة الاشتقاق ثم أميتت ، ولم يبق منها إلا هذا النادر وقد بقي في العربية كثير من هذا النوع ومنه (كهف) و (محارة) وهذه الأخيرة توضح شيئاً من غموض الموضوع . فان اللغويين لما لم يجدوها لها فعلاً ألحقوها (بحور) . وهذا النحو من القلب ليس خاصاً بالمفرد بل يدخل الجموع ويظهر فيها بأكثر من ظهوره في المفرد . قالوا في جمع بئر آبار وفي جمع رثم آرام . إلى حد أنه يعاود وجوده مرة أخرى على كل لسان فانا كثيراً ما نغلط عين الغلط في مثله ، وهو شيء فاش في اللغة العامية ، فكثير من المناطق السورية ينطق (أليم في لثيم) والاستدلال (١) بعامية اليوم له وجهه من الاعتبار .

(١) راجع المهج لابن جني فقد احتج بعامية بغداد في عهده غير ما مرة . والأمر العجيب أن بعض النواحي في لبنان لا ينطق أهلها المهموز الا مقلوباً مما لا يبعد معه التقدير بان المهموز المقلوب من لهجات القبائل التي ربما يرجع اليها القوم الحاليون على طريقة المرحوم حفي ناصف .

وضروري أن لا نغفل هنا شيئاً آخر كان له أثره وهو غلط الرواة وتحملهم بدون تمحيص . ولقد يكون من الظن القريب احتمال أن القلب نوع من الاتباع (فحسن بسن) اتباع بالابدال و (سبب وبسبب) اتباع بالقلب .

وبالجملة فليس في القلب اللفظي ما نستفيد منه في الوضع المستقبل أية فائدة بل على العكس هو سبب للاشتباه والمغلطة وإذا قصدنا الاستفادة بشيء منه ففي الجمع فقط إذا سمينا به فان الجمع العلمي يرفع اللبس .

٢ الاعلال

حديث الاعلال في العربية متسع عريض ، فكان ظاهرة قوية الوضوح وعلى نحو بارز في الأفعال والمصادر والموازين والجموع ، والاعلال عندنا مظهر من مظاهر الاعتقاد اللغوي والبلوغ الفني ، وهذه نتيجة ضرورية للعمل النظامي الذي نشاهد أثره في شتى الألفاظ المعللة . ولقد تدهش حقاً للتحويلات التي لا تشذ ولا تختلف وإنما تتبع سنة واحدة فيها من القوة ما يجعلها ذات أهمية .

ومن ثم كان حديث الاعلال طريفاً أيضاً من حيث كونه حيلة لغوية لبقة ابتدأها العربي للمرة الأولى في الصميم من اللغة أداة للتصحيح (١) وللتمكن اللفظي واختفاء لمواطن الضعف في الكلمة . وفي العرض والتحليل غنية وكفاءة . فاذا أخذنا مثلاً قانون (اعلال (٢) الاتباع) الذي هو ملاحظة الحركة قبل النقل وتأثير هذه الملاحظة فيما بعد النقل ، نقف على مقدار الملاحظة الفنية العميقة ، وإن تكن على تكلف فلا تنفي أنها فنية جداً وعمل موزون وأنه سبق بارتقاآت لغوية سامية أدت إليه . وأظن أحداً لا يخالف أبداً في براعة قواعد ادخال الواو على الياء والعكس وعمل التعويض في (اسطاع) (٣) وقواعد

(١) نفي بالتصحيح هنا التمكن اللفظي وليس المعنى الصرفي فإنه معه على طرفي سلب وإيجاب .

(٢) راجع شرح الجواليقي على أدب الكاتب لابن قتيبة .

(٣) راجع التصريف الملوكي لابن جني .

الابدال في أحرف اللين إلى غير ذلك .

فالاعلال تصرف يأخذ طريقة ارتقائية محفوظة النسب لا تختلف إلا على ملاحظات معتبرة ، مما لا يدع شكاً عند الباحث بأنه نتيجة لمبالغات عالية في البناء والاسلوب ، وأفكار ناضجة في اللغة وفيه وحده مقنع للدارس اللغوي بما تناول اللغة من جهود وما استقر فيها من أفكار تسامت بها .

ولا يحك في صدر أي باحث حوك من ظن أن قواعد الاعلال اصطناع النحاة واللغويين ونتيجة لتقديراتهم الشخصية المحضة . لان الاعلال حقيقة راهنة في صميم اللغة سواء كان متخذاً أسلوب النحاة ولون تعبيرهم أم لا . ومن ثم ينبغي أن لا يتجاوز شكنا هذا اللون من التعبير فقط الذي اصطنعه النحاة ولم يشرحه على وجهه وأما هو في نفسه وحقيقته وفيما يكشف عنه من تسام صريح فمما لا ريب فيه ولا شك . وان مجرد ان يكون (قال) مثلاً أصله (قول) واعتبار هذا الاعلال في كل الاشتقاق الفرعي عنه يحملنا على الدهشة المزوجة بتقدير العقلية اللغوية التي صدرت عنها هذه التعليقات .

واذن فالاعلال في غايته يراد للتصحيح ، وهو وسيلة لبقة جداً وسامية . وان كنت اعجب من شيء فأكثر ما أعجب له . الشك في رقي عقلية العرب من هذه الناحية . وهذا لا يمنعنا من الدعوة الى اعادة النظر في قواعد الاعلال التي أقرها النحاة في اسلوب قد لا يجد شواهد عليه لعدم صدقها ولكن لأنها انبت على لف ودوران كثير . فاذا أخذت مثلاً (اعلال الاتباع) رأيت فيه ظاهرة من هذا اللف ليست بأقل مما تجده في وجه اعلال مطايا وقضايا وبعد وسواها مما هو كثير . بينما كان يمكننا أن نقرر قواعده في بساطة متناهية وصدق أيضاً فقد ظهر أن الاعلال وجه من الاتباع بالمثل او بالاشباع ، وهو رأي أقرب ما يكون إلى الصواب ، فان الاتباع قانون واسع العمل في العربية جداً يدخل في الاعراب والموازن والقلب والابدال ، ولا عجب فان اللغة التي تعطي من جانبها ميلاً شديداً للجرس والنغم وتبني الكلمة والاسلوب بناء

موسيقياً تترك لسلسلة الاتباع أثراً هاماً ، وقد يخرج هذا عن حد التقدير إلى الاعتقاد حينما يقف على الانحاء التي وضع أثره عليها في بحث الاتباع .

وهذا لا يعيننا الآن كثيراً وسيأتي بسطه في محله . وإنما أريد أن أقول في جملة الموضوع بأن ما عرفناه من قواعد الاعلال وما أكثر به الصرفيون لم تعد إليه حاجة أبداً . وأما ما يفيدنا منه في الوضع الجديد فقد يكون غير يسير إذا أبقينا على التصحيح مع موجب الاعلال لدلالات بعينها . بعد تعيين مفاد الاعلال والتصحيح باطراد .

فالاعلال يفيد المعنى الطبيعي كما في (طال) فانه يفيد الطول بنمو طبيعي و (ماد) يفيد التحرك كذلك . والتصحيح مع موجب الاعلال ، يفيد المعنى بتكلف او باضطراب (فميد) يفيد التحرك باضطراب او بتموج و (طول) يفيد التكلف في الطول .

٣ - الاتباع

لست أعلم قانوناً كان أكثر عملاً في اللغة من قانون الاتباع ، حتى كان في آخرته طابعاً لغوياً ظهر أثره (١) في الاصول والزوائد والكلمات والادوات والاشتقاق. وهو يفسر غوامض اللغة تفسيراً بسيطاً جداً غير متكلف شيئاً من الفلسفة التي طالما أكثر من احتمالها اللغويون الذين ارتضعوها وانطبعوا على اسلوبها . وقدامى النحاة فهموه ووقفوا على طرف من عمله ، وبدأ يتوضع لهم شيئاً بعد شيء كما غمض عليهم أحياناً فلم يفهموه في الاعلال والقلب اللفظي والادغام ، بينما نجده تفسيراً معقولاً لكل هذه الاشياء التي اعتبرها الاولون قوانين تعمل بنفسها غير متأثرة .

(١) ولا أدل على ذلك مما ذكره الزمخشري في الكشف عند تفسير قوله تعالى (فاعبد ربك مخلصاً له الدين) قال وقرئ بضم الهزنة اتباعاً لحركة الباء

وقد يهمننا أن نفهم الاعلال على هذا الوجه ، لأنه عدا عن كونه يقرب العمل الصرفي ويختزله يوقفنا على تأثير ما للنغم والتناسب من عمل في اللغة ويجعلنا نفسر الاعلال تفسيراً لا يتفاوت في النظائر ولا يستبعد مع طبيعة اللغة . فان القواعد الصرفية المقررة للاعلال قد لا تستقيم كثيراً فهذه (يعد) وأصلها (يوعد) وجهوها بان الواو لما وقعت بين عدوتيهما الياء والكسرة حذفت ولكنه لا يتجه في (نعد) و (تعد) وهكذا .. بيدانا نجد توجيهه من باب الاتباع يستقيم في كل النظائر والشواهد لان الاتباع خفة وذلاقة . ونسوق هنا أمثلة تأخذها بمقارنة عجلي بياناً لمدى الدقة في تخريج الاعلال من باب الاتباع بدون ما اعتماد لشيء آخر .

قالوا ان الاصل في (مَطَايَا) جمع مطية (مَطَايَا) قلبت الواو ياء لتطرفها بعد الكسرة ثم قلبت الاولى همزة كما في صحائف ثم أبدلت الكسرة فتحة ثم الياء ألفاً ثم الهمزة ياء فصار (مطايا) بعد خمسة أعمال . ونحن نقول بأن تقدير الاعلال على هذه الشاكلة عدا عن ان فيه محذور اجتماع اعلالين في قلب الياء همزة ثم قلبها ياء ، يبعد وقوعه على هذا المقدار من المبالغة وأوضح منه وأقرب حتى لا يظن سواه في طبع العرب ، تخريجهما من باب الاتباع وبيانه أن كسرة الياء في (مَطَايَا) أبدلت فتحة مجانسة او اتباعاً للألف قبلها ثم قلبت الواو ألفاً اتباعاً لحركة الياء . بدون تهويل ولا مظالعة ولا عبث مرهق طويل . وهم يقولون في اعلال (مَدَار) ان أصلها (مَدَوْر) نقلت حركة الواو الى الساكن قبلها ثم قلبت الواو ألفاً لتحركها بحسب الاصل وانفتاح ما قبلها بحسب الآن . وعندنا ان الواو قلبت ألفاً اتباعاً لحركة الميم ، لأن الساكن حاجز غير حصين وشاهده قِنَوَان اتبعوا الحرف للحركة مع وجود الساكن فقالوا قِنَيَان كما سبق .

وعرفت الوجه عندهم لا علال (نعد) وعندنا ان الواو قلبت ياء اتباعاً للكسرة ، ولأخذ العربية باللفظية أخذاً عنيفاً حذفت . ويظهر أن العربي أخذ

المثال في كل أمثله بال حذف في المضارع خفة ، وأن مجيئه في كل الباب كذلك دليل على ثبوت التطور في اللغة وعلى أن الاعلال اتباع فقط .

ولنشرح الاتباع في شيء من البسط لهذه الاهمية التي له في تكييف اللغة ، قلنا في بحث الاعلال أن الاتباع شمل انحاء من اللغة ويجدر بنا هنا تعدادها وهي .

(١) اتباع بالابدال : كحسن بسن .

(٢) اتباع بالقلب : كسبب وبسبب .

(٣) اتباع بالحركة : كما في زَيْبِرٍ وَمِنْخَرٍ وَسَجَدَاتٍ وَتَنْضُوبٍ .

(٤) اتباع بالاعراب : كما في يا أيها الناسُ وكما في الجر بالمجاورة .

(٥) اتباع بالاعلال : وهو على وجهين اعلال بالمثل كما في (كيّ) واعلال بالاشباع كما في (مدار) .

(٦) اتباع بالادغام : كما في عَضّ وَمَصّ وقد تمكن هذا الاتباع في منطق العرب حتى أجروه على الحروف المتقاربة .

(٧) اتباع بالمرآوة : كما في (ليرجعن مأزورات غير مأجورات)

(٨) اتباع بالتحريف أو التصحيف : كما في قول العباس (هو لشارب حلّ وبل)

وانما يعنينا هنا من كل أنواع الاتباع ما كان بالقلب وهو الذي اشتهر عند قدامى رجال اللغة بالاتباع على الاطلاق . وهم قد شرطوه بشروط أتى عليها اللغويون في كتب الدراسات كالزهر والبلغة في أصول اللغة . ونحن لا

نرى منها إلاّ شرطاً واحداً فقط ولذا لا نذكر غيره ، قال السيوطي في المزهر (١) (ولا يكون مثل قول العباس في زمزم هي لشارب حل وبل من الاتباع لوجود العاطف) فكأن شرط الاتباع بالقلب عدم العاطف لما انه يفيد الغيرية كما هو مقرر عندهم . وانما اعتمدناه لانه يساعدنا في الاستفادة منه كعامل في التكثير اللغوي .

ورأيي في الاتباع بالقلب انه لا يكون إلا في حروف المعاقبة والإبدال السماعي . والذي لفت نظري الى هذا تعبير وقع للامام ابن الجوزي في كتابه (١) المدهش قال (وقد يريدون تكرير الكلمة ويكرهون اعادة اللفظ فيغيرون بعض الحروف وذلك يسمى الاتباع فيقولون اسوان اتوان وشيء تافه نافه وعفريت نفريت) الخ . فان تعبيره بقوله يكرهون اعادة اللفظ فيغيرون . يفيد أن التغيير جار على أصول ثابتة وليس متروكاً للعفو مما يعين انه جار في حروف الابدال أو المعاقبة أي الحروف التي تناوب وتفيد عين الافادة .

هذا شيء نحن نستنتجه لأنفسنا ، ولا ندرى بعد إذا كان ابن الجوزي يقصد هذا القصد أم لا ، ولكن على أي حال كذلك رأينا وفيه تعليل صحيح للاتباع بالقلب ولا يجعله فوضى في لسان العرب . واذا صح هذا نستطيع أن نرتب حروف المعاقبة والإبدال في جدول منظم متسق وهو يفيدنا جداً في سير الاشتقاق الجديد كما سيأتي في بحث الابدال وأظن بأن هذا التفسير للاتباع بالقلب يقرب من الواقع إلى حد أن يكونه . واما تصور انه كان متروكاً للعفو أو للخاطر فانتزع له خبيء . وكان العرب يقصدون بالابدال على هذا الوجه من المزاوجة والروى تأكيد المعنى وتهويل مقامه وربما فسر قول العربي لمن سأله عنه (هو شيء ندد به كلامنا) . وهو من جهة عمله يدخل في الكلمة والقصة – الصفة – ولكن الأمر الذي يدعو إلى التساؤل عدم استعمال القرآن لشيء منه على شيء

(١) راجع المزهر ج ١ ص (٢٤٥) .

(١) راجع المدهش لابن الجوزي ص (٢٥)

ألوان التعبير فيه . وفي الحق انه تساؤل له أهميته . ومما لا يبعد احتمالاه (٢) أن يكون الاتباع خاصاً بالكلام المرتجل .

والذي نستطيع أن نستفيده منه في الاشتقاق الجديد ضئيل جداً في الكلمة وأما في القصة فيكثر إلى حد أن لا يختلف عما كان في العربية الأولى ، وأرى أن يوضع منه كل ما لا يتأدى باللفظ الواحد كما قالوا (الكان مان) .

وبالجملة فالاتباع لا يختص بموضع من الكلمة فيكون في الفاء والعين واللام على حسب الاتساق وانتظام الروي ويكون واحداً وأكثر .

٤ - المزوجة

ذكرنا ان المزوجة نحو من الاتباع ، وهي لا تكون إلا في القصة . ومن ثم يظهر أن عملها في الاشتقاق ضعيف أو لا عمل لها أبداً وإنما قصدت ذلاقة في الأسلوب ومسايرة للاتساق اللفظي .

والمزوجة لا تخص بوجه من الوجوه التي يقع فيها الكلام ، بل تكون في المفرد كما تكون في الجمع وتكون في الأداة كما تكون في الكلمة ، قالوا (رأيت الوليد بن اليزيد مباركا) وقالوا (ليرجعن مأزورات غير مأجورات) إلى كثير تجده في كتاب (ليس في كلام العرب) وكتاب (الاتباع والمزوجة لابن فارس) وكتاب (سر الفصاحة لابن سنان الحفاجي) .

(٢) بسطنا الكلام في فصل (نثر القرآن) من مقدمة التفسير وذكرنا هناك وجها آخر لتلميل عدم وجود الاتباع بالقلب في القرآن ولا في الشعر . ببناء على ما ذكره سنسري عرض كلامه على الرقي من أن اللغة التي تحكم بالنغم تكون على طفولة فلا بدع أن يكون الاتباع الذي فيه قسط كبير بل أكبر قسط من الاعتماد على النغم والجرس أن يكون ظاهرة من الطفولة وعلى كل فالأمر الواقع أن القرآن لم يستعمل الاتباع في لون أبداً من البيان وأن القرآن أسى أثر أدبي تمخضت عنه اللغة فلا بدع أن يكون لشيء ما ذكرناه أو لشيء آخر لم يتضح لنا .

واذا أخذنا بتحليل قول النبي (ليرجعن مأزورات) وقوله (خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة) استطعنا أن ندرك سر المزوجة . فان (مأزورات (١) وأصلها (موزورات) وهي من المثل الذي سبق أن قررنا في شأنه أنه يصحح بالهمز ، تدلنا على أن المزوجة إنما تجري في الحروف المتقاربة والمنقلبة . والمزوجة لأنها تختص بالقصة فليست تفيد في العمل الاشتقاقي أبداً . وإنما فرضها التناسب بين مفردات الجملة الواحدة . على أنه يمكننا أن نستفيد من المزوجة في الوضع الجديد بما يخص المشتقات فقط ، وأما في المواد فيمنع امتاً للبس . ودعوتنا إلى الاشتقاق عليها ليس لأنها ثابتة العمل على الإطلاق بل لأنها من العوامل التي قد يستفاد منها ولو على قلة . وتكون لإفادة معناها مع التأثير بما زاوجها .

التخفيف بالاسكان

هذا العامل قدره اللغويون الأولون في كلم كثيرة من اللغة ، حتى من كثرته عدوه قياسياً فيما كان حلقي الثاني ، وأوردوا عليه أمثلة كثيرة جداً . والذي يلمح اليه كلامهم انه مرداف للمتحرك ويظهر انه تطور من المتحرك ، ونظن زمن تولده في الدور الثاني من العهد اللفظي ، ومع الاعتقاد بأنه تطور نرى بأنه يراد للتنوع ولكن عدم حفظ الخصوصية صيره مرادفاً . فمن الضروري أن نستفيد منه نحن اليوم . ونتحرى ما وقع فيه التخفيف بالاسكان ونتبع دلالاته بدقة ومقارنة . ولا بد اننا خارجون بعد هذه المقارنة بفارق قد نستفيد منه فائدة لها قيمتها في الوضع الجديد .

وعندي أن التخفيف يفيد أو يخص لإفادة الملكة وزيادة التمكن في الوصف فاذا حاولنا تحديد (ثَبَّتْ وَثَبَّتْ) كان لنا منهما الدلالة في الأول على المثبت

(١) وكذلك (مأمورة) فانها ترجع إلى (مومورة) أي كثيرة التاج .

وفي الثاني على ذي الملكة . على أنه وان كان قد ترك في العربية ثروة لا بأس بها . فلنستفيد منه اليوم في وضعنا الجديد إلا فائدة نذرة جداً ليست بذات بال كما يقولون .

٦ فعلية المصدر

هذا بحث جديد الموضوع وجديد التفسير . كان الغرض منه درس أشكال من اللغة فيها غموض ليس بالقليل . وإذا صح وجه الشرح الذي نأخذه به فلا ريب في أن العربي كان صاحب حيلة لغوية ولباقة بارعة .

حفظ عن العرب قولهم (تَمَنَّدَل) و (تَمَدَّرَع) و (تَمَسْكَنَّ) إلى الفاظ عدها ابن خالويه في كتاب (ليس في كلام العرب) ويظهر من قوله (ليس في كلامهم تمفعّل الرجل انما هو تفعلّ إلا تمغفر الخ) انه وزان غير مقصود ، كما نلمس في عبارته حيرة واضحة في وجه تعليقه ، وكذلك إذا وقفت على ما عند ابن جني في كتابه المبهج حيث قال (١) (وتجمشوا زيادة الميم في الفعل وانما هي من خواص الاسم ومثله تمنطق من المنطقة) . وعندني أن الأمر على عكس ما قال ابن جني تماماً وذلك لأن العربي بعد أن اشتق المصدر الميمي ليؤدي به معنى مخصوصاً وتأدية بعينها ، عاد فتوسع عليه توسعاً ظهر غريباً جداً فنقله الى الفعلية بزيادة التاء . ولكن بقي سؤال يحتاج الى تفسير حتى يتسق ما نجنيء به وهو لماذا كانت الزيادة بالتاء دون غيرها ؟ وما المعنى المقصود من هذا الوزان ؟ والجواب الذي يتبادر عندي انه يراد لغاية هي الدلالة على الشكل بالمصدر وهذا آت من حرف (التاء) الذي أصله (تاو) بمعنى (علامة) وإذا لاحظنا هذا المعنى في التاء وأصغناه إلى المصدر الذي هو (مَنَطَّق) مثلاً ، كان المقصود منه (التنطق الذي صار علامة للفاعل) . ويدل على هذا أن التاء

(١) و (٢) راجع ابن جني في المبهج ص (٦٩) .

تدخل على الوزان بدون ما تغيير فيه كما في (فَعَلَّ) مثل (حَجَّرَ) تقول منه (تَفَعَّلَ) ومثاله (تحجر) ومعناه الذي صار الاستحجار علامة له ، وفهم في هذين الوزانين قصوراً على الفاعل وهو ناشيء من كونه علامة . واعتبر هذا ملحظاً دقيقاً جداً ولا أظن خلافاً له أو عليه لأن هذه الظاهرة وهي عدم تغيير ما تدخل عليه التاء لا تفسر إلا على هذا الوجه .

ولا يبعد احتمال أن العربي خرج بالمصدر الميمي الى الفعلية ابتداء بدون زيادة التاء فقال (مفعَل يَمفعَل) ولكن هذا وان كان يستقيم في بادي الاحتمال يحتاج الى أمثلة عليه من صميم اللغة تثبته ولقد سقطت على ما يمكن أن نكتفي به الآن عند ابن جني في المبهج (قالوا (١) مَرَحَبَكَ الله ومسهلك) . ودون هذا وذاك فهو يفسر ناحية غامضة من اللغة أو في طبع العرب اللغوي أحسن تفسير أوبوقفنا في غير مشقة على نشوء الفعل من المصدر ، وهو وان يكن مزيداً فانه يدلنا على مكان هذا الطبع من العربي بحيث كان يصلر عنه حتى في الثلاثي أيضاً .

٧ - الرد الى الاصل

هم أعني الصرفيين يعللون مثل (تَمَطَّى وَتَظَنَّى) بأنه تفعل من (مَطَّ وَظَنَّ) ولكن كرهوا التكرار ، فاصطنعوه هذا الصنيع تشبيهاً له (بِفَعَّال) على ما ذكره ابن خالويه والاعلم الشنتمري في شرح ديوان طرفة . ونحن أولاً لا نسلم لهم توهم أن تظنى (تفعل) من ظن بل من ظنى وعدم المعل ليس دليلاً على العدم ، لاحتمال الامانة وهذا كثير كما تقدم لك في كهف ومحر . وعلى مجازاة الجماعة في التقدير المذكور نخرجه من باب الرد الى الأصل لأن اصل الثنائي المضعف ، ثنائي معل كما سبق . فاذا زادوه زيادة تفضي به الى لاستكراه اللفظي ردوه الى الأصل أحياناً بدليل وجود كثرة من (تفعل) للثنائي

(١) راجع المبهج لابن جني / ص ٦٨ /

على وجهه كما في تتحدد وتجدد وسواء كان الصحيح فيه هذا الوجه من التخريج أم غيره . فوجه الاستفادة منه اليوم يجعله (تفعلاً) من الثنائي المضعف ويراد للدلالة بعينها غير دلالته لو كان على وجهه ، وضروري هنا أن نعرض لتحديد كلا الداليتين .

فدلالة التفعّل على وجهه من المضعف الثنائي ، التصنع .
ودلالة التفعّل في صورة الرد إلى الأصل ، على المفاجأة .

وعليه (فَتَظَنَّنَ) يدل على تصنع الظنة دائماً . و (تَظَنَّى) يدل على المفاجأة بالظنة . وهذا قد يكون تخصيصاً محضاً أو اعتبارياً ولكنه لا يبعد أبداً عن الملحظ الوضعي والاستعمالي في طبع العرب . ويصح أيضاً أن تلغي هذه الملاحظة من الاعتبار الوضعي في غير العلوم بحيث لا يكون الملحظ الوضعي فيها إلا التحكم والتخصيص ، كما لو أخذنا مادة (ش ط ط) التي جاء منها بمعنى جار وقالوا منها بهذا المعنى (تشطط) وقالوا منها (الشط) بمعنى سيف البحر فيمكننا أن نقول منها على هذا المعنى (تشطى) أي سار على الشط .

٨ - الضد

ظاهرة غامضة تلك التي تسمى في العربية بالضد ، ومع كثرة البحوث عليها في أقدم ما يكون قدامة وفي أحدث ما يكون حداثة ، لم تزل غامضة ولا استثني ظنوني أيضاً وإن كنت أطمئن إليها نوعاً ما وعلى مقدار . وهي لا تزال تنظر إلى قصد في تفكير العربي تناوشه الرغام ، ولم يبق منه إلا ما لا يكاد يبين في مواضع الألفاظ رغم الجهود المنشورة في هاتيك البحوث الشتى . ولعل أقرب الباحثين قصداً في التقدير ابن حبيب البصري حين ذهب مذهباً فذاً ولكنه قريب من المعقول أيضاً ، وكانت نتيجة البحوث التي عرض بها للاضداد ونشرها على اللغة ، أن الضد وجوده ليس بالقصد إليه وإنما كان

من عموم المفهوم اتفاقاً فهو من لواحق الما صدق . وانظر كيف يخرج مثلاً (وراء وجلل وسواهما) التي ذكروا أنها ضد قال (وراء) حرف موضوع بمعنى التواري وهو حاصل في الأمام والخلف . و (جلال) حرف موضوع للغاية في الشيء فيوصف به العظيم والحقير أي من باب تلاقي النهايات ، ثم قام مقام الموصوف فكان ضدّاً الخ . وكل ما يهول به من هذا لا يخرج عن أن يكون اجتهداً صرفاً لاشاهد عليه من اللغة يثبت له هذا الانفصال .

وأما نحن فزرى في وضعه رأياً آخر يجعل كل تقدير يرمي إلى عدم قصده بالوضع خطأ محضاً . وذلك لأننا رأينا كيف كان العربي يستخدم الملاحن في أغراض حازبة وظروف مرغمة محرجة ، على ما عرض علينا القالي من أمثالها وشيخه ابن دريد من قبله في كتاب (الملاحن) . وتجاوز ابن دريد حد العرض إلى نوع من الاستفادة بها لا يبعد أن يكون كذلك عند العربي ولهذا الغاية . قال في سبب التأليف (إنه وضعه لأجل المضطر والملجأ إلى الشهادة أو اليمين) أي وضعه حيلة قضائية عن طريق اللغة وإذا صح هذا فقد كان العربي يقصد إلى الوضع على هذا النحو من الغموض ليتسنى له تحقيق أغراضه حين الملحفة ، والابانة عن أفكاره حينما تحوم من حوله الاذن . وإذا كانت الاضداد حيلة لغوية تفسر على هذا الوجه فيتحم علينا جداً أن نريث في درسها لأنها توقفتنا على نحو من (الشيفرة) عند العرب إذا قبلت هذه التسمية ، وسواء صح هذا الرأي في منشأ الاضداد أولاً ، فإن من الخطأ نحويّاً النظر إلى الضد كظاهرة على حدة بل ضروري أن يجعل وجهاً من الاشتراك اللفظي . وعليه فيقسم الاشتراك إلى قسمين .

(١) (ملاحن) كعين وحاج .

(٢) (اضداد) كبعد ووراء .

وليلأخذ هنا أن الملاحن اللغوية ، غير الملاحن الأدبية لأن الأولى مرتجعا إلى تعدد الوضع فيها والثانية مرتجعا إلى لباقة الاستعمال وتصنع الكناية ولو في

الموضوع وضعاً واحداً كما في قصة الأسير في بكر بن وائل . وإنما نبهنا على هذا لأن ابن دريد اتسع في كتابه للنوعين بدون تنبيه ولا تفرقة .

على أنه يبدو لنا وجه آخر يمكن أن ينزل منزلة الاعتبار أيضاً في هذا الذي يسمونه بالضد وهو الاستعمال (١) الخطأ وغلبته

وبالاجمال فالاشتراك الذي الضد نوع منه ، ظاهرة من ضعف اللغة وطفوليتها مهما التمس لتفسيره ومهما استخدم في شرحه وتعليقه . وأما من حيث ما يلزمنا منه اليوم في العمل اللغوي فإنه لا يلزمنا في شيء بل على العكس يضر به ضرراً بليغاً ويغلبه بكثير من القلق وعدم الاستقرار .

٩ - الترادف :

يتخذ بعض من دارسي العربية اليوم ، الترادف علامة على قلق اللغة . وبعض آخر يتخذها أثراً من الاختلاف القبلي أو ما يشبه الر واسب المتبقية من جراء امتدادات طويلة . والحقيقة وإن كان في المذهب الأخير شيء من القوة والصدق ليس هو كل الحق .

وأما الرأي الأول فليس إلا منكرأ من القول وزوراً لا ريب في ذلك ولا شك ، ولقد يكون صحيحاً لو لم يكن من مواد لا تزال دارجة في اللغة ولها حياة قوية . فان من المعقول أن وجود مواد الاشتقاق بخصوصياتها المعنوية التي تعين ملحظ الاشتقاق في المترادف دليل على قصده بالوضع ، فأين منه القلق المزعوم .

(١) وربما وجدنا الشاهد عليه في العربية الشائعة اليوم فان الاستعمال المشهور جرى على احلال البرهة في محل الفترة القليلة من الزمن وكان الوضع العربي القديم أرادها معنى عكسي تماماً ولكن من يفهم استعمالها اليوم على حسب الوضع ومن يستعملها على مقتضاه وأذكر قصة وقعت لصاحب لي كان يدارسني القاموس فيبيننا كان يسرد مقدمته دهش لكون صاحب القاموس وهو من هو يستعمل لفظ البرهة في غير ما وضعت له حين قال (كنت برهة من الدهر التمس كتاباً جامعاً بسيطاً ومصنفاً على الفصح والشوارد محيطة) ولكنه دهش ثانية حينما نبه الى أن هذا صواب استعمالها والشائع هو الخطأ .

كما أن تعليله بالاختلاف القبلي ليس مقبولا على إطلاقه ، لأن من المعقول أيضاً أن الاختلاف بينها لن يبلغ هذا المبلغ الكبير إلى حد أن يكون الترادف في رقم الاربعمائة أحيانا وفي رقم المائتين كثيراً وهكذا مما ذكره حمزة الاصهاني. حتى قال ابو منصور الثعالبي (كثرة أسماء الدواهي من الدواهي) .

على أن أسلم التقديرات فيه ما ذهب اليه اصحاب الفروق ، من أنه لا ترادف في الوضع بل في بل في الما صدق ، فلكل لفظ خصوصية دلالة وإن كان المدلول عليه واحداً . ومهما يكن فانه عنوان على فراغ الأمة إلا من القول من وجه وعلى مرونة اللغة من وجه آخر ، وبما أنه أصبح صفة ظاهرة من العربية إلى حد التفرد وليس هذا فقط بل أصبح الأديب العربي يضيق جداً إذا لم تكن له فسحة من الألفاظ الشتى التي تتلاقى على معنى واحد ، وجب على الواضع الحديث أن لا يهمل هذه الناحية أبداً وفي اللغة كفاية وغناء . ولكن ضعف الطبع اللغوي في اللغويين جعلهم يتمنون على اللغة الأمانى ، يتمنون لو كان لهم بهذه الكثرة من الترداف غنى يتناول ما في العلم وما تجيش به النفس ، ولكنها أمنية لو علموا تنالهم أنفسهم دون اللغة . فإن في هذا الترداف الذي سخرها منه جوابها على الأجيال . هذا غناي إلى حد التزيد وهذا ضعفكم حتى عن الاستفادة بالأعلام المنشورة في متعرف السبل .

١٠ - لدخل اللغات :

لا أدري مقدار تأثير هذا العامل في اللغة على وجه التحديد ، وإن كنت لأرتاب فيه كذي أثر في توليد عدد من المواد والمشتقات . وكما أظن أن من الخطأ الشك في تأثيره وعمله ، كذلك أظن أن من الخطأ المبالغة في عمله إلى الحد الذي يصطنعه دارسو اللغة . لأننا على شبه اليقين أو اليقين كله في أن اللغة خضعت لقوانين عامة ومواد عامة ، وكان أكبر الاختلاف يرجع إلى

اللهجة فقط ، وأما هذه الانفرادات القَبَلية التي يرويها اللغويون فهي بقايا من متارك التطور عند التحقيق . كما رأينا في اسم الفاعل (من حديث التطور) ولكن هنا أذكر رأياً غريباً في اسم الفاعل نص عليه القيومي قال : (١) ومنهم من يمنع مجيئه من فَعَلَ بالضم البتة وما ورد من ذلك فهو في الأصل من لغة أخرى فيكون من تداخل اللغات) .

يمكننا أن نرى في دعوى هذا الأخير مقدار المجازفة ، فإن دعوى التداخل لا تتم إلا بثبت هو أشد ما يكون افتقاراً إليه ، ونخرج من جملة خلاف الجماعة بأن الشواهد المنصوبة من اللغة تثبت كل هذا الاختلاف . فهي تشهد للمنع كما تشهد للصحة وتقرر القضية بين السلب والإيجاب مما نفهم بأن للمسألة تعليلاً آخر غير ما يقدرّون هو ماسبق لنا الاجتهاد بتقريره سنة عامة في اللغة فهي أثريات مضمحلة أو تنويعات لم تنعم والشاهد في هذا أن كثيراً من اللغويين كانوا يلجأون إلى دعوى التداخل كلما ضاقت بهم وجوه الحيلة في تعليل ما يقع عليه من شذوذ . واليك شاهداً آخر ، تفهم منه أن لا معنى لهذا الاتساع في فهم التداخل والاختلاف القبلي . وهو ما أورده (٢) صاحب المصباح ، أفعالا عن مجيء فاعل لا فعل كأحمل البلد فهو ما حل ثم نقل عن ابن القطاع زعم أنها من تداخل اللغات . وهو خطأ من جملة ما هو من باب هذا التقدير ، وذلك لأنه بقي بين أيدينا ما يبين لنا نحواً من التلبس اللغوي وتداخل الأوضاع بنسيان الخصوصية أو بتقاربها قالوا (أحب الرجل ومفعوله محبوب وحبّ وفاعله مُحِبٌّ) واستغنوا بهذه المداخل غير المقصودة عن حابٍّ ومُحَبٍّ لتقارب الخصوصية بين المزيد والأصل ، ويؤيد هذا مجيء اسم الفاعل من هذه الرباعيات على جهة كما في أورس فهو وارس ومُورِس وان نصوا على قلته أي مورس وكونه قليلا يقوي لنا وجه الاستدلال به . لأن قلته عنوان على الأخذ

(١) راجع المصباح المنير ج ٢ ص ٨٦٤ ط بولاق

(٢) راجع المصباح ج ٢ ص ٨٦٦

بإماتته بحكم الاستغناء عنه . وبالجمله فالتوسع بفهم الاختلاف القبلي والتداخل إلى هذا الحد خطأ محض . وقدامى اللغويين لم يغفلوا عمل هذا الضرب بل زعموه في الاعراب واللغة على السواء ، وساقوا من أمثله في اللغة (هلكَ يهلك) وأمثلة سواها ذكرها ابن خالويه والميداني ، وليس بنا حاجة إلى ذكرها هنا ونكتفي بمثل نبي عليه رأينا في الكيفية التي تمكنتنا من الاستفادة في العمل اللغوي الجديد .

قالوا على ماظن النحاة بأن هلك كانت تنطق في قبائل من باب (ضرب) وفي قبائل من باب (طرب) فداخلوا بين اللغتين . وهذا ظن قد يكون صحيحاً وسواء أصدق أم لا فإن سبيل الاستفادة منه على وجه أن ندخل بين الباين لإفادة أخرى فباب ضرب هو الأصل وباب طرب يدل على المفاجأة فندخل بينهما لإفادة الشيء يبيء تارة مفاجئاً وتارة على الطبيعة فإذا حللنا عليه (هلك) مثلاً دلت من باب ضرب على الهلاك الطبيعي ومن باب طرب على الهلاك الفجائي وفي التداخل على الهلاك مما لا ينتظر كالموت من الجرح البسيط . بالتسم . ويسمى هذا العامل بعد تقريره على هذا الوجه (بتداخل الأوضاع)

الفصل الثاني

الرباعي والخماسي والسداسي ..

الرباعي

لن يكون حديثنا عن الرباعي أقل مفاجأة من كل مارأيت أو سمعت في منشأ الثلاثي وأدواره التي يعيش فيها على ماتمادى بنا التقدير هناك ، ولكن شيئاً سيميز به هذا الحديث ، وهو أن له مساحة الحق في كل وجوهه ومعناه أيضاً . فهو حق يمكنك أن تطمئن اليه في غير تردد ولاضعف منه ، ويمكنك أن تعتمد عليه في درس كل ماتحتفظ به المعاجم من الكلمات على الرباعي في غير وجل من نتائجه وأي وجل في التعويل على مايفسر العربية من هذه الناحية تفسيراً صحيحاً وتصديق عليه صدقاً مطلقاً.وهو وإن يكن تقديرأ يرينا العربي بالغاً الأوج حيث يعتمد ارتقآات نظامية جداً وقواعد فيها من العقلية شيء غير يسير ، وهذا قد يستبعد مع ماكان عليه العرب من فطرة مطلقة ، فإنه الحق الذي لا سبيل إلى سواه . ونحن مهما حاولنا أن نغمض النظر عن نبيل العربية فإنها ناطقة بذلك . ومن ثم كان من الخطأ أن نفسر اللغة بتاريخ العرب وإنما نكون أكثر قصداً إذا فسرنا تاريخ العرب باللغة ، وستكشف الأيام عن شيء من هذا غير يسير . وعلى أي الاعتبار فإني أعتمد ما وصلت اليه اعتماداً غير محدود . ولناخذ بالكلام عليه دون أن ننظر إلى استبعاد مستبعد أو استنكار مستنكر مادمتا نفهم منه كل مانريد أن نفهمه من العربية وكفى .

نرى في الرباعي أنه حلقة من حلقات التطور اللغوي وقد وفق العربي فيه جيداً إذ توسل إليه ببساطة ودقة حتى كان عملاً فنياً منقطع النظير ، وأكثر ما يقضي به العجب أنه استطاع أن يحفظ الفكرة الواضحة على تطورها ، وأن يجعل منها كائناً له أطواره الحية ومراحلها التامة .

وهنا نستطيع أن نحصر خلافتنا مع الأولين وقدامى النحاة . فهم يظنون بوجه عام أنه ينشأ بواسطة النحت والاختزال من ثلاثين ، فالرباعيات أو أكثرها ترجع عند هؤلاء إلى ثلاثيات اختزلت ، وهم يطمثون إلى هذا الظن كثيراً ، وربما لا يشكون فيه فابن فارس اعتمده بصورة محضة في كتابه (مقاييس اللغة) وخرج عليه من هذا شيئاً كثيراً . وهذا التخريج إن يكن يدل على شيء فعلى قدرة لغوية فقط وتحيل عقلي ، وأما أنه صواب في نفسه ، وصحيح أن صنيع العرب كان كذلك ، فليس من وجهه . وأظن أن الذي روج لهذا التقدير كـون الذين تناولوا العربية وحملوها وتخصصوا بعلمها كانوا أجنب يرون في لغاتهم شواهد منه فأخضعوا العربية لما ظنوه قانوناً لغوياً عاماً تشترك فيه اللغات على اختلافها وتباين ما بينها . وأياً كان حقيقة تعليله فالأمر الذي لاريب فيه أن الأولين اعتمدوا الاختزال اعتماداً كاد يكون قانوناً يستندب في درس أي رباعي ومضوا على هذا قدماً في غير خلاف ولا نكرة . وهؤلاء هم أصحاب المذهب التعليلي للغة ومع ان أسلوبهم غلب في العهد الأخير وظهر في كتابات كل اللغويين بقي في نظرهم كشيء ظاهر الغرض لا يطمأن إليه الا كما يطمأن للكتابة المستملحة . ولهذا لم يتناولوه كثيراً بالتمحيص و محاولة التصحيح بل اقتصروا منه على مقدار ما به تكون تطبيقات الدراسات اللغوية التي قد تحتاج الى طرافة من هذا القليل . وأما أنهم عولوا على نتائج التقدير المذكور كما لو كان شيئاً يتم به التصحيح فلا . ولهذا لن اعنى كثيراً بالتوسع في مجاذبة نظرية الجماعة لأنه ليس لها عناصر النظرية قبل أي اعتبار .

ولنخلص من هنا لتقرير نظريتنا في المزيد على الثلاثي مطلقاً في غير ما تكون الزيادة فيه صرفية وقد تقدمنا بشيء من هذا في الكلام على نشوء الثلاثي. قلنا يفرغ العربي من كل الوضع في الثلاثي ولا تزال في نفسه بقايا من معاني الاشياء لا يجد لها ما يحدها أو يحكي عنها في معجم الألفاظ . ولما كان للحروف اعتبارات ومعان . وهذا ما لا ينكر في مذهب اللغوية العربية ، فيدلف من طريقها ليعبر عما يلامس نفسه ويحده في الطبيعة مما تسخر له اللغة ، فكان أن ابتدع المزيد الاشتقاقي بإضافة الحرف على آخر الثلاثي ليدل المؤلف الحر في دلالة الثلاثي تزيد فيه الخصوصية حسب مضمون الحرف وهذا هو الرباعي الأصم المعروف كذلك في تعبيرهم . ومثله الحماسي وما اليه . وهي نظرية تبدو لأول وهلة شاذة غريبة ، بيد أن الاستقراء والاستقراء وحده يصححها ، وسرى في عرض الأمثلة بساطة متناهية تحكي الحقيقة في غير اصطناع ولا شطط . وماذا كنا نفعل لو أخذنا بأسلوب الاكراه والعنت سوى أن نفرض على اللغة ما نريده فرضاً وسوى أن نزاوغ لأجل ما نريغ اليه فقط . وفي نظري انه لا يستقيم لنا بحث الا اذا صححنا طريقة العرض المتبعة اليوم ، تلك التي هي في حقيقتها عرض للنفس ولل فكرة الشخصية فحسب . ومن هنا كنا في أكثر أبحاثنا المنتشرة شخصيين على وجه خالص ، ولهذا أسباب من التقاليد الثقيفية التي تكيف اتجاه التفكير عندنا على نحو قاصر جداً يكون كحركة الرحي تنبعث وتستقر في جهد ضائع لا ينتقل بوضع الرحي ولا يترك شاهداً على انه كان أو انه وجد .

وبحسبي أن أتخذ سبيل العرض المجرد فقط بدون أية محاولة تكون في صالح النظرية وأنا اطمئن الى هذا العرض وهذا البسط وهذا الاستدلال أيضاً الذي اعتبره بريئاً بالمعنى المطلق ، على أنني أتجاوز في فقه وفهم أسلوب الاستدلال الى حد أن أتهم كل محاولة تزيد عن حدود العرض أو توضيحه ، وكذلك يري كل من يحترم الأمانة العلمية ويفهم مقدار ما في المجازفة خارجاً عنها من تبعات ، وتقديرها قدرها الصحيح .

ولإليك عرض الأمثلة :

(ججذب) الضخم الغليظ يرجع الى (ججد) الضخم وهذا يرجع الى (جدى) الذي من مشتقاته الجدية بمعنى القطعة المحشوة ويظهر معناه في (جد) ومن مشتقاته ما هو بمعنى الأتان السمينة .

(طمرس) اللثيم يرجع الى (طمر) ومنه الحبأ والدفن وهذا يظهر معناه في (طر) ومنه ما هو بمعنى الخلس والوغد .

(قلطف) الخفة في صغر جسم ترجع إلى (قلط) القصير جداً من الناس والخفيف وهذا الثلاثي يرجع الى (قطى) بمعنى قارب الخطو ويظهر معناه في (قط) ومنه ما هو بمعنى : فلان قارب الخطو وأسرع .

(طحلب) خضرة تعلو الماء الآسن يرجع الى (طحل) بمعنى فسد الماء وأنتن من حمأة ومنه الطحل الماء المطحلب وهذا يرجع الى (طلى) ومنه قولهم المنهل الطالي أي المطحلب .

ويقوي نظريتنا في الرباعي تقدير الامام أبي العباس ثعلب في (زغذب) انه من (زغد) والباء زائدة وتقدير محمد بن حبيب في (غنسل) ان أصله (غنس) : ولكن العجب من ابن جني أن يقابل تقدير الامام ثعلب في (زغذب) بلهجة لا تحمل من مثله، واليك عبارته قال (١) في الكلام على بغتر بن لقيط (كأنه من معنى الابغث ولست أقول أن الراء زائدة كما قال احمد بن يحيى ان الباء زغذب زائدة لأنه أخذه من الزغد وهو الهدير يقطعه البعير من حلقه ، هذا ما لا استجيزه وأعوذ بالله من مثله وأحسنُ الظن بأبي العباس أن يريد ما نذهب اليه نحن في نحو سبط وسبطر ودمث ودمثر ولؤلؤ ولآل وجعفلة من أنها أصول تقاربت وليست من واد الخ)

لهجة قاسية حقاً هذه التي توشح بالاستعاذة وعدم الاستجابة وكأن الأمر منكسر لثيم من القول وعنوان من التخريج ، كل ذلك لاقتناعهم بأمرين ؛ الاختزال

(١) راجع الميهج ص (٥٠)

في الرباعي ، وان الرباعي مولود ابتداعي لا ينظر الى وجود سابق .

الرباعي المثلي أو الجملي

تقف هنا على عنوان جديد ورأي جديد ، لم يتعرف عليه الأولون إلا على وجه عام . فهم لم يتركوه على معنى الإهمال له ولم يدرسوه دراسة تعنيه بالذات ، وانما من حيث كونه وجهاً من الرباعي أو عبارة أصبح مثلاً من أمثاله . هذا صحيح وقد كانوا موفقين نوعاً ما في فهمه والذي نعنيه بالتوفيق انه وحده الذي يمكننا أن نسلم لهم به على ستهم في اعتبار الرباعي وكونه .

فالنحت له عمل ثابت في هذا النوع بعينه من الرباعي فقط . ومن قلة محصوله في اللغة نسمح لأنفسنا بأن لا نعهده في جملة القوانين التي اعطت الثروة الهائلة ولا تزال آخذة بعملية الخلق والتكثير . وينبغي علينا أن نعين الآن ما نعني بكل هذا الذي نقوله .

قررنا منذ هنية بأن الرباعي ليس في الحقيقة وليداً الا لزيادة الحرف فقط ، أي ليس وليداً للاختزال من الثلاثين فأكثر مما أكثروا التهويل به في ماضي حلقات الدرس المرسل . وقدلنا هناك مقدار ما تشهد به اللغة للظن الذي نظنه ومقدار ما تشهد به من تكلف التقدير الآخر حتى كأنها تقول بأنه ليس منها . ولكن في هذا اللون من الرباعي تحقق انه وليد النحت وأثره ظاهر فيه بحيث لا يقتضي تبينه مجهوداً ، فلو أخذت (بسمل) و (حوقل) ومثلهما ثم تعاطيت لاذن عريية أي على طبع منها ، لم تترد في التعويل على التخريج لها من بابها . واذا صح هذا فيمكننا أن نتحقق من الشروط التي تلزم في النحت . ونراها في أمور .

(١) المفاجأة أو الكتابة أو المثل : مما فيه اعتبار مجازي طريف أو تعريضي .

(٢) السهولة اللفظية .

(٣) وضوح الاختزال : ونعني بهذا أن لا تشبه صورة المنحوت رباعياً له معنى مادي .

ومع انا لا نحدد مجيئه من الكلمات فمما يجب أن يلاحظ أن وروده من أكثر من كلمتين هو الغالب . ويجدر بنا أن نأتي بتطبيقات عقلية حتى لا ننتظر من غير العربية حكماً أو ملحظاً اعتبارياً .

قالوا (بسم) و (حيل) الخ ونقتصر من أمثلتها على هذا المقدار وفيه غناء . فان (بسم) وأصلها (بسم الله الرحمن الرحيم) كناية مبنية على اعتبار طريف عند ابن أبي ربيعة في قوله :

لقد بسملت ليلي غداة لقيتها فيا حبذا ذاك الحديث المبسل

ويقوم على سهولة لفظية وعلى وضوح في الاختزال . و (حقل) وأصلها (لا حول ولا قوة الا بالله) تشتمل على مفاجأة وسهولة ووضوح . و (حيل) وأصلها (حي على الفلاح) تشتمل على مفاجأة أو كناية وسهولة ووضوح . ويحسن بنا أن ننبه هنا بأن المختزل الواحد قد يكون وارداً مختزلاً لاعتبارات شتى وكلها يقتضي عين الاقتضاء .

وقد جاء المولد أحياناً جامعاً لكل ملاحظ الاختزال وأحياناً قاصراً عنها فمثلاً (صلعم) كل القصد فيها السهولة فقط ، فلا تكون محيطة بكل ما يلزم فيها . بينما جاء بها الزمخشري على وجهها تماماً في قوله :

قد شبهوه بخلقه فتخوفوا صنع الوري ففسرنا بالبلكمة

فان (البلكمة) وأصلها (بلاكيف) كناية مبنية على اعتبار لاذع من التعريض وتشتمل على سهولة ووضوح ، وهي منه حسنة جداً وطريقة للغاية وجيدة أيما جودة . وكذلك يكون ذو الحاسة الفنية الدقيقة ومن كالزغمشري لغة وبياناً .

هذا رأينا نعرضه بعد دراسة نظنها ساحة لنا بكل ما أتينا به من استنتاج حول الموضوع .

الرباعي غير الأصم

لن نقول شيئاً جديداً حول هذا اللون من الرباعي ، ولكن سنأخذ بمناقشات على ما قالوا فيه وما ظنوا في نشوئه وما قرروا في معناه ، وليس قليلاً أن نتبين ان غاية ما تكلفوا فيه لم تكن إلا احتمالات مرسلة في غير تحر علمي ولا توفر على الدرس المعبر .

قالوا (١) في نشوئه أنه تضعيف بالزيادة على الثنائي المضعف فككبب أصله كيب وورق رقأ أصله ورق وأنشأوا .

وتبرد برداء العرو س في الصيف رقرقت فيه العيرا

أراد رقرقت . هذا ظنهم في نشوئه وهو يقوم على تتبعات غير وافية ودراسة جد ناقصة لا تكون خليقة باعطاء نتيجة ما . وفيما اذا أخذت بالاستقراء تخرج بنتيجة صادقة جداً ولما اعتبارها وتقديرها الواقعي ، وسأتي هنا على ما استطعنا فهمه فيه وأراني غير مقصر بفهم واقعه .

ينشأ الرباعي غير الأصم من ثنائيين يراد بضمهما (دلالة بين بين) واذا صح فيه هذا الظن الذي يستقيم معناه عليه كثيراً ، أمكننا أن نتحقق من صدق ما تقدمنا به من اصالة الثنائي في اللغة . وأدركنا شيئاً آخر له قيمته ، وهو أن هذا الوزن متأخر بمشتقاته لأنه يدل على معنى تركيب في صورة البسيط . وكأنهم لاحظوا فيه التركيب الذي صارت منه وحدة كما في الحركات العكسية المتعاقبة . فالذهاب والاياب السريعان المتعاقبان على المكان الواحد يشق لهما

(١) راجع كتاب (ليس في كلام العرب) ص ١٧

من هذا الوزن. وعليه فيكون ثنائياً مكرراً لإفادة تركيبية، فأصل (ذَبَذَبَ)
 ذَبَّ و ذَبَّ ، و (رَقَرَقَ) رَقَّ و رَقَّ وهكذا ويدل لما نذهب اليه قول ابن
 جني في الخصائص (الواو لا توجد أصلاً في ذوات الأربعة الا مع المتكرر نحو
 الوصوة والوحوة) وهذه القولة تهدم مذهبهم هدماً حين أحالت ما يقتضون
 زيادته على مقتضى قولهم في (كبكب) .

ثم هم يقولون بأنه مضعف وهو خطأ . وإنما هو مكرر . و الفرق كبير بين
 التضعيف والتكرار ، ونحن اذا جاريناهم رأينا كيف يحاولون جعله وليد
 تضعيفين ،

(١) على الثنائي لتحصيل الثلاثي .

(٢) على الثلاثي لتحصيل الرباعي متخذاً وضعاً من التضعيف غربياً ومنفرداً
 شاذاً . وقد رأيت ما فيه من خطأ ومخالفة للأقرب اعتباراً وللاكثر ، كما انا لا
 نرى عده في جملة الرباعي . واذا كان ما يشفع لهم في هذا فانما هو الصورة
 اللفظية التي تتألف عددياً من أربعة حروف . والأقرب في مذهب التشعيب
 والتقسيم أن يعد قسماً من الثنائي وقسماً للثنائي المضعف وعليه فيقسم الثنائي إلى
 قسمين .

(١) الثنائي المضعف كشد ومد وجد وهكذا .

(٢) الثنائي المكرر كررب ونضنض وهكذا .

وهم يقررون معناه خارجاً عن السماع ، بالقياس على مطلق الرباعي وهذا
 في نظري أشد أوهامهم على الاطلاق . وذلك لأن هذا الوزن الذي ابتدعه
 العربي لدلالة دقيقة جداً وفنية كثيراً يفقد كل ذلك بالذهاب مع وهم الجماعة
 المذكور . وأما معناه في نظري فقد صرحت بطرف منه قبل بضعة أسطر ،
 وخلاصة المعنى فيه انه يغني عن العطف بالواو مع ملاحظة الورود على المورد

الواحد . (فررق) مثلاً تدل على التموج الضعيف المتعاكس . ومن ثم قالوا (الرقارق) للضفاف التي يضعف فيها التموج (ونضنض) تدل على الانتهاض اللين برشاقة وخفة ، ومن ثم قالوا للأفعى (نضناض) وهكذا مما لو تتبعته إذا كنت تطلب المزيد .

وفائدتنا منه في الوضع الجديد كبيرة جداً . وبالأخص في الموضوعات العلمية والصناعية كما في الذبذبات الكهربائية والصوتية والحركات العكسية والحركات الدولابية والرحوية المستنة .

النحت :

لا يمكننا تجاهل أثر النحت في تهية الأوضاع التي تنتهي بها اللغات ، بل ربما كان له وحده الأثر الفعال في اعداد الالوان الشئى . ومع انا نفهمه بهذا المقدار نرى أن عمله أكثر ما يكون في الأساليب حيث تراد لتؤدي معنى واحداً على الانفراد . وأما في المادة اللغوية فعمله لا يكاد يذكر ، وخصوصاً في بناء اللغات التي تحكم فيها الحركات دون الحرف ، وتقوم على الاشتقاق دون التركيب . ولذا كان في السامية أقل منه في الآرية وكان في العربية أقل من كل ما هو منه في سائر الساميات الأخرى . والسبب الذي جعل العربية غير خاضعة لعمله على نحوين :

(١) قيام العربية قياماً كلياً على الحركات .

(٢) كون الثلاثي يدل دلالة تركيبية .

فان الأول يؤدي الى استئصال كل ما يدخله النحت من مثل ما وضعه بعضهم للفصيحة ذات الأربع الأيدي في الحيوان على طريق النحت فقال (أَرْبَيْدِيَّة) من أربع أيدي . وللبرشوت (ضَيْسَقُوط) من ضد السقوط وللبالون (سَفَنَجَو)

من سفينة الجو والجيولوجيا (أرطباق) من طبقات الأرض و (مُحَرِّ كِيَار) للموتير من محرك السيارة الى كثير من هذا الرطانة المجموجة .

والثاني لا يترك مجالاً للنحت لأن عمله في الواقع لهذه الغاية المتأدية بالثلاثي العادي . وما هنا ملحظ ينبغي أن لا يفوتنا اعتباره ، فان له خطورته في درس النحت وهو ملحظ يظهر انه صحيح قريب . وهو ان الفطرين يجتهدون بإعطاء تأديات تتناول الغرض المقصود من كل وجوه بحيث تكون أقرب الى الاحاطة التامة . واليك مثلاً ذكره الاستاذ (Q. Velken) الهولندي في كتابه (بحث عن الامومة) من لغة قبائل (ما كاسل) وهو (Passarilattasang) (ومعناه اللغوي المقصود) الاخوة أو الاخوات (ومعناه الحرفي) (النابتون من بطن واحد) بينما نجد مثل هذه العناية بالاحاطة تحف حماها كلما انتسبت الأمة الى نوع رقي عقلي يتبعه ارتقاء لغوي ضرورة ، حتى يكاد يكتفي فيما بعد بالرمز الى وجه المعنى رمزاً وينقلب الوضع تحكيمياً أو لأدنى ملابسة ، ويظهر هذا ظهوراً واضحاً في المركبات الكيميائية الاصطلاحية وغيرها .

ويظهر من هذا ان اللغة عند الأولين تتحكم بالفكرة ، بينما هي عند الآخرين محكومة بالفكرة ومعنى هذا ان النحت يكون ضرورة حينما تضطر اللغة الى تأدية المعنى على هذه الصورة من التفصيل ومن ثم رأينا كيف انتحت سكان جزيرة (فاكوفر) كلمة (بكييكوكس لكوس) بمعنى الرجل الاوربي حتى صارت ليكبوس) .

وكذلك اذا أردت درس النحت بفقه صحيح وجدته يدور في اللغات التي تكثر من الزوائد لتأدية المعنى الواحد . وهذه ظاهرة من طفولية اللغة ومن هنا قدرنا أن النحت لا يكون إلا في اللغات التي لم تبلغ البلوغ النهائي في التنزيل اللغوي .

هذا وان تقدير ان العربية لم تخضع للنحت يبدو لأول النظر غريباً ، بيد أنا نطمئن اليه . لأن العربية لم تتناولها في بداءة تطورها حضارة تفضي بها الى تطور سريع بل بقيت تتطور تطوراً طبيعياً محضاً وعلى وجه البساطة جعلها تحتفظ بكل مراحل التطور . فبقي للاحادي مفهومه وكذلك للثنائي . ومن ثم استعان العربي بهذه المخلفات على بناء اللغة بناء ثابتاً . واذا أردنا أن نحصي عمل النحت في العربية فلسنا نراه في غير الموازين وبعض الادوات فعلية أو اسمية أو مشتركة وما سبق أن سميناه بالرباعي المثلي وفيما عدا ذلك لا نكاد نقع له على أثر أبداً . ومن الخطأ الكلي أن نذهب مطبقين لقانون النحت على العربية أخذاً باعتماد اللغات له ، لأن الواقع يشهد بأن العربية تنفرد باعتبارات هيأت لها مذهباً فذاً لا يتأتى تفسيره بمذهب اللغات سواها بل ربما كان هذا المنحى يزيدها غموضاً ... وهذا لا يعني ان النحت الساتع لا يزيد العربية الحديثة غنى .

الحماسي والسداسي

لا اطالعك في بحث الحماسي وما اليه بشيء جديد ، فقد أبدينا رأينا في زيادة الاشتقاق وهي تستوي في الرباعي والحماسي والسداسي ، وتلزم طريقة واحدة ومحلاً واحداً ، نكون منه في غير داعية الى تكرار الكلام عليه .

ولكن شيئاً واحداً سنفيض بالكلام عليه وهو ما ذكرناه غير مرة في معرض الكلام على البناء وأعني به (السداسي) والحال أن سداسياً أصلياً لا يحفظ أبداً في شيء من الأسماء والافعال . ونحن من هذا على خلاف ، لأن السداسية في المزيد الصر في فرع السداسية في المزيد الاشتقاقي كما هو معقول . على أن عليه أمثلة لا تزال محفوظة في المعاجم وان كان اللغويون يخرجونها من غير باب .

هذا وجه نخالفهم به ، ووجه آخر وهو دعوى أن الحماسي لا يميء من الافعال استناداً الى عدم الحفظ والورود ، وعليه ذهبوا يعللونه بعلم

قابلية الفعل لثقله . قال العلامة الميداني في نزعة الطرف (الفعل على وجهين ثلاثي ورباعي نقصت الافعال من الاسماء بدرجة لثقلها وخفة الاسماء) ونحن لا نرى معنى لعدم مجيء الفعل منه مع مجيئه من المزيد الصرفي ، وأي معقول في أن لا يكون وروده في الأسماء دليلاً على وروده في الأفعال ، وعدم السماع ليس دليلاً على العدم لاحتمال أن يكون ترك العربي له اكتفاء بالرباعي واستقلالاً له ، وبالأخص إذا لاحظنا مجيء هذه الاسماء الحماسية صفات ، مما يكون في المنطق المعقول دليلاً على أن العربي صاغ منها أفعالاً ولكن أماتها بالاستغناء . ويقوي هذا أيضاً ملاحظة أن أكثر ما يجيء من الأسماء الحماسية يكون على صورة الفعل (كسفرجل) و (شمردل) . ومما يجعل منطقنا صحيحاً حينما ذهبنا نستدل بورود المزيد الصرفي . (اللاحق) فقد نجد الجماعة الصرفية على اتفاق في تخريج مثل جدول وكوثر وهما من الجدول والكثرة باللاحق يجعفر ومثل (جحنفل) بسفرجل وهكذا مما يشعر بأن المزيد الصرفي مقيس على المزيد الاشتقاقي ، هذا صريح بأنه أصل وعليه فلا معنى اذن لأن ثبت الفعل في المزيد الصرفي الحماسي ولا نثبت في مثله من المزيد الاشتقاقي وبعبارة أوضح ، لا معنى لأن ثبت في المقيس ما لا ثبت في المقيس عليه في محل القياس . وكذلك لا معنى لأن ثبت السداسية في المزيد الصرفي ولا نثبتها في المزيد الاشتقاقي ، ونحن وان كنا ندعو في عملنا الاشتقاقي الجديد الى اعتبار السداسي ولكننا نقصره على الأسماء لأن التصريف يقتضي الزيادة والسداسي بلغ غاية البناء في العربية .

الابدال الاشتقاقي أو المعاقبة

لا يحتاج الى تنبيه ان ما نعينه هنا بالابدال غير ما اشتهر بالابدال على لسان الصرفيين ، ولا بأس من أن نفرق بينهما بالابدال الصرفي والابدال الاشتقاقي . وفي غير كبير جهد يمكننا أن نحدد غرضنا من الابدال الاشتقاقي الذي نريد به

المعاقبة في الحروف المؤتلفة مع الترادف . ولكن يحول دون ما نبغي منه أن ما وقع فيه التعاقب ، وعلم أمره نذر جداً لا يفي بالقصد . بيد أن ما تقلمنا به من أن الاتباع يقوم على أساس الابدال مهد بين أيدينا سبيل استخراج جدول للحروف المتعاقبة أو القابلة . ولا يمنع من التحويل عليه انه قد لا يمكن تعليقه لما أنه يجري كثيراً في الحروف التي لا تتشا كل نوعاً ولا صفة وذلك لأن التعليل شيء آخر غير صحة العمل ، والمقصد هنا ليس إلا تبين الآثار التي نهجها العربي لاحتراز هذه الثروة في أكثر ما تكون غنى .

أثبت الأولون هذا الضرب من التنوع في اللغة بعنوان آخر غير عنوان الابدال ، لأنهم اصطلاحوه فيما يخص الابدال الصرفي فكان أن أخذوه بعنوان آخر ، وتتبعوه في ألفاظ عدلوا منها كثرة باسم (المعاقبة) ونحن نستحسن لهم هذه التسمية ، وان تكن كلمة الابدال أصرح بإفادة المعنى المراد في قصد الاصطلاح ومميزات الابدال في نظر الأولين .

(١) يجري في حروف بعينها .

(٢) يكون تابعاً لرغبة المتكلم بتنوع المادة الواحدة .

(٣) يكون محتفظاً بدلالته على الانفراد .

هذه هي مميزات التعاقب كما يظهر من عباراتهم ، ومن هنا لم يجدوا في الاتباع صورة من التعاقب لأنه لا يكون إلا لاحقة ، فكان أن أفردوه بالتقسيم ولم يتخط البحث هذا المقدار على طيلة العهد بيد ما كان من السكاكي حيث أشار لإشارة غامضة في الكلام على تنوع الحروف من أن الحروف المتقاربة المخرج أو الصفة تتعاقب ولم يزد ، على أن هذه الإشارة لا تقرر مذهباً أو تشيد رأياً . وجاء صاحب الفلسفة اللغوية وتناول الموضوع بالدرس المقارن وخرج منه بنتائج لا بأس بها غير انه لا يفرق كثيراً بين الابدال واختلاف اللغات ، والحال ان اختلاف اللغات شيء آخر ، ولذا لم يعد قدامى اللغويين مثل قول

حاتم الطائي (هذا فزدي انه) وهو يريد (هذا فصدي أنا) معاقبة . ويظهر أن الذي حملة على هذا كون ملاحظته نشوئية وأياً كان فيجب على الباحث أن يفرق بين أوجه الابدال وأن يتوضح الفرق جيداً . ونحن نرى الابدال في شعب ثلاث :

(١) الابدال الطبيعي كما في اختلاف اللغات .

(٢) الابدال الاشتقاقي . وهو المعاقبة .

(٣) الابدال الصرفي . وهو الاعلال وما اليه .

أما الأول : فلا ريب في أنه متأثر بعوامل النشأة وبما يحدها ، وشواهد كثيرة في العربية القديمة كعننة تميم وتلثة بهراء وفحفة هذيل . وأما الثاني : فهو المقصود هنا بالبحث وذلك لاستفيد منه في اعداد الثروة اللغوية كما استفاد العرب الأولون منه واستثمروه . وسنجهد في تمثيله جيداً حتى نتمكن من الاستفادة في عمل الجانب الجليد من اللغة وفق ما طبع العرب عليه فتعاود اللغة نضرتها كما لو اسقاها مد الحياة فأورقت بعد جفاف وضمور .

نرى حسب الملاحظات التي علقنا بها على مذهب الاولين انهم فهموا الوجه العملي من المعاقبة تماماً ، وانما نخالفهم في أمرين فقط .

(١) دعوى الترادف المطلق بين المتعاقبين .

(٢) دعوى ان الاتباع ليس معاقبة .

واذا صح ان الاتباع يجري في حروف الابدال استطعنا أن نضع جدولاً محرراً جداً لحروف المعاقبة (١) وفائدة الابدال في الوضع الجليد ظاهرة جداً ، وذلك لأنه يفزع اليه عندما تكون المادة قد استوفت الوضع ، وينبغي

(١) راجع معظمها في كتاب المزهري للسيوطي تحت عنوان : الإبدال .

أن يُخفّصَ لشروط حتى لا يكون سبباً لاشتراك قريب .

(١) أن لا يستوفي من مادة الابدال كل موازين التصريف ، فلا يصاغ .
منها مصدر وما أشبه اكتفاء بمصدر الأصل ولا يزداد فيها زيادات تصريفية

(٢) أن لا تجري عليها زيادة الاشتقاق .

(٣) أن لا تعمم في كل دوائر الثلاثي .

(٤) أن تذكر في مادة المبدل منه لا في مكانها بحسب اقتضاء الحرف .

الفصل الثالث

ظواهر العربية

حاولت درس ظواهر العربية ، في الأفعال . والاعراب . والتعريب .
والتذكير والتأنيث . والتضعيف . والنقل والارتجال . والمصادر . والجموع .
والنسب والتصغير .

وأكتفي هنا بشرح ظاهرة التعدي واللزوم مقيّداً ما تبدى لي من افكار
جديدة ، ليصار الى تقديمها موسعة في وقت آخر .

١ - ظاهرة التعدي واللزوم

حين انتهينا الى النتيجة الخطيرة الشأن في موضوع الدراسات العربية ،
التي كان لها أن تغير وجهة الدرس العربي وتقلبها رأساً على عقب ،
وتبني الصرف وأيضاً النحو بناء آخر جديداً ، وتوضح كثيراً مما كان
غامضاً وتشرح الشيء على حقيقته وعلى مقتضاه من الشرح ، وتفسره
تفسيراً منطقياً ومعقولاً . وهي النتيجة التي قضت بأن العربية خضعت ككل
شيء لناموس التطور العام ، وان القرآن تناولها وهي بين أيدي التطور أي لم
تستقر بعد على أكمل الوجوه . بل لازالت تنزع الى الهدف الأسمى الذي نرى

مقدار ما هي تنظر اليه وتشخص نحوه في تماثل اليه وتسام قريب . حين انتهينا الى النتيجة المذكورة التي لم تدل عليها ظاهرة واحدة فقط من البناء أو الاعراب أو الاعلال أو الافعال أو الجموع أو تخصيص الموازين أو همز المعلن أو التذكير والتأنيث أو العروض بل كان لها ظواهر في كل ما من العربية في جوهرها وطبيعتها . وفي التعدي واللزوم ظاهرة أخرى من ظواهر قلق العربية وعدم استقرارها ، الذي غمض على علماء العربية السابقين وجه تعليله ، فاحتالوا بضروب من الحيلة حتى يستوي في ملحظ يتسق مع ما يبدو من الاختلاف . وكذلك انتهى بهم الاجهاد العقلي والتفكير الطويل الى ما دعوه بالتضمنين النحوي ، وهو بدون شك افتراض قدره النحوي ليعمل به هذه الظاهرة الغامضة ودائماً كان الافتراض سنة الشرح والتفسير . وهنا نقص حكاية التضمنين كما تنصورها . لما أخذ النحوي يحدد مفاهيم الادوات وانتهى إلى أن (على) تفيد الاستعلاء و (في) الظرفية و (الباء) الالصاق . اعترضته أمثلة لا يمكن أن تخرج على معانيها أو خصوصياتها فكان معقولاً (وهو لا يقدر بأن للعربية أدواراً عاشت فيها فتكون متخلفات) أن يقدر شيئاً آخر ، فقدر التضمنين واقنع به واطمأن اليه في كثير من اليقين ، ولأن كل القصد قد كان تفسير وجه النحو نسب اليه . ولما قويت حركة البيان أخذوا هذا التضمنين على وجه آخر ودعوه بيانياً وهو يقوم على ملاحظة معني لفظ المضمن والمضمن فيه ، ومن ثم اختلفوا في أنه حقيقة أو مجاز أو واسطة أو جمع بين الحقيقة والمجاز وهكذا مما تجده في حاشية (يس) على التوضيح . ونقل الانباضي في تقريره على حاشية السجاعي لقطر ابن هشام تصريحاً مهماً وهو أن أول من قدر التضمنين البياني هو العلامة الأول السعد ، أخذاً من عبارة وقعت للزنجشيري في الكشف على ما ذكره ابن كمال باشا في رسالة التضمنين .

هذه حكاية التضمنين في قسميه النحوي والبياني على ما نرى ، وهو حق من كل وجوهه فاذا كان كل أمر التضمنين البياني عبارة تقع من الزنجشيري لم يرد لها محصلة ابداً لما فهمه السعد وبني عليه . فكَذلك كان الشأن من قبل في التضمنين

النحوي . شيء أدت اليه مصادفة الألفاظ المرسله ، والذي عندنا من أمره انه وان كان تكلفاً لاغياً في أوله ، فقد عاد وله محل من الحاجة على أن يصطنع بمقدار من فصاحة البيان . وبحسبنا هذا المقدار من حديثه لتأخذ في حديث التعدي والوزوم وما هو في أصله ؟ والوضع الذي ينبغي أن ينتهي اليه . وهو لمن يريد أن يتناوله بالدرس على وجهين :

(١) كيف وقع التعدي والوزوم .

(٢) معاني الحروف والتعدي على معانيها .

أما الأول : فيظهر ان الأصل في الأفعال القصور على النفس والوزوم لها والتعدي من عوارض الأفعال الثانية ، فكان من المعقول أن تبدأ الأفعال وهي لازمة ثم تأخذ في تعدي عملها . فاذن التعدي فرع للوزوم وهذا معنى قول الاولين (واقع وغير واقع) . ولقد جنح العربي الى التعدي بعدة وسائل بالحرف والهمزة والتضعيف ثم يكتسب الفعل التعدي بنفسه . وفي هذا شاهد جديد على ما قررنا من تأثير الأصل بالحال التي يكون عليها الفرع . وهذا ليس كلاماً مرسلًا بل فيه شاكلة شديدة من الحقيقة واليك ما يشهد له قالوا (وقف ، وأوقفه ووقفه) وعدوا (باب المغالبة) وهو رجوع بالزيد المعدي الى الثلاثي اللازم ليتعدى تعديته وبحسبي من شواهد الرأي المذكور (باب المغالبة) . واليك صورة التطور من الوزوم الى التعدي على ما اتضح لنا .

وقف الرجل

أوقفه > < وقف به

وقفه

واذا صح ان التعدي تسير هذا السير الارتقائي كان لنا أن نتحلل من بعض قيود التعدي والوزوم لا على اطلاق القول فان فيه ما يذهب بشخصية العربية وطابعها من بعض الوجوه .

وأما الوجه الثاني : الذي هو معاني (الأدوات) والتعدي وفق معانيها فأكثر ما يكون لزوماً ، وبالفعل أخذت العربية في هذه السبيل وقطعت شوطاً

واسعاً كما يظهر في (على ، في ، اللام ألخ) .

وقبل ان انتهي بالكلام عند هذه الغاية المجملة أنشر تساؤلاً وأجتهد بالجواب . لماذا لزمتم بعض المصادر ومشتقاتها التعدية بحرف شخصي مثل (قصد) الذي يعدى (بالى) و (عمد) الذي يعدى (باللام) على ما هو الأفصح ، وتخصيص الحرف بالفعل يكاد يكون عاماً في مصادر العربية اللازمة . والذي يظهر انه آت من تدقيق الملاسة بين تمام معنى المصدر ومعنى الحرف فاننا بدرس (عمد) مثلاً ومشتقاتها (العمد والعمود والعمدة) نخرج بمعنى الارتكاز والتحمل على الشيء بثبات . وهذا لا يناسب ابداً حرف (الى) التي تفيد الانتهاء . وكم ترى مناسبتة ظاهرة مع حرف (اللام) التي تفيد الاختصاص أو الملك . هذا هو وجه السر فقط على ما اتضح وليس آتياً ابداً من طبيعة الحروف أو من اعتبار آخر .

واذا كان هذا هو السر في اختصاص الحروف فقط ، فلا نرى حرجاً على للكاتب العلمي والفني أن يجاوزه ، فقد وجدنا في (عمد) و (قصد) أن العربي جاوز بهما فصيح الربط ودقيق الملاسة في الاستعمال الشائع ، بلون أن ينعت بتخطئة أو غلط . وان كنا نتخرج مع الأديب أمره ونأخذه بفصيح الروابط ودقيقها ما دام يختص للأدب ويكتب لخلعته^(١) .

٢ - ظاهرة الأفعال

تلخص فكرتي في الأفعال فيما عدا الجانب التاريخي والنشؤي الذي درست فيه أصل الحروف (انيت) وكيف توصل العربي الى هذه الصور التي أتت وفهما الأفعال مطلقاً اذ كان منا التقدير بان الأفعال على صورها مهذبة عن صور أخرى ترى لي من بقاياها اسماء الأفعال . عدا هذا الجانب التاريخي وما يتبعه يتلخص رأينا في الأفعال بضربين :

(١) راجع بسط الموضوع في مقدمة معجمنا الكبير الصادر في سنة ١٩٥٤

١ - ما سبق لنا ان تكلمنا فيه وهو طرد الافعال مطلقاً على باب (ضرب)
٢ - قياسية كل الزيدات الصرفية ولكن لدلالات خاصة . وقد توصل
إلى شيء كبير من هذا الشق الثاني المأسوف عليه ظاهر خير الله الشويري في
رسالته (اللمع النواجم) ولا يتسع المقام لإيراد شيء من تخصيصات المزيد
الصرفية على أن الصرفين سقطوا على كثير من التحقيقات النفيسة في بحث الأفعال
وبلغ بحث الأفعال عندهم أكثر مما بلغ سواء ومن أراد تحقيقاً نرتضيه للأفعال
فعلية برسالة (اللمع النواجم) .

٣ - ظاهرة التعريب

من أصعب البحوث ضبط التعريب حتى ان اللغويين القدماء انتهوا وما
انتهت أبحاثهم فيه وخصه كثير منهم بالتأليف . وأنا أخالف كل الجماعة
السابقة في عمل التعريب وأرده رداً عنيفاً وأعتقد بأن الأسباب التي أظهرت
حاجة العرب في عصور مدينتهم الى الأخذ به لم تكن سوى وقفة اللغويين والنحاة
هذه الوقفة المنكرة ورأيي أن التعريب لا يدخل الا في نقل الاعلام وبعض
المصطلحات العلمية والتقنية المستعصية والشائعة شيوعاً عالمياً ولكن
بشرطين .

(١) أن ينقل العلم او المصطلح على مقتضى الحروف العربية البحتة .
فليس لنا من أجل النقل ان نزيد في أبجديتنا بل نكسر العلم على حروف
الابجدية كما فعل العرب الاولون وكما يفعل الأجانب اليوم في كافة الاعلام
الفنية والأمثلة عليه أكثر من أن تحصى ولا داعي ابدأ لإيجاد (جاف) وما
اليها وكان أول من فكر بزيادة حروف وحركات وفق الاجنبيات في
العربية المرحوم الشيخ طاهر الجزائري في كتاب (توجيه النظر) ولكن رحمه
الله كان أكثر حيلة حينما عمد الى احيائها من منطق العرييات المماتة .

(٢) أن ينقل العلم أو المصطلح أيضاً مراعي فيه وزن عربي محفوظ وان لا يزيد عن
سبعة أحرف فاذا زاد أنقص منه بحيث لا يخل بالاسم المنقول . وقد رتب قواعد خاصة

لا يتسع المجال لذكرها هنا .. وهذا وان بدا غريباً نائياً فإن اللغة شخصية يجب أن تحفظ ومسحة يجب أن تظهر .

٤ - ظاهرة الإعراب

نعمد الان في هذه الخلاصة ما انتهى اليه البحث الاستشراقي في الاعراب وفي حركاته انها بقايا ضمائر وأدوات اشارية على ما ذكره العلامة (رايت) في كتاب (مقارنة نحو اللغات السامية) . ويمنح نفر الى انه ظاهرة تصحب اللغات الخطابية الشاعرية ، وليس هذا الرأي بلدي قيمة في مقام التعليل .

وانتهينا الى رأي جديد في التنوين ، وهو أن العربي لما أقر لغته في اللفظية وبلغ منطقته أشده ، كره الصوتية في الحركات الاعرابية التي يقتضي مداها عند الوقف عليها فقطع المد بالتنوين وقد ظهرت محاولته هذه في تنوين الترنم من مثل قول الشاعر (اقلي اللوم عاذل والعتابن) والاصل العتابا . وإذا صح هذا فيكون العربي قبل التنوين كان يقف على الحركات ممدودة مما يشعر بصحة الملحظ الاستشراقي .. ويلفت النظر حقاً هذا التماثل الشديد بين جمع المذكر السالم وبين المفرد المنون ففي حالة الرفع في المفرد تقول (زيد) بحيث لو مدت الضمة قليلاً مع الاحتفاظ بالتنوين نشأ منها (زيدون) وكذلك في المثني مما يظهر معه ان النون في الجمع تنظر حقيقة إلى التنوين في المفرد .

٥ - ظاهرة التذكير والتأنيث

التذكير والتأنيث بلون شك لم يخلصا في العربية من القوضى خذ كلمات : الأذن والابط والام الخ.. ثم أخذنا بالاستقرار بعلامة فارقة اطردت بالتاء وكثرت بالألف المقصورة أو الممدودة . وهذه القوضى عزاه الاصمعي والمفضل وابن الاعرابي من الرواة الى الاختلاف القبلي وكذلك النضربن شميل وسيبويه من

النحاة وهم يطمثون الى هذا الالتماس ونحن لا نطمئن ، ولصعوبة الموضوع خصوه بالتأليف ولكن يختلفون فيه اختلافاً كبيراً فما يقطع ابن سيده بتذكيره يجوز فيه الأزهري التأنيث . ونحن نفهمه على أنه كان أمراً اعتبارياً يدور مع الملاحظة بدليل ما ذكر صاحب الامالي من ان اعرابياً سمع يقول فلان جاءته كتابي فاحتقرها ذهب إلى معنى الصحيفة . ويقويه ان الاولين يتوهمون ذكورة وانوثة في غير الحيوانات . ولكن كما قلنا أخذت العربية بالاطراد تذكر وتؤنث تبعاً للعلامة فما ليس فيه علامة وهو مؤنث فأثري متخلف ولقد أحس بهذا بعض قدامى اللغويين كابن السكيت وابن الانباري فقد نقل الفيومي في خاتمة المصباح عازيا اليهما (ان العرب تجترىء على تذكير المؤنث اذا لم تكن فيه علامة تأنيث) هذه القالة التي تحفظ عن ابن السكيت ، وناهيك به ، تفسح المجال لظن أكيد الصحة . وعليه فالتصنيف الذي نراه لكلمات العربية مطلقاً .

١ - يتعين التذكير أو التأنيث فيما وضع للحيوان بفارقة أو بدونها وهذا ما يسمى بالحقيقي .

٢ - يتعين التذكير أو التأنيث تبعاً للفارقة في غير الحقيقي .

٣ - يرجح التذكير فيما لا فارقة فيه نظراً إلى أن العربي يجرؤ على تذكير ما ليس فيه علامة .

٦ - ظاهرة التضعيف

انتهينا فيه إلى أنه على ضربين :

(١) التضعيف البسيط وأمثله معروفة .

(٢) التضعيف المركب وهذا شيء نحن نراه تعليلاً لمجيء زيادتين في أوزان

العربية كمثّل (ففعيل) و (فعلعال) وتأمل هذا التناظر المدهش بزيادة الفاء والعين في الأول وزيادة العين واللام في الثاني .

٧ - ظاهرة الارتجال والنقل

ليس عندنا شيء غير منقول وما زعموه من الارتجال توهم محض جاءهم من عدم الحفظ لمادة الاشتقاق أو من المجيء على خلاف القياس والحال أن القياس معناه ما استقرت عليه العربية بعد تطورات طويلة . فما يسمونه مرتجلاً هو من هذه البقايا الأثرية.. وبالجملة فالأعلام في نظري تشتمل على قدر زاهر من تطور العربية لأن الأعلام تمتاز ، عدا عن أنها وليدة انفصالات عدة ، بكونها تتناقل عادة على صورتها .

الخلاصة :

هذه ملامح المعقول العربي في اللغة.. والتعمق بفهم هذا المعقول الأصيل، يأخذ بيدنا للسير على خطٍ مستقيم إلى مستقبل مرجو من رواسم التطور النامي بالتطور وحده... بالإصرار على ضرورته تبقى لغتنا للمستقبل ، ونبقى نحن للحياة وللإنسانية ...

الباب الثالث

داء العربية ودواءها

الفن كله قضية تعبير .
الانسان الخالد كله قضية تعبير .
كأال الحاج
(في فلسفة اللغة) .

فان ما أعمله وما أريده مجتهداً ، هو شيء خلاف التقدير وغير
الخالط .. فهو :
لا يتناول اللغة في تاريخها ..
ولا الفكرة اللغوية من حيث خيالها على اللغة .. وإنما يتناولها
في مقدار قرارها بين أشياء المستقبل المعتم ..
ومقدار ثباتها في جانب الموجودات الحقيقية ، التي لا تقبل ،
إلى جانبها ، موجوداً ليس منها ، وليس له ذلك النصيب من
الحقيقة الذي يحفظه ...

عبد الله العلايلي
(المقدمة)

مقدمة الباب الثالث

رأينا في خاتمة الباب الأول ، الذي اتخذناه أساساً أقمنا عليه الكتاب .. رأينا هناك اهتمام صاحب المقدمة بالموازن ، وكيف دعا إلى صوغ موازين الثلاثي برمتها من أي ثلاثي كان ، وكذلك من الرباعي ... كما دعا إلى تخصيصها بدلالات ثابتة ، لاختلاف باختلاف المواد ... وكذلك دعا إلى توحيد المعاني في المادة الواحدة ..

ونعودُ هنا إلى هذه الناحية ، لنفرد لها باباً مستقلاً ، لأنها تمثل علاجَ الفوضى في الناحية المعنوية من اللغة . فتخصيص الميزان أو البناء أو الصيغة سمةٌ ، من الضروري أن لا تخلو منها لغةٌ توسم بِسمة الرقي الوضعي ، إذ هي أجل ظاهرات الرقي العديدة . وهذا التحديد الميزاني يجعلُ الوضعَ الاصطلاحيَّ خاضعاً لعملِ آلي ، يوفرُ عناءَ الواضع وعناءَ المستعمل على السواء ، واللغة التي تكون على فوضى منه ، تبقى ضعيفة عن تناول الأشياء ، وإذا تناولتها فلا تكون لها الصبغة اللغوية المحكمة (١) .

وقد وفق الشيخ العليلي في تسمية هذا المبحث «داء العرية ودواؤها» في القسم الأول من المقدمة ، وإن أرسله هناك ، مع «مترقات لا يجمع بينها إلا ملابسات الموضوع الواحد» (٢) .

(١) مقدمة لدرس لغة العرب ، ص ١٩٥ /

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣ /

ومهما اختلف الباحثون في النظر إلى إقدام العلابي على وضع خصوصيات ثابتة للموازين ، لأول مرة في كتب الدراسات العربية . يظلُّ عمله تشخيصاً حكيماً لداء العربية ، واقتراحاً رحيماً لدوائها (١) ؛ لأن بقاء الموازين على فوضاها لا يتناسب مع المفاهيم العلمية الدقيقة ، التي تضطرنا لأن نجعل دلالة لازمة أبدأً للهيئة الميزانية ، فنخفف عن الواضع اللغويّ عناء كبيراً ، كما ترسم للميزان صورة عند السامع تكون على مقدار كبير من المعنى (٢) ، فأسماء الفاعل تشترك في معنى الفاعلية ولو اختلفت موادها في مثل : عالم ، عادل ، عابر ، عازف ، عاشق ، نابع نابه ، ناسم . وأسماء المفعول تشترك في معنى المفعولية رغم اختلاف موادها ، والأمر واضح ، في صياغتها من الكلمات السابقة : معلوم ، معدول ، معبور ، معزوف ، معشوق ؛ منبوع .. الخ .

والانتباه إلى هذه الخاصة من خصائص العربية ، بالإضافة إلى كشف الجانِب العام من المعنى ، توضح وظيفة الموازين المنطقية ، والفنية ، والموسيقية ...

لذلك رأيتُ إخراج مبحث الموازين في باب مستقل ، وألحقت به مبحث «اللغة غاية لا وسيلة» لما بينهما من وثيق الصلة ، وقراءة الروح ؛ فغاية اللغة تجعل العلابي يهتم كلَّ هذا الاهتمام بالصَّيغ ، والعناية

(١) اختلف الباحثون في عمل العلابي في مقدمته ؛ فاعتبر أمين الخولي ، عمله أكبر وأنفع من كل ما قامت به حشود الفويين والرسميين لمحنة العربية . (مشكلات حياتنا اللغوية . ص ١٠٢ ، ١٠٣) - واعتبره محمد المبارك ، مجازفة علمية . (فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٤٦) - واعتبره الشيخ صبحي الصالح ، جرأة تجاوزت الحدود . (دراسات في فقه اللغة ص ٤٠٠) - واعتبره الأب أنستاس الكرمل ، فتحاً لأبواب كانت تلامس في العربية حتى أيام العلابي . (راجع قسماً من رسالته للعلابي في تاريخ الحسين ص ٣١٧) .

الميزانية أو التصويرية ، من سيويه وابن القطّاع (١) إلى كمال الحاج (٢) وسيلةً لخدمة تلك الغاية .

وهذا ما جعل العلّيلي ، كما أظن ، يغفل التوقف عند المباحث المطرقة في القسم الأول من مقدمته ، عدا هذا المبحث . . إذ يعتبره ، ولو بشكلٍ ضمني الغاية والنتيجة ، وبحثها يعني في التصدير عما سواها . قال في تصدير المقدمة الأصيل :

« تناولنا بالقسم الأول مطرقات لا يجمع بينها إلا ملاسات الموضوع الواحد . وأهم ما جاء فيها تحقيق أن دلالة الكلمة من اللغة على المعنى الحاصل في خيال المستعمل دلالة مقايسة وموازنة . وأبحاث أخرى لها خطرهما ولها نبل خاطرتها » .

الغاية ، جاء هذا الباب في فصلين ؛ الفصل الأول : داء العربية ودواؤها ، وفيه تحديد معاني الموازين لأول مرة في لغتنا . . الفصل الثاني : اللغة غاية لا وسيلة ، وفيه تأكيد واع لدور اللغة في تجسيم الفكر وجعله حقيقة واقعة .

وخاطرات العلّيلي في التعبير غير ما أثير حول المفاضلة بين الألفاظ والمعاني قديماً . ولئن استغرب رأيهُ يوم صدر منذ ثلاثين عاماً ، فقد صار مقبولاً وقيناً عند البعض ، في أيامنا . (٣) .

(١) أحصى سيويه المتوفي ١٨٣ هـ من الأوزان العربية ٣٠٨ لقاعدة الواحدة ، عدا أوزان الأفعال . وزادت عند ابن القطّاع المتوفي ٥١٥ هـ في كتابه الأبنية إلى ١٢١٠ ، وعنه نقل السيوطي في مزهره .

(٢) وأما كمال الحاج ، رئيس قسم الفلسفة في الجامعة اللبنانية ، فيقول : إن المبقرية هي قضية تعبير .. (في فلسفة اللغة . ص ٣٠٦) .

(٣) راجع كتاب الدكتور كمال يوسف الحاج « في فلسفة اللغة » ، فقد بناء على هذه الخاطرة ..

الفصل الاول

داء العربية ودواؤها

« أو نخصيص الموازين »

ليس ما أحاول هنا عملاً من تلك الأعمال التي قد تكون هيئة المطلب ولا عملاً يركب الخاطر الشارد في جذر الدهر ومد الفطرة الأولى . وتأتي نتائج على نسقه من التقدير المرسل فان ما أعمله وأريده مجتهداً ، هو شيء خلاف التقدير وغير الخاطر فهو لا يتناول اللغة في تاريخها ، ولا الفكرة اللغوية من حيث خيالها على اللغة .

ولإنما يتناولها في مقدار قرارها بين أشياء المستقبل المعتم ، ومقدار ثباتها في جانب الموجودات الحقيقية ، التي لا تقبل إلى جانبها موجوداً ليس منها وليس له ذلك النصيب من الحقيقة الذي يحفظه ، وإنما كل ما فيه من معنى الوجود أنه كان فقط .

ولذلك فهو موجود غير متماسك ، حيث تكون الحياة فيه غير متواصلة الاطراف . ومن ثم كان الاخلاص عند رجال اللغة يدعوهم إلى الأخذ بمذهب آخر أكثر جدية . يمكن أن يركن اليه وتكون به اللغة . فان عمل

اللغويين في الفترة الماضية ، لا يعلو أنه برهان على قدرتهم اللغوية وعدم عجزهم المسيطر فقط .

واما اعداد اللغة للوجود بين متنازع الحياة ومعترك البقاء ، فهذا ما لا أظنهم يستطيعون أن يزعموا بصراحة أنهم فعلوه . وربما كانت مثالة عملهم كقلب السعادة الذي يجمعه الساحر من كل قلب وما هو في الحقيقة إلا أمزاق فانية من كل قلب .

وأنا أعلو هذا الآن لآخذ مذهب الجلد الذي أراه ، وأجتهد بتقريره وأدعو الناس اليه في جراءة قطع . وانما استجيز هذا المنطق الصارم ، لأن الناس لا يزولون يتمسكون بأوليات — يزعمونها — لم ترق في يوم من الأيام إلى الظن فضلا عن رتبة العلم فالضرورة . والذي جعل لها هذه الأولوية ، مزاوله درسها والنصب في تعاطيها بدون مناقشة لها ولا تردد في قبولها . وهذا شأن كل دراسة مهما يكن نوع صحتها ، ومهما تكن نسبة العقل فيها . ولعل أقرب مثل لهذا ، التنجيم المنبني بدون شك على اعتبارات تجريديّة فقط . ومع ذلك نجد من الهنديين من لا يجرؤ على الشك بنتائجهم ، ولا يسمح لنفسه أيضاً في قرارة الضمير أن يتساءل عنها . على أننا أصبحنا اليوم وجهاً لوجه أمام المذهب العلمي الذي يأخذ كل شيء على أنه في حاجة إلى الدرس مرة أخرى ، ويتساءل ما استطاع في صدق كل هذا . وبعبارة أخصر ، أمام المنحى العلمي الذي يتبدى كل تفكير . وبحق كان (ماركوني) مديناً للجراءة في هدم الأولوية الطبيعية التي حالت زمناً دون تقدم اللاسلكي ..

وآن لنا فيما أظن أن نتحلل من مسحة التفكير الصوفي (سلم تسلم) ، لان السلامة أصبحت في شيء آخر يبعد أشد البعد عن التسليم بأي من معانيه . فقد أصبحت اليوم قائمة على ما غبر الناس على تسميته بالفضول . فالعلم يفرض الفضول . ويفرض ان يكون كل عالم بحق فضولياً . ويفخر بهذا الفضول الذي

هو ضمانة التصحيح العلمي .

على أن العهد برجال اللغة الاولين عدم هذا الركون الذي نأخذ أنفسنا به ، فقد حدثنا أبو البركات ابن الانباري في (نزهة الالباء) حيث ترجم لشيخه ابي منصور الجوالقي ، كيف كانوا يناقشون باستخفاف بالغ أية فكرة حول مسألة لا تشرحها ، وانما تتكلف فيها ما لا يسهل التسليم به . فهو يذكر لنا كيف اعتمد شيخه ما ذكره ابن دريد في (ليس) وان أصلها (لا ايس) ، وكيف انبعث ابن الانباري يناقشها في سخريه لاذعة .

هذه الحكاية على كونها طرفة أو نادرة ترينا منحى من فقه اللغة في سير الدراسات الاولى التي لا تخرج في مجموعها عن كونها التماسات مجردة ، ومن ثم قالوا (النكات لا تتراحم) ..

ومن وجوه الضعف فيها أيضاً الاجتهاد بتعليل كل شاهد على حدة ، بدون أية ملاحظة عامة . ومن هنا انتهت بهم دراستهم الى ما انتهت اليه من عدم التلاؤم وزاد فيها هذا المعنى ، حينما ظهرت حاجة العربية الآن الى ما لم يكن لها به عهد فوقفت على معنى الحرون لأنه أخذ لا يلائمها فاعتاصت عليه .

وغاية ما نكاثر من الحديث ، أن تكون نظرتنا الجديدة في درس العربية نظرة اقتصادية تعمل على الاستثمار وحده ، وان نجتهد في الاستفادة من الموجودات التاريخية دون أن نتركها دُمى أو عاديات أو شواهد قبور . فان الاحتكام بمنطق السماع يجعل مخلفات العربية شيئاً من هذا القبيل فقط ، لا فائدة فيه أكثر من انه ثروة من التاريخ ، واذا جاوز وضعه التاريخي سقطت وسقطت قيمته واعتبر كالمزيفات التقليدية تصادر وتطاردها هناك .

وسبيل الاستثمار عندنا يقع في نحوين .

(١) توحيد المعاني في المادة الواحدة . ونعني بهذا جعل كل معاني المشتقات ، مزيدة أو مجردة من مادة ، معاني للمادة . مما يصح معه اشتقاق المجرد من المزيد الذي جوزه الشاطبي وغيره . ومن ثمت تكثر الوحدات المادية ، للمادة الواحدة وقد أريناك شيئاً من هذا عند العرب ودلنا عليه في غير هذا الموضع من المقدمة وفي اللغات الحية الاخرى مما يكون له اعتبار المذهب اللغوي العام . على أن هذا قد وقع في ملحظ الامام ابي اسحاق الزجاج حين قرر (١) في كتاب (الاشتقاق) ان كل لفظين اتفقا ببعض الحروف وان نقصت حروف احدهما عن الآخر ، فهما مشتقان فكان يقول بان (الرَّجُل) مشتق من (الرَّجُل) و (العَقْل) مشتق من (العاقول) وهذا كله بحسب ظهور المعنى ووضوحه بين المشتقين .

ولقد نص رجال اللغة على أن العرب اشتقوا : مثل مزكوم من ازكه ، ومقرور من اقره ، ومكزوز من أكره ، ومغموم من أغمه ، ومحموم من احمه . فالوحدة المادية لتوسيع باب الاشتقاق اعتبار يخل في صميم اللغة وروحها دون ما اعتمال ولا افتعال . ولكي يبقى هذا صحيح المورد ، يجب ان نجيب على سؤال . وهو اذا سلمنا ما يقضي به توحيد المعاني ووضعناه موضع العمل على سنة الموازين المخصصة ، فسيكون من المفرد الواحد عدد كبير من الكلمات على عدد الموازين . ولا يخفى ما يكون من تداخل بينها مع الاختلاف المعنوي طبعاً ، او لا فيكون الوضع تحكيمياً . والجواب باختيار الشق الثاني ولا خير فأنه من السنن اللغوية التي تتفق على تباين ما بين اللغات ... فلو أخذنا مادة (سَفَح) بمعنى صب الدمع و (سَفَح) بمعنى وجه الجبل . وجعلنا هذين المعنيين وحلتي اشتقاق وأجرينا عليهما الموازين ذات الخصوصية . لزم أن يكون معنا (سَفَح) بمعنىين على حسب الوحدة المادية . وعليه فنعمد

(١) راجع معجم الادباء ليقوت ج ١ ص ١٤٥ و ١٤٦ .

الى التخصيص الموقوف على التحكم . والاختيار الارتثائي المجرد دفعا
للاشتراك ..

(٢) تخصيص الموازين بمعان وتأديات تقوم بها مقام اللواحق في الأجنبية
وهذا سبيل لا مفر منه . ما دامت العربية من اللغات الاشتقاقية لا التركيبية .
فلا بد من أن تغني الصيغة فيها غناء ما . وتراد لارادة بعينها . ويرى المتبع
لكلمات العربية أنها قد أخذت بعضاً من هذا الأخذ في صيغ بعينها مر بنا
تعدادها والكلام عليها في فصل (تطور اللغة من الباب الأول) . ولكن لم تتماثل
فيه . فظل أثره محدوداً .

وهذا في نظري شيء قد كانت العربية على دراك له ، لولا أسباب إنقلابية
مفاجئة وقفت بها عند حد ما نراها مسطورة في غضون الكتب المعجمية . ومن
ثم أصبح حتما علينا اليوم أن نقوم بهذا العمل ، عمل تخصيص الموازين ، واحلاها
لتأديات بعينها قارة . ومن وجه آخر نطلق سبيل الوضع عليها . والاشتقاق
وفق أبينتها من آية مادة . وإلا فأي معنى في قرارة وجدان العربي لتخصيص
وزان (فَعْفَعِيل) مثلاً بممرميص . ووزان (فَعَالَعَال) بحللاب . دون أن
نقول منها حَسَحَسِينَ وحَسَنَسَانَ إذا ثبت أن لا امتياز لمادة عن مادة .
وأما امتياز التعددي واللزوم فسيأتي الكلام عليه ، وبيان وجهه والأسباب فيما
يظهر لنا أنه مذهب العرب .

ومن الشطط في العبث إذن ، أن لا نروم ما كان يرام وأن لا نقول من
فعفيل الامرمريص وهكذا ، بل ضروري أن نستفيد من هذه الموازين الكثيرة
الجمعة كما استفاد العرب منها ، على مقدار الحاجة الذي هو التعليل الصحيح
لعدم وجود إلا " مثالٍ أو مثالين من الوزان ، علما عما اضاعه الرواة وفات
المعجميين .

وأنا لا أفهم شيئاً وراء هذا من تعاليل ملتوية حيرى ، وكيف

أستطيع أن أفهم خلاف هذا وفيه وحده ثروة العربية وروحها الوثابة ، مما يضمن لها حياة ثرّة لا تغيض ولا تن ، وتعود من قوة حيويتها كما كانت تستوعب مطلق الأفكار ، وتذهب مع شتى التصورات مذاهبها من الدقة والاحتمال ولا تضعف أو تلين لشيء من الآثار المنتشرة بين ضمير الكون وحسه ، ولا يلحقها رهق ولا معجزة في هضم وتمثيل علوم وآداب الأمم المختلفة ، بينما تكون حافظة لشخصها رغم ما حمل عليها وما تمثلته في وجودها .

والحق ان دراسة هذه الموازين من الصعوبة بمكان . ولكنها في الوقت نفسه طريقة ايمسا طرافة وهي توضح سير الاشتقاق في العربية وسنة التفريع . وسر الزيادة وان كان على شيء من الغموض ايضاً نظراً الى أن النصوص التي بين أيدينا اليوم لا تفي بكل المقصود من الدرس . فهي لا تحتفظ بشيء زائد عما يسمى بالمعاني المطلقة أي لا تحتفظ بخصوصيات هذه المعاني حتى يتأتى لنا إدراك الملاحظ الاعتباري الزائد في الوزان الشكلي . بيد أنها تكشف في الحين نفسه عن أنها خضعت لتطورات كثيرة لبّدت فيها الخصوصيات الزائدة حتى لم يبق لأكثر هذه الزيادات إلا دلالات مبالغية فقط واليك (وزان فعّال كخطاف وفعّال كقذاف وفعّال الذي منه جلو اخ الخ) مما لو ذهبت تتبعه ، وتنقصي أمره لوجدت دلالات متوافقة ومعان متصاقبة ، لا تباعد بينها الا في اعتبارات قد لا تكون ملحظ العربي ابدا . والشيء الآخر الذي يعتبر التقصير فيه أبلغ . ان الكلمات التي جاءت على هذه الموازين لم تحفظ لنا في استعمالات وشواهد يمكننا أن نطمئن اليها .

ونحن رغم هذا التقصير اجتهدنا في استخراج معان قارة وثابتة لها ؛ بعضها من لطائف الاستعمال ، وبعضها من التشخيص المادي ، وبعض أخذنا فيه بالتحكم العلمي في مواطن الاصطلاح . وما هذا بغريب عن اللغات حتى التي تنبني انبناء تراكيباً يسهل معه ايجاد الملاحظة بصورة وافية . فلم يكن اذن مقابلة

اللاحقات الكيماوية شيئاً يمكن استنتاجه بمقاربة بل التحكم المحض والاصطلاح وحده ، ولا ضير في هذا ما دامت الكيمائية نفسها تنبني انبناء اصطلاحياً حتى في الاجنبية نفسها .

والواقع أن العبء الذي نضطلع به من هذا ، ليس باليسير الهين بل يثقل إلى حد الارهاق ويظلم دونه . وهو حري بهذا فانه يقتضي نفوذاً إلى ضمائر الألفاظ وهي مستدقة .

وأنا بعد ذلك لا انزلها منزلة أكثر من أنها أفكار لها نصيب من الجهد ، تدفع بالعربية في طريق معبد يزداد مع الجهود المجموعة المستبعدة تعبيداً . ولا أظن أي دارس منصف يرى فيها فيرعى على العربية . بل الفرية الحقيقية في أن نقف بهذه الموازين عند الحد الاثري فقط . والفرية في أن تبقى دراستنا صادرة عن (أي كذا خلقت) هذا الذي كتم العربية في كل أوقاتها ، وجعلها حتى في أحصص عهود دراستها ، لا تخدم مجتمعا في شيء ولا تصوره ولا تتلون متناسقة معه . والسبب فيه هو ما قدمناه من درس العربية على النحو المذكور .

ولقد يتعاطاك العجب حينما تتولى تأريخ الأثر اللغوي ، في جنب الحضارة الاسلامية فلا تجده الا نزرأ أو لا تكاد تعثر له على أثر ؛ إن في لغة العلم أو الفن أو السياسة أو الادارة . ونظرة واحدة تأتي بها على مثل كتاب (صبح الاعشى) للقلقشندي وديوان الرسائل للصيرفي و (رسالة الديوان) للاسعد ابن ممتي التي الفت لتصوير الحياة الادارية وجانب من علم الدولة ، تكفي للاقتناع بتخلف اللغة وعدم خدمتها لشيء ما من أشياء الحياة الجديدة ، سواء في جانب الجدل أو الهزل . هذا الجانب الذي يشتمل على الطرف السار المرح من تطريات الحضارة ومباهجها .

وكبير جدا هذا التخلف الذي نشهده ، فان لغة كالعربية امتازت بالسهة

في مذاهب البيان ، والتفصح في جنبات القول الى حد المعجزة ، تقف على هذا الشكل عن تناول هبات الحضارة يبلو عجباً .

وليس لهذه الظاهرة التي تناقض طبيعة اللغة وتناقض مرونتها المعهودة ، حين كانت تتسع لكل الاشياء ولأدق الخوارج ، بين الانسان والانسان ، وبين الانسان وعواطفه وبين الانسان والمجتمع وبين الانسان وكونه الا تعليل واحد هو عدم فهم قدامى اللغويين . مذهب العرب ومعقولهم في اللغة حتى اضطر الادباء والناس من ورأهم الى تناول الاشياء على ما هي لان التقدم سنة الطبيعة يشمل كل شيء على رغبه والبيان سنة الانسان التي تلازمه ولا تنفصل عنه . ومن ثم خضع اللغويون في النهاية لتناول هذه الاشياء واستعمالها على علاقتها ، بدون ما تشذيب فيها ولا تغيير لما هي عليه من الشكل .

وهنا استغرق بذكر قصة مؤلفة من بعض الوجوه أوردها أبو بكر الصولي قال (١) (ناظر فارسي عربيا بين يدي يحيى بن خالد البرمكي فقال الفارسي: ما احتجنا اليكم قط في عمل ولا تسمية، ولقد ملكتم فما استغنىم عنا في أعمالكم ولا لغتكم حتى ان طيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سميناه ما غيرتموه كالاسفيداج والسكباغ واللوغباغ وأمثاله ، وكالسكنجبين والخلنجين والجلاب وأمثاله كثيرة كالروزنامج والاسكدار والفراونك ومثله كثير . فسكت عنه العربي فقال يحيى : قل له اصبر حتى نملك كما ملكتم الف سنة كانت قبلها لا نحتاج إلى شيء كان لكم)

هذه القصة التي ننطوي منها على وخز ضمير وألم مرير ، كل المسؤولية فيه والتبعة تقع على كاهل هؤلاء الذين وقفوا موقفاً حرجاً غير مرغوب فيه كما يقولون ، وكأن الجماعة فهمت في العربية أنها لغة لا تتسب الى عربي الفالوذج واللوذج . كما تتسب الى عربي الشيع والقيصوم ، بل هي ثروة خلفها عربي

الجزيرة فهي وقف عليه . وهذه الثروة تقع في عدد محصور محدود من الكلمات طبعاً ، فلذلك ينبغي أن لا يتجاوز بها رقم هذا العدد ويدل على ما نقول من هذا الظن ، اختلاف الجماعة في التعريب وحلوده ، فان أولئك الذين كانوا أكثر مزاوله للحياة في حلودها وخوضاً في شؤونها الدائمة كانوا أرفق شروطاً وأكثر اقتصاداً ، وبالأخص حينما وجدوا الحاجة ماسة اليه فقرروه (١) في معالم واضحة وجعلوا كل ما جرى به اللسان العربي على أوزانه من غير العربية عربياً ومنهم الأزهرى .

وآخرون هم الذين كانوا يقيسون الحياة على مقدار مقعدهم من حلقة الاملاء ، وينظرون الى دهرهم من وراء معلقة امرئ القيس ومن اليه منعوا التعريب على غير العرب ومنهم ابن فارس .

ولكن يا هؤلاء اذا كانت العربية لا تتناول من شؤون الحياة ما نحسه ونشعر به . وتقف دون البيان عنه بأي لفظ من أية لغة فهي جديرة بأن لا تكون الا في متحف يكتفي الناس منها بالنظر اليها . وأرأني غير مطمئن الى أن الجماعة تقرر فكرتها على هذا النحو . ولكنما تعني شيئاً آخر هو ما سبق لنا أن تكهنناه وهو أن الجدير بكلمة العربية هي : مجموعة الكلمات التي تضمها المعاجم بالنقل عن لسان العرب قبل أن عراه ما عراه . وهذا الوضع الحرج الذي وضعوا فيه العربية ، الحق بها فيما أرى نتائج كأسوأ ما تكون نتائج ومن أهمها :

(١) قصور العربية عن تناول مقتضيات الفكر . ولا أدل على هذا من عرض مجموعة كلمات الاصطلاح في العربية . فانك واجد في الشعبة المنطقية كلمات (المادة والجهة والموجهة) . وقد ذكروا في تعريفها أن كيفية النسبة في

(١) لا يفهم من كلامنا انا نقرره كما قرروه فانه سيمر بك رأينا في التعريب وأنا لا نقره في شيء ما من اسماء المعاني باطلاق القول وفي اسماء الاشخاص (الاعلام) نجريه على قواعد مخصوصة راجعها في بحث التعريب .

القضايا (مادة) واللفظ الدال عليها (جهة) والقضية الواقع فيها هذا اللفظ (موجهة) ، ثم خذ أي كاتب كالسعد ومن يعنون باثار مثله كعبد الحليم والطار في حواشيه على التهذيب والشمسية ، فانك تراهم ينشرون تساؤلا عربياً عن سبب تسمية الكيفية مادة وهم محقون بهذا التساؤل الذي لا يفرغون إلى اليوم من جوابه ، وان كان الاعتذار ليس بمحل من الاعجاز . وهذا الغزالي في (محك النظر) يرد اصطلاحهم في التصور والتصديق ويسميه معرفة وعلماً على أن هذه جميعها لا ترجع من أي طريق الى جهود اللغويين ابدأ ، وانما تدين لعمل العلماء فقط .

(٢) جمود اللفظ في معناه فلا تجده على شيء من المرونة كما يجب أن يكون . بل تشعر بأنه يتأزح على نفسه وينكمش في طبيعته . حتى يعود أشبه شيء بالحصاة مهما تقاذفتها السيول تبقى كما هي حصاة غير متحولة شكلاً ولا اعتباراً . ومن هنا أنهم بعض مستشرق الافرنج ، اللفظ العربي بأنه (اكلشي) لا أكثر وسمي العربية (لغة الاكليشات) وجره الى انكار أن يكون في العربية أدب بالمعنى الصحيح .

(٣) نشوء العامية . وقد يرى عجباً أن أعد تشدد اللغويين للغة هذا التشدد جر الى نشوء العامية ، أو كان الأثر الفعال اليها . ولكني - على ما يرى من عجب - أؤكد بصورة لا تقبل الريب . وذلك لان الوقفة المتزمته بهذا الشكل الذي لا يكفل حاجة الناس ولا يعبر عن أغراضهم اليومية ، وهي لا تنفصل عنهم بحال ، أولاً يتأتى لهم أن ينفصلوا عنها بأي وجه ، جعل العامة يهجرون تباعاً هذه اللغة التي للخاصة رغم أنها لغة التشريع والابتهالات ، ورغم أن العامة لا تهجر عادة اللغة التي يتميز بها الخاصة الا لأسباب ماسة لها حدثها ولها عنفها ، والا فالعامية من الوجهة النفسية ترغب جداً بهذا النوع من التقليد وتميل اليه حتى الفتنة .

فالانصراف الذي نلمسه في العامية قد كان اذن لأسباب لا يحقر أبداً شأنها .

وكيف تحقر وقد سببت انصرافا عاما . ولقد أؤخذ بان هذه النتائج التي ارتبها تصح اذا سلم بأن العامية نجمت عن الانصراف المذكور، ولم تكن لأسباب أكثر وضوحا مثل الدخيل والامتزاج. ولكن الواقع يقرر أن الدخيل وما اليه، لم يكن بذي بال الا في الاعراب . والاعراب ليس وحده فارقة اللغة وميزتها . وربما كان أقرب الى الظاهرة بمعناها الصحيح، المفردات المتخيرة المتقاة . التي تشتمل عليها لغة الخطاب . ولعل غير بعيد أن تكون عامية اليوم أفضل بكثير من عربية القرون التي تقع بعد القرن العاشر . ولنا على هذا شواهد لا تزال تنطق بصراحة . وهناك نتائج يطول تعدادها . وأعتقد بأنه لولا غلبة العربية بحكم غلبة السلطان ولولا ضيق النطاق العلمي بحيث لا يتجاوز محيط العلماء لضج أو تلك العرب كما نضج نحن العرب . وما ذلك من طبيعة اللغة ونحن نشهد مقدار ما هي عليه من السعة يوم كانت أغراض المتكلمين محدودة ، حيث الجاهلية حقيقية . مما يصح معه أن نقول إن العربية القديمة كانت أسمى من تفكير العرب القدامى . ونحن العرب اليوم نغار على العربية . من أن ننظر اليها نظر سالفى اللغويين ، وان كنا نعذرهم لان غرضهم اتجه الى وجه واحد وهو حفظ العربية من ان تأتي عليها الألسن الشتى . ونجتهد ونحن ورثة العرب الأولين أن نحقق كوننا خير خلف ، وأن نعمل بملء اليدين . وجمع الكفين كما يقولون لاستثمار هذا التراث ، دون أن نتركه على وضعه الذي كان عليه . ونكون مع ذلك أكثر صيانة للغة، وأكثر فقها لمعقول العرب فيها . ولذا كان من نابهي اللغويين الذين يفسرون اللغة بمقدار ما تستوي مع الحياة، مجاهرة بأن أخذنا من هذا القبيل أصبح لازما. وأول من أذكر له صرخة جريئة وحكيمة اللغوي المأسوف عليه ظاهر (١) الشويري .

(١) هو من لغويي لبنان وضع عدة رسائل منها (رسالة مفصلة) ورسالة تعقب فيها أخطاء القاموس ورسالة المصحح النواجم في اللغة والمعاجم ضمنها بعضا من أفكاره الجريئة . يمتاز بالهدوء في درس ما يدرس وقد وضعها كقدمة لمعجم المأسوف عليه جرجس همام الشويري

ولقد لخص جملة أفكاره في عبارات نوردها هنا على اقتضاها قال بعنوان تنبيهات :

(١) يجب أن يجعل متن اللغة قياسياً .

(٢) يجب أن نقول بقول ابن السيد البطليوسي في الاقتضاب ؛ وهو أنه لا يقال بالشذوذ ما وجد له وجه قياس .

(٣) أن نقول بقول المازني كما في الاقتراح ؛ وهو أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم .

(٤) أن نقول بما في مادة (حلف) من المصباح ؛ وهو أن عدم السماع لا يقتضي عدم الاطراد مع وجود القياس .

ولشدة خطورة الموضوع من وجه ، ولما احمل من موجدة على الدراسات البراء التي نتعبها بغير مبرر حكيم ، تذهلني المناسبات وتحتكم بي بلرجة أن أنتقل اليها بالموضوع .

وبحسبي من حديثها ما ذكرت لانتقل الى درس فيه تفصيل على الموازين . وان كنت لا أرى في موضوعات العرب عليها فوارق حملت الواضع على اختصاصها . الا اذا صدق الظن الذي تقدمنا به من أن الفوارق تلبدت على مد التطور وغابت عن متناول الرواة . وقد يقوى هذا الظن أن تكون آخذة شكلاً تقنياً (١) ، على منحنى موزون خذ (فَعْفَعِيل) الذي يظهر أن أصله (فَعِيل) و (فَعْلِيل) الذي يرجع الى (فَعِل) و (فَعْلِيل) كذلك وهكذا مما سنأتي على ابداء الرأي به جميعه ، باعتماد المقارنة التشاكلية . وان كنت اقطع بأنني مع هذا لا أمثل تمام معقول العربي فيها ولكني اطمئن اليها على أي الأحوال .

(١) كلمة من وضعنا الجديد جعلناها ترجمة للكلمة (Technical) واصلها من مادة (تقن) العربية التي جاءت بمعنى الطيبة والموافق من كل الجهات .

والملاحظة التي لازمنا في دراسة الموازين ، أن العربية كانت تصدر عن لواحق تزداد على الوزن اذا أريد لافادة معنى اللاحقة زيادة على معناه . بدليل السوابق وما لها من المعنى المعتبر في العربية كسابقة (است) في (استفعل) التي تفيد الطلب أو الصبرورة أو العد . وأظن بأن هذا يقطع عرق النزاع كما يقولون من أنه كان في العربية سوابق ولواحق لم تتوضح تماما عند قدمى اللغويين .

وكننا سنذهب إلى تقرير هذا الذي وضح لنا واعتبرناه ظاهرة ليس فيها شك بيد أننا امتنعنا عنه لشيئين .

(١) أنها خطوة واسعة تشبه الطفرة التي لا تخلو عقابيلها من بعثرة وفوضى مستطيرة . وليس ذلك من عدم صدق النظر وإنما من عدم سلامة التطبيق من وجه ، ولندرة الأمثال المحفوظة على هذه الموازين التي تحتفظ باللواحق من وجه آخر .

(٢) حرمة موازين العربية التي هي شخصية اللغة ، أن ينضاف إليها ما لم يكن منها . ومعناي بهذا أنا بتقرير معنى اللواحق بعيداً عن الميزان ثم اضافتها على الوزن لتحصيل المعنى المطلوب يؤدي إلى تزيّد كبير في الموازين الجديدة على أشكال لم تعرفها العربية العريقة ، وان كانت ظواهر الدرس تقتضي ان العربي كان يعتمد لواحق بعينها للدلالات بعينها . ومن يشك في هذا إذا تناولنا (بعيدين عما تسببه الدهشة من استنكار عابث) مثل وزان (فعُلوت) و (فعُللوت) و (تفَعَّلوت) ووزان (فعَلان) و (فعَلان) و (فعَلان) ووزان (فعُلّم) و (فعِلّم) و (فعِلّم) ووزان (فعِلّين) و (فعِلن) و (فعِلّيت) وهكذا .

وانما خصصنا مثل هذه الموازين بالذكر ، لأنه يظهر فيها بصورة قاطعة للتردد أو الاسترابة ان العربية كانت خاضعت لما يدعونه باللواحق في مذهب

زيادتها ولكن تشدبت هذه اللواحق حتى وهي جزء من الوزان لا تنفصل عنه وكان هذا بفعل الصقل اللغوي المستمر .

وينبغي أن ننتبه إلى الفرق بين كون اللغة تصدر عن لواحق . وبين كونها تصدر عن موازين شكلية . فان الأول يكون أوسع نطاقاً لان الواضع لا يتقيد معه بشكل من أشكال الموازين ، بل يضيف اللاحقة على أي وزان مجرد عنها لافادة المعنى الزائد . فمثلاً لو فرضنا أن لاحقة (غِسْلِينَ) التي هي عندنا (ين) الدالة على معنى الخلاصة وأردنا أن نفيد خلاصة من اسم مفعول (كَلْبُون) مثلاً الذي هو بمعنى المضاف اليه اللبن نقول (مَلْبُونين) وهكذا مما لو أخذتها في (فَعْلِيلين) و (فَعَالين) وشبهها لوجدت أن مجال العمل عليها أوسع نطاقاً من حيث الفائدة ، ولكن يُقَعَد دونه أنه اصطناع للعربية اصطناعاً . بخلاف ما إذا كان التفريع على مقتضى ما حفظ من الموازين فقط ، فإنه يكون في غايته اشتقاقاً متوسعاً . وقد تدرك فرقاً واضحاً بينهما وان كنت أعود فأقرر بأن ظواهر الدرس الذي أخذت بأسبابه على الموازين يعطي هذا وأنه مذهب العرب ، ودليله ان لاحقة (وت) لم تختص بوزان مآ ، له طابع يميزه كما رأيت في فَعَلَوْتَ . وتفعَلَوْتَ . ولكنه كان مع ذلك خاضعاً لشروط أهمها .

(١) أن لا تزيد الكلمة باللاحقة على أكثر العدد الذي تكون منه الكلمة في العربية .

(٢) أن لا تجتمع فيها لاحقتان (كَفَعْلَان) مثلاً فلا يجيء منه (فَعْلَانين) و (كَفَعْفَعِيل) لا يجيء منه (فَعْفَعِيلين) وهكذا .

ويظهر أن اللاحقة تعتبر في أكثر من حرف ، فكل ما كانت الزيادة فيه حرفاً فقط كان وزاناً أصلياً يجوز أن تتبعه اللاحقة وتنضاف عليه . ونحن رغم أنا نظن بأنه مذهب العرب على صورة مؤكدة ، فلا نرى الأخذ به للمحافظة

على شكلية العربية ، على أن كثرة هذه الموازين المحفوظة مغنية عن احياء اللواحق والاشتقاق وفتحها .

ولنأخذ في عرض خصوصيات الموازين ، كل ميزان على حدة لينجلي مرها على صورة لا يتوغل من بعدها سير الاشتقاق . وهذا الأخذ وحده الذي ينقذ بحق الوضع العربي ويمهد السبيل اليه بحيث لا يبقى عائق، عن افراغ التعبير بما لا يتفاوت معه في تعبير النفس وتصوير الضمير .

وأهميته هذه آتية من حيث أنه يضمن توزيع الوحدات المادية على نسق علمي صحيح ، وهنا يجيء أمر التنبيه على شيئين لهما أهميتهما في بحث الموازين .

(١) مسابرة الجماعة في اعتبار الاسمية والوصفية في كل وزان . ولكن على أن لا نستثني من الموازين واحداً عن هذا الاعتبار . ولا نقف عند (١) قولهم (وقد يختصون الصفة بالبناء دون الاسم . والاسم دون الصفة . ويكون البناء في أحدهما أكثر منه في الآخر الخ) لأنه وقوف مع الموجود من العربية بدون مجاوزة في النظر من أجل التماس التعليل الصحيح . وإلا فأى معنى لهذا التقسيم الشاك غير المطمئن سوى الحيرة في فهم مخلفات العربية على الوجه الواقعي .

(٢) هذه الزنات جميعها تقبل زيادة التاء المتحركة والتجريد . لاعتبارات من التأنيث والوصفية والمبالغة مما يجمعها قولهم (علامة الفرعية) وهذا قد نص سيبويه عليه في غير موضع من الكتاب وبالأخص في (باب ما لحقته الزوائد من بنات الثلاثة من غير الفعل) .

فَعَلَ

خصوصيته الدلالة على الاتصاف بوحدة المادة تقول (رَتَجَ) للشيء فيه الغلق .

فَعَلَّلَ : خصوصيته الدلالة على ما تعددت فيه الوحدات من الوصف تقول (زَبَدَدَ) للمتعدد الزُبْدَ .

فَعَلَّاءَ : خصوصيته الدلالة على المكان يوجد فيه الشيء على معنى التميز وعلى تعدد الشيء في غير انفصال . تقول (حَرَجَاءَ) لمكان الغابات الكثيرة و (صَنَعَاءَ) للمكان تكثر فيه الصناعة .

فَعَلَّانَ : خصوصيته الدلالة على تكامل الوصف في الشيء تكاملاً من كل الجهات تقول (رَوْنَان) أي صوت متكامل وآلة ذات رومان .

فَعَلَّتْ : خصوصيته الدلالة على سرعة التأثير أو الانفعال . وعلى سرعة الاحتراق . تقول (عَصَبَتْ) لتأثر الاعصاب السريع ^(١) .

فَعَلَّنَ : خصوصيته الدلالة على نفوذ الوصف إلى غاية الباطن ومن ثم يوضع منه لظواهر العقل الباطن تقول (نَفَسَنَ) للرجل المختص بالأعمال النفسية كالمنوم المغنطيسي .

فَعَلَّوَتْ : خصوصيته الدلالة على البروز من الوصف تقول (أَثْبُوتَ) للجدول ينبثق من أعلى الجبل ويوافق الجبل في انحداره . (حَبْنُوتَ) لتواء الداء الطفي المسمى بهذا الاسم .

فَعَلُّوتَ : خصوصيته الدلالة على الاستحالة من شيء إلى شيء تقول (فَلَزُّوتَ) لاستحالات المعادن إلى أشياءها العنصرية . وفي (الاقرباذين)

(١) راجع الكتاب ج ٢ ص ٣١٦ .

(٢) راجع الكتاب ج ٢ ص ٣٢٧ .

يدل على المصول تقول (كَلْبُوت) لمصل الكلب و (حَلْبُوت) لمصل الحليب .

فَعَلَّ

خصوصيته الدلالة على الاتصاف بالمادة مع توزع وعلى ما هو مثل النابض النَبَاض (الزنبرك) للوصف تقول (رَعَج) لذي المال الكثير الموزع في ايدي الناس بالترابي.. وفي العضويات يدل على المرض الملازم غير المزابل مثل عَوْرٌ .

فَعَلَّ : خصوصيته الدلالة على الذي يحتوي على المائة الألفية من الوصف تقول (عَقَدَ) للذي يحتوي على أكثر من ألف إلى مائة ألف عقدة . ويدل أيضاً على الخلل في الشيء تقول (نَعَمَ) للنغم المختل المضطرب و (مَعَدَ) للمعدة فيها ضعف .

فَعَلَّاء : خصوصيته الدلالة على الامكان من الوصف أي ما يلاقي الزائدة (ble) في كلمة (salvable) أي ممكن التخليص تقول حالة الجـو (سَحَبَاء) أي ممكن أن ينشأ سحب .

فَعَلَّان : خصوصيته الدلالة على الحركة المتصلة وعلى التفعّل والاضطراب خفيفاً أو ثقيلاً تقول منه لاضطراب الأنهر الرقيقة ولاضطرابات الآليات تقول (هَرَمَان) للمضطرب من الهرم . وفي كونه اسماً يدل على الذي يبدو ويختفي كالأضواء القائمة على وضع كيمي .

فَعَلَّانَ : خصوصيته الدلالة على الألف الألفي تقول (عَقَدَان) إذا كان يحتوي على أكثر من مائة ألف عقدة .

فَعَلَّتَى : خصوصيته الدلالة على ما يحدث إثارة عظيمة تقول للقبلة (فَتَيْتَى) أي تثير الفناء و (فَتَيْنَاة) أيضاً .

فَعَلُّوتَى : خصوصيته الدلالة على استيلاء الوصف على الشيء بمبالغة تقول (رَكْبُونِي) .

فَعَلِّيَا : خصوصيته الدلالة على النفاذ إلى الصميم تقول (حَزَنِيَا) أي حالة حزن نافذة إلى الصميم .

فَعَلُول : خصوصيته الدلالة على القابلية السريعة تقول (مَصْحُوح) للشيء يتلاشى وبمصح بسرعة .

فَعَلِيل : خصوصيته الدلالة على ذي الخاصة التي يفرزها في الغير فتكتسب خاصته أو يفعل فيها ذلك ويأخذ اسماً من الخاصة تقول (خنصيص) للنبات السام الذي يضاف على الأشياء ليفعل فيها هذا الأثر .

فاعال : خصوصيته الدلالة على الذي يفعل الوصف بنفسه أو الذي يفعل نفسه ويقوم مقام السابقة الأجنبية (auto) ولكن يغلب في المعنى .

فَاعَل : خصوصيته كخصوصية فاعال ولكن يغلب في الحس .

فَعَال : خصوصيته الدلالة على مثل ما تدل عليه فاعال بملاحظة الملكة وبدل على الخاصية أيضاً .

فَعَالَاء : خصوصيته الدلالة على الانصاف بالمعنى مع محاولة خلافه تقول رجل (شَرَارَاء) يقع في الشر مع محاولة الخير .

فَعَال : خصوصيته الدلالة على المبالغة في الفاعل . وإذا سمي به كان المراد منه ظهور الملكة والتخصص . فإذا قلت (نَوَّار) كان المعنى الشيء الذي يعطي النور بكثرة عن ملكة ثابتة . وأما (نَوَّار) بالتخفيف فالمعنى فيه . الذي خاصيته النور فيقال على (الفوسفور) .

فَعْلٌ

خصوصيته الدلالة على الشيء ذي الوحدة من الوصف تكون في مضاعفات تقول (رَبَّلَ) للذي لحمه في طبقات . ويدل أيضاً على معنى (كثير وأكثر) الذي يقال له في الأجنبية The Comparative أي تفضيل المقابلة . وهو لا يراد منه معنى (أفعل) التفضيل تماماً بل يخص بما الوصف فيه من نفسه بخلاف (أفعل) فهي أصل عام في باب التفضيل مطلقاً .

فَعَلَّةٌ : خصوصيته الدلالة على التطاول المترتب الجانح إلى المستقبل تقول (الدَّكَّةُ) ومعناه سرداب المستقبل المظلم .

فَعْلَانٌ : خصوصيته الدلالة على التكاثر بالانقسام تقول (حَيَوَانٌ) أي حي نقاعي يتكاثر بانشطار الخلية وهو التوالد الذاتي .

فَعُولٌ : خصوصيته الدلالة على التفضيل في الطبيعة تقول (طَبُورٌ) لأعظم الطير سرعة و (فصيلة طَيُّورية) وأيضاً (سَبُوحٌ) لأعظم السمك سرعة . وهو يفيد معنى (الأكثر) الذي يقال له في الاجنبية The superlative أي تفضيل المبالغة .

فَعُولَى : خصوصيته الدلالة على الأقل ملكة مما في (فَعُولَاءٌ) الآتي تقول (ليلة بَرُوقى) أي بروقها ليست من كل الجهات .

فَعُولَاءٌ : خصوصيته الدلالة على الخاصية المتفردة وفي اكمل ما تكون عليه تقول (ليلة بَرُوقاء) .

فَعُولٌ : خصوصيته الدلالة على مضاعفة المبالغة ويكثر فيما هو عددي تقول (شَبُورٌ) للقياس المنبني على اعتبار الشبر .

فاعول : خصوصيته الدلالة على الأشد كثرة في الحس أو المعنى وهو

وَفَعُولٌ وَفَعْلٌ ملاحظ فيها الأفضلية الطبيعية وترتيب معناها (أكثر والأكثر والأشد كثرة) وهذه الثلاثة في نظرنا تنويعات محضة لا تنظر في أصلها إلا إلى معنى واحد تقول (رَوْنٌ) للكثير الصوت و (رَوُونٌ) للأكثر صوتاً و (رَاوُونٌ) للأشد كثرة .

فاعولاء : خصوصيته الدلالة على الكثرة المطلقة في تعمل تقول (آلة قاسوماء) أي تقسم المحجم إلى ما لا يحصى كثرة .

فَعِيلٌ

خصوصيته الدلالة على الشيء الذي يكون أكثر انفعالا بالوصف أو هو مصدر الانفعال أو محل توارد الانفعال . تقول (نَفِقَ) لمصدر النفوق .

فَعِيلٌ : خصوصيته الدلالة على المبالغة في وزان فَعِيل .

فَعِلَانٌ : خصوصيته الدلالة على لزوم الوصف مع تماسك تقول (نَوْرَانٌ) فاعِلٌ : خصوصيته الدلالة على الفاعل إن في الاحياء او الاشياء .

فَعِيلٌ : خصوصيته الدلالة على الطبائع والرسوخ وعلى لزوم الوصف لزوماً لا ينفك إذا سمي به تقول (صنيم) نخبث الرائحة التي تلزم بسبب علل فيزيولوجية في الجسم .

فَعِيلَاءٌ : خصوصيته الدلالة على الصناعي يكاد يكون كالطبيعي تقول (صَوَيْفَاءٌ) للصوف الصناعي الذي يعمل من اللبن المبتكر في ايطاليا وتقول (قَلْبِيَاءٌ) للقلب الصناعي الذي اخترعه الدكتور كاربل .

فَاعِلَاءٌ : خصوصيته الدلالة على الاستطالة في الفاعل تقول (بازناء) أي آلة تحفظ الحرارة في استطالة وامتداد.

فُعْلٌ

خصوصيته الدلالة على المنتصف بالوحدة في لزوم طبيعي أو آلي تقول

(كَلَدَ) للشيء المنجمع بعضه على بعض انجماً لا ينفك إما في الطبيعة كبعض الآفات المرضية وأما في الصناعات كالنوابض « الزنبركات » المضغوطة .

فُعِلَ : خصوصيته الدلالة على المفعولية أو الانفعالية وتخص بمعنى الاستعداد في الأشياء تقول (فلان أدب) أي مستعد للادب ومطبوع عليه . وتزاد التاء فيه لزوماً .

فُعِلَ : خصوصيته الدلالة على الاشتمال والاحتواء في حالي الوصفية والاسمية .

فُعِلَ : خصوصيته الدلالة على الترجف أو ما يشبه التكهرب تقول (رُوكَا) أي صوت الصدى المكهرب ويمكن أن يوضع للموجة الكهروطيسية . فُعِلَ : خصوصيته الدلالة على الذي توجد فيه مضاعفات تجعله صنفاً آخر تقول (خُضِرُ) للأخضر الذي ضوعف في خضرته حتى عد صنفاً آخر من الألوان .

فُعِلَ : خصوصيته الدلالة على الوحدة أو الأصل في الوصف تقول (نُهرَان) لما هو كأنه وحدة الأنهر أو مصدرها .

فُعِلَ : خصوصيته الدلالة على الترائي من الوصف تقول (مطر هُطِلَ) يترأى أنه يهطل ومراة (قُطِرَ) يترأى أنها تقطر .

فُعِلَ : خصوصيته الدلالة على الذي يجمع عدة أفعال من الوصف ويفعلها دفعة تقول (قُفِلَ) للقفل الذي يقفل من جهتين دفعة واحدة .

فُعِلَ : خصوصيته الدلالة على الأول من الوصف والاقدام في الوصف أيضاً تقول (عُمِرُوا) للحج في أول العمر . وأيضاً لأقدم مُعَمَّرَ وليس ضدّاً بل اشتراك في الأولوية .

فُعِلَ : خصوصيته الدلالة على الذي يجمع عدة أفعال من الوصف ولا يفعلها دفعة واحدة تقول (قُفِلَ) للقفل الذي يقفل جهتين أو جهات ولكن على التعاقب .

فُعِلْ

• خصوصيته الدلالة على الشيء المتصف بالصفة العجلى من المعنى في لزوم .
تقول (سُبِحَ) للمنطلق الشديد في البحر .

فُعِلَّ : خصوصيته الدلالة على الاطباق في انتشار ، تقول (دُخِنَ)
للدخان المنتشر المطبق .

فُعِلْ : خصوصيته الدلالة على الذي يلزم لزوماً في غير انفكاك ويكثر
في الظليات . تقول (طُبِعَ) أو طُبُعَةً للملوثة لا تبوخ ولا تمصح .

فُعِلَان : خصوصيته الدلالة على الأصل تنفرع عنه الأشياء أو تقوم عليه
تقول (نُورَان) أي المصدر الموزع للنور و (حُجُرَان) للحجر تقوم عليه
الاحجار كحجر سِنِمَار .

فُعِلَّان : خصوصيته الدلالة على المثوي و (فُعِلَ) للدلالة على الاحادي
و (فُعِلَّ) للدلالة على العشري تقول (عُقْدَان) لما يحتوي على مائة عقدة
إلى الف و (عُقْدَ) لما يحتوي على عشر إلى مائة و (عُقْدُ) لما يحتوي على
عقدة إلى عشر .

فُعُول : خصوصيته الدلالة على الذي يفعل مضاعفة عددية إن في الطبيعة
أو الصناعة تقول (سُبُور) للذي يسير مضاعف معدل النسبة العامة للسيارات
السريعة .

فُعِلَى : خصوصيته الدلالة على ما يكون بسببه الوصف تقول (لُعْبَى)
لمن يثير اللعب ولا يلعب وبعبارة أوضح خصوصيته الدلالة على كل ما يثير
صفة في غيره دون أن يكون متصفاً بها ...

فَعَلَ

خصوصيته الدلالة على الذي يأتي الوصف من أخفى وجوهه حقيقة أو على التنزيل مع المبالغة فيه تقول (خُدَّعَ) للذي يخدع خدعة خفية .

فُعِلَّة . خصوصيته الدلالة على التطاول المترتب الجانح إلى الماضي تقول (الدُّبْلَة) لسرداب الماضي المظلم على التجوز .

فُعَلَاء . خصوصيته الدلالة على مثل الترائي أو الاعتقاد وبعبارة أشمل الوصف على التوهم تقول (نُهَرَاء) للنهر الراكد الذي يوهم أنه جار .

فُعِّلَى : خصوصيته الدلالة على التطفل الخفي كالأشباح والأوهام وما إليها تقول (عُجِّهَتَى) و (عُجِّهَتَا) للمتكبر على الوهم ..

فُعَالَ : خصوصيته الدلالة على الأمراض ويكثر في المزايلة منها مثل صداع . ويدل أيضاً على الانطباع بالشيء أي على مثل لاحقة (grah) تقول (روان) للفنوغراف .

فُعَالَ : خصوصيته الدلالة على طبع الانطباع إذا وضع على بناء (فُعَالَ) تقول (طُبَّاع) آلة تصوير المطبوع و (طُبَّاع) الاكليشية وإذا لم يوضع على بناء (فُعَالَ) كانت خصوصيته الدلالة على الملكة المصطنعة أو على شبه الملكة بمبالغة أي على شبه (فُعَالَ) وبعبارة أخرى الذي تكون له صفة غالبية تجعله يوصف بصفة غيره خذ (عُوَّار) الذي هو البثر في العين مما يجعلها أشبه شيء بالعوراء وعليه فيوضع منه تخصيصاً للشيء الكاذب ومن (فُعَالَ) للشيء الصادق تقول (مرض حَرَّاق) إذا كان شديد الحرق حقيقة و (حَرَّاق) إذا كان يوهم كذلك .

فُعَالَى : خصوصيته الدلالة على تدرج الشيء في الانطباع بالصنعة أو على فترات الانتقال. تقول (ثمر نُضَاجَى) أي في فترة النضوج .

فُعَالَى : خصوصيته الدلالة على الانطباع الطبيعي أو شبهه ونعني بالطبيعي مطلق ما لا دخل للانسان في صنعه فيقال لصور الأحجار التي توجد كذلك في الطبيعة تقول (وجدت زُهارَى) أي حجرة مرسوم عليها زهرة ويقال بهذا المعنى من فُعَال .

فُعْلَان : خصوصيته الدلالة على الطفيلي على الأشياء مطلقاً تقول (رُزْزَان) أو (رُزَّان) للصوت الطفيلي على الأصوات مما يصلح أن يكون مقابل كلمة (Parasite) على الأصوات . وإنما أخذناه من (فُعْلَان) أيضاً بهذا المعنى لأنه يقارب (فُعْلَان) بالدلالة وأخف منه . وتقول (كَتَبَان) للكتابات التي تضاف بين الاسطر للتوضيح أحياناً وهكذا مما يشاهد في المطبوعات التركية .

فُوعَال : خصوصيته الدلالة على التداخل والنشر أي ما يفعل هذا الفعل تقول (ظُوهَار) لكل ما يختفي ويظهر .

فِعْل

خصوصيته الدلالة على المحدود . وعلى الضئيل الناعم تقول (نِصْل) للنصل الذي لا يترك دقيق الشعر وتسمى به (آلة الحلاقة تحت الصفر) و (نِعم) للناعم جداً ويسمى به المسحوق (البودرة) .

فِعْلِيل : خصوصيته الدلالة على الضوولة البالغة على معنى أنه يدل على ما هو دون معدل الصفر كثيراً تقول (نِصْلِل) لآلة الحلاقة التي هي دون الصفر بعدد كبير .

فِعْلِيم : خصوصيته الدلالة على التكاثرات والامتزاجات وعلى مثل الدوائر في الشيء تقول (خِضْرِم) للخضرة دخلتها تكاثفات تلوينية و (لِينِم) لمطلق اللون الذي دخلته تكاثفات .

فِعْلَمَ : خصوصيته الدلالة على ما دون أن يقال عليه الوصف أو على الأقل النسبي عما يقال عليه الوصف تقول (لِينَمَ) لمطلق اللون الذي هو أخف من أن يوصف بصفة من الألوان الرئيسة وتقول (خِضْرَمَ) للأخضر الفاتح ..

فِعْلَيْن : خصوصيته الدلالة على ضؤولة الوصف الباطني . وعلى الخلاصة الروحية تقول (قِدْسَيْن) بمعنى الطهر الباطني الضئيل .

فِعْلَاء : خصوصيته الدلالة على أداة الايصال من بُعد تقول (صِبْتَاء) أي أداة ايصال الصوت البعيد و (الرِبْتَاء) أي أداة الرون ويصلح اسماً للميكرفون .

فِعْلِيل : خصوصيته الدلالة على الاقتران بالشيء اقتراناً كالاتحاد تقول (إِرْضِيض) لما يقترن بالأرض من المعادن الأولية و (زِغْبِيْب) لما يقترن بالزغب من اللوييات تقول فصيلة (زِغْبِيِيَّة) ..

فِعْلِيْت : خصوصيته الدلالة على الاستتار في الوجدان أو الضمير الرجوع إلى التحولات المندثرة تقول (إِبْدِيْت) للذي تحتكم به روحان إحداهما جبلية والأخرى عصرية . وبعبارة أوضح يدل على الرجوع إلى التاريخ السحيق والابتعاث فيه ويدل ايضاً على ما خالط الوجدان أو حل في موطنه تقول (عِقْرِيْت) للذي ينطوي على ألم مرير كأن فيه عقراً ينز على الدوام فهو يتأفف منه .

فِعْلَيْن : خصوصيته الدلالة على ما ينزل منزلة اللاحقة (ine) في الأجنبية كفسفورين ، ويدل أيضاً على الأصل الفعال في الأشياء تقول في (الشاي) إذا عددناها كلمة من العربية باعتبار أنها قد تمكنت فيها إلى حد أنها أخذت مسحة عربية ساذغة ، ويمكن انزالتها منزلة كلمة (باز) الطائر المعروف

وعليه فتكون الألف متقلبة عن (واو) فيقال في بناء فِعْلَيْنِ منها (شَوَيْنِ) وبالإعلال الواجب (شَيَيْنِ) لاشاين (ومن) قهوة (قَهْوَيْنِ) لا (قَهْوَيْنِ) .

وخصوصية هذا الوزن العامة الدلالة على انجماع الوصف في شيء من أشياء أو في جزء من كل . لاحظ جيداً (غِسْلَيْنِ) التي بمعنى ما يغسل من الثوب . وإذا لاحظت أنه يرد إلى (غِسْلَ) ومعناه الماء يغتسل به كان معنى الوزن الذي ينفعل بالغسل . وبما أنه جاء بمعنى المدّة والصديد أيضاً فلا بأس من أن نجعل له اصطلاحاً طبيّاً ويراد به الإفرازات المتغيرة مطلقاً تقول (صفْرَيْنِ) لإفراز الصفراء المتغير و (بَيْلَيْنِ) للبول المتغير وهكذا .

فِعْلِيَاء : خصوصيته الدلالة على وحدة الصفة النفسية التي أصبحت وجداناً وطبعاً تقول (عِشْقِيَاء) أي وحدة انفعالات العشق .

فِعْلُوءَة : خصوصيته الدلالة على المستخفي وله عمل افرازي تشق على سته لشجر (Caoutchouc) وغيره من النباتات مما له هذا العمل ومنه نشق (جِحْنُوءَة) للمغازز تكون في منعطفات الأشجار تفرز افرازاً ما . وفي الطب يدل على ما في الغدة من المادة تقول (جِبْنُوءَة) ترجمة للكلمة (Thyrosis) أو Thyrosin اللتان تطلقان على مادة منعقدة ناشئة عن انحلال المادة الأولية .

فِعْلِيَّة : خصوصيته الدلالة على البَعَثَرَة مطلقاً تقول (حِبْنِيَّة) داء له بعثرة في الجسم .

فِعْلِيَّان : خصوصيته الدلالة على المايل إلى الشيء أي ما يقوم مقام اللاحقة (ish) في الانكليزية من مثل (greenish) أي مايل إلى الخضرة . ويدل على الذي يتعلق بالوصف تقول (طَيْرِيَّان) وهكذا . وقد يوضع منه للدلالة على المعنى الذي يشف عنه الحس تقول (شِيرِيَّان) أي النحالة في

صناديق زجاجية تعيش فيها النحلة ويرى من خلالها كيف تقوم بوظيفة التعسيل .

فِعْلَانٌ : خصوصيته الدلالة على الشيء المحشو من معنى الوصف أو في معنى الوصف تقول (مِلَّانٌ) أي خبز محشو بخبز ويصلح أن يوضع اسماً (نخبز فينو) .

فِعْوَلٌ : خصوصيته الدلالة على الآفة مطلقاً أو المرضية فقط بدون تخصيص بشيء من نبات أو حيوان تقول (لِبَوَطٌ) للداء يصيب الابط و (عِضْوَلٌ) للداء يصيب العضل .

فِعْوَلٌ : خصوصيته الدلالة على الذي له طبيعة لينة لإلأنه يتصلب أو يفتعل التصلب تقول (قِشْوَرٌ) للقشر اللين يتصلب .

فِعْوَالٌ : خصوصيته الدلالة على التجمع من شتى الأشياء مع عدم وجود الفة بينها يدخل في الكيمياء وغيرها تقول (لِيَوَانٌ) أي لون متجمع من عدة ألوان ليس بينها الفة .

فِعْيَالٌ : خصوصيته الدلالة على التجمع كذلك من شتى الأشياء مع وجود الفة . تقول (لِيَيَانٌ) أي لون يجمع من عدة ألوان بينها الفة وتقول (طِيَّاسٌ) أي جمال مع تناسب والفة في التقاسيم والأعضاء .

فِعْيَلٌ : خصوصيته الدلالة على الالفة النفسية وبعبارة أوضح يدل على التعشيق بين الأشياء في النفس . تقول (ظَرِيفٌ) للألفة بين الطرائف المختلفة في النفس . ويدل أيضاً على كل ما له اتصال بالنفس تقول (حِجِينٌ) أي اعوجاج نفسي .

فِعْيَوَلٌ : خصوصيته الدلالة على المركبات التي تأتي بعمل تفاعلي سواء كان آلياً أو طبيعياً أو عضوياً ولكن يغلب في الآلي تقول (كَبْيَوَنٌ) للآلة

المركبة من قطع تحدث تفاعلاً من الوصف الذي هو العدو في استرسال سريع .
ومن هذا الوزن يوضع لأي محرك (motor) وتقول (بَزِيَوْن) لمطلق
المحتفظ بالوصف من حرارة أو برودة .

فِعِل

خصوصيته الدلالة على الشيء الذي يتعدد فيه نظير الوصف تقول (يَهْز)
للاّلة التي لها عدة دفعات عنيفة بالتوالي .

فِعِلّ : خصوصيته الدلالة على التعمير الحيوي بانفصالات وغير الحيوي
بتولدات ذاتية تقول (كَتَبّ) للكتاب الذي مضى عليه زمن واحتفظت به
ظروف كأوراق البردي المكتشفة في (تل العمارنة) أو تسمى (سِجِلّا)
بهذا الملاحظ . وفي (العددي) يدل على أكثر من المليون تقول (عَقِدّ) إذا
كان يحتوي على أكثر من مليون عقدة .

فِعَلَّان : خصوصيته الدلالة على الصفة البالغة في الشيء تقول (حَرَّ كان)
للبالغ الحركة . وفي العدد يدل على (المليار) فأكثر العدد تقول (عَقِدَّان)
إذا كان يحتوي على مليار فأقصى العدد .

فِعِلّيّ : خصوصيته الدلالة على الانتشار والتقبض نتيجة عمل آلي تقول
(الرِسْنِيّ) للاّلة تطوي الجبل وتنشره .

فِعْلَعَال : خصوصيته الدلالة على الذي ينفع بمرعة ويدوم انفعاله
طويلاً تقول (سِخِطْخَاط) أي يسخط بأشد ما يكون سرعة .

فِعَل

خصوصيته الدلالة على اقتران المتعدد في الوصف اقتران خليط أو اقتران
إزاء تقول (إِبْز) للشيء يكون على أطراف تتوثب على اقتران .

فِعَال : خصوصيته الدلالة على التكاثف تقول (منظر ظيّهَار) أي ظاهر من خلال تكاثفات .

فِعَال : خصوصيته الدلالة على شدة التكاثف دون الشيء تقول (حِبَار) الحيوان البحري الذي يولد الحبر ويختفي فيه .

فِعَلَاء : خصوصيته الدلالة على الثني والامتداد هنا وهناك تقول (نِهْرَاء) للنهر المثني الممتد .

فِعَالَة : خصوصيته الدلالة على العلم أي ما يقوم مقام لاحقة (Log y) في الأجنبية تقول (نِبَاتِيَة) أي علم النبات و (صَحَافَة) أي فن تتبع الخبر اليومي والتعليق عليه . .

فِعَلَن : خصوصيته الدلالة على المنفعل كثيراً بالباطن وبعبارة أخرى الذي تسلط عليه آثار الباطن تسلطاً شديداً. ويدخل فيه المنفعل بمناطق اللاشعور تقول (شِعْرَن) لمن يتسلط عليه شعور باطني عميق .

فِعَلَنِيَّ : خصوصيته الدلالة على التكيف بصفة أو شكل أو القدرة على التشكل مطاقاً تقول (صورُونِيَّ) لمن يتصور بكل صورة أرادها .

فِعَلَنَاءَة : خصوصيته الدلالة على خصوصية (فِعَلْن) ولكن بزايدة وهي الدخول من تأثيرات الباطن في سبات شديد تقول (شِعْرَنَاءَة) لمن يسبت تحت شعور ما .

فِعَلِيَّ : خصوصيته الدلالة على الاتصاف بالشيء على تفرد وامتياز تقول (الدَنْقِيَّ) لأشد الأمراض بحيث يتميز من بينها .

فِعَلَّ : خصوصيته الدلالة على الاستطالة من الوصف تقول (رِنَنَّ) للشيء ذي الرنين الطويل الصدى والرجع .

فِعَلَّ : خصوصيته الدلالة على التجيب أي الكون حبّاً تقول (خِلَصَّ) لعظم الاذن الدقيق الذي له عمل دائم من قولهم (خلص) العظم نشط .

الزيادة بالهمزة :

أَفْعَل : خصوصيته الدلالة على التفضيل مطلقاً . فاذا وضع اسماً كان الملاحظ فيه مضاعفة الوصف .

أَفْعَال : خصوصيته الدلالة على التفضيل المطلق ويظهر أن هذا الوزن هو اسم التفضيل القديم في العهد الصوتي وقد تطور إلى (أَفْعَل) وتوسعاً قبل الصيغتين . ونخص الأول بالتفضيل النسبي والثاني بالتفضيل المطلق . ومن هذا الوجه قد يشابه ما هنا . ثلاثة الموازين السابقة وهي (فَعْل) و (فَعُول) و (فاعول) والفارق بين الطائفتين أن (أَفْعَل وَأَفْعَال) ملاحظ في خصوصيتهما الأفضلية الاقتسارية . و (فَعْل) واخواته ملاحظ فيها الأفضلية الطبيعية .

إفْعِل : خصوصيته الدلالة على الندرة المطلقة ويدل أيضاً على علائم الأشياء المطلوبة تقول (إعلمة) للعلامة التي يستدل بها المهندس الجيولوجي على البرول . ولا يبعد أن يكون هذا الوزن متحلاً عن وزان (إفْعِل) .

إفْعِيل : خصوصيته الدلالة على ما وراء الظواهر أي يدل على الاستخفاء تقول (فلان له إعقيلي) أي تعقل باطني وانجذاب إلى الاشعور و (فلان عنده إعريقي) أي تعرف وتكهن باطني و (إكليمي) أي تكلم في الباطن مما يصلح أن يكون ترجمة لكلمة (فترلو كستس (١) في الأجنبية (أي المتكلم في الباطن) .

إفْعَل : خصوصيته الدلالة على مطلق الآلي وأيضاً على الشيء الذي تنجم به المواد أو تنفصل . وبعبارة أخرى يدل على ما يفعل فعل آلة خفية في غيرها من غير أن يكون آلة . وعليه فيشتق منه لكل التجربات الكيميائية والتحليلية .

(١) راجع كتاب الفلسفة العقلية للدكتور دانيال بلس ص ٢٥

فيقال لعملية تحليل الماء (إمَاهَة) ويظهر أنه متطور عن (إفْعَال) .

إفْعَال : خصوصيته الدلالة على الآلي المحكم وعلى التفعّل أو التعمّل الذي يثور وتظهر أثاره فنقول منه للمواد التي إذا وضعت على بعضها أحدثت أثراً شديداً . ويظهر لي أنه محمول عن مصدر الرباعي وليتبه هنا إلى أن التسمية بمصدر الرباعي من (أفْعَل) سواء في الحس أو المعنى لا يكون إلا بملاحظة معنى (السلب والازالة) ولاجل أن لا يشتبه تخصّ الناء في غير المصدر لزوماً .

أفْعِل : خصوصيته الدلالة على التفرّق في الدقائق والانتشار المحدود .

أفْعُل : خصوصيته الدلالة على الامتداد في تقطع أو في ذبذبات وتكسر فيقال منه للموجات الصوتية القصيرة وما يشبهها كالدخان المتقطع من مدخنة آلية تقول (أدْخُن) : وهو متطور عن وزن (أفْعُول) .

أفْعُول : خصوصيته الدلالة على الامتداد في استواء واستطالة فيوضع منه للموجات الطويلة وما أشبهها .

إفْعُول : خصوصيته الدلالة على ضد (فَعُول) أي يدل على نفسي المبالغة والمبالغة في السلب تقول فلان (سَخُوف العيش) أي رقيقه وفلان (إسْخُوف العيش) أي عديمه .

أفْعَلَى : خصوصيته الدلالة على الاستغراق أو على الكل تقول جاء الخصم (بالأشْهَدَى) عنده أي بكل شهاداته .

إفْعَلَى : خصوصيته الدلالة على الانتشار الخفي المصدر تقول تسري في البلد (إكَلَمَى) أي كلام منتشر غير معروف المصدر .

أفْعَلَة : خصوصيته الدلالة على التخصيص أو التخصّص تقول هذا مكان (أهْصُر) و (آلة أهْصُرَة) أي تخصّصت للهصر .

أفْعَل : خصوصيته الدلالة على الفاعلية المقاومة على استمرار تقول (رجل أدْأَثِر) أي متمول بالمراعاة .

إِنْفَعَلَ : خصوصيته الدلالة على الاتصاف بالمعنى لسبب باطني تقول
(رجل إِنْسَهَمَ) أي ساهم اللون لعله مرضية . ويظهر بأن هذا الوزن أصله
(فَعَلَ) زيدت عليه الألف والنون كسابقة .

أَفْتَعَلَ : خصوصيته الدلالة على المنفعل بشيء والفاعل في شيء آخر
وبعبارة أخرى يدل على المكتسب للوصف بحيث يكون مصدرأ له يكسبه
للغير . تقول (أَجْتَذَبَ) للقطعة من المعدن تمنغظ بحيث تنقل الأثر إلى قطع
أخرى . ولسريان التجاذب في قطع كثيرة على التسلسل وربما كثر هذا الوزن
في الثلاثي بالتضعيف كثرة مطلقة . والذي أظن فيه أن أصله (فَنَعَلَ) زيدت
عليه الهزمة لافادة تعدية الأثر .

أَفْعُلَانَ : خصوصيته الدلالة على استيلاء المعنى على الشخص استيلاء
بأخذ عليه مذهبه وبعبارة أخصر الانطباع بالشئ يقال (رجل أَرْفُنَان)
متعلق بالرقص كذلك .

إِفْعُلَانَ : خصوصيته الدلالة على التعلق العقلي والقلبي والشعوري بالوصف
ويدخل فيه الأمراض العقلية بهذا النوع . ويستعمل في الآليات توسعاً . تقول
(رجل إَغْرِسان) استولت عليه فكرة الغراس استيلاء ملكه .

أَفْعُلَانَ : خصوصيته الدلالة على التحولات التي تشمل الشيء من أطرافه .
وتكون تحولات تغييرية . ويشمل التحولات العنصرية في الكيمياء .

إِفْعِلَاءَ : خصوصيته الدلالة على علائم الأشياء غير الطبيعية وعلى الآثار
غير الطبيعية مطلقاً تقول (إِظْلِمَاءَ) أي ظلمة ناشئة عن سبب غير طبيعي .

أَفْعِلَاءَ : خصوصيته الدلالة على انجماع اللطائف وضغطها فيوضع
منه للهواء المضغوط وما أشبه .

فَاعَلَ : خصوصيته الدلالة على الجزء (كالذرة) .

فَعَال : خصوصيته الدلالة على الأقل جزئية (كالذرية) .

فُعَائِل : خصوصيته الدلالة على التحامل تحت الشيء . وعلى الكل في الأشياء التي لا تقبل مهاياها القسمة وانما تفرض فقط .

الزيادة بالتاء :

تِفْعَال : خصوصيته الدلالة على تجسم المعنى . وعلى الخفي واللطائف والأفكار . لاحظ بدقة قولهم (تمثال) أي تمثيل و (تمثال) أي صورة شاخصة تقول (تِظْلَال) للظل بتجسم فيصير صورة .

تَفْعَال : خصوصيته الدلالة في غير ما يكون مصدرأ الدلالة على جمع أجزاء المعنى في نقطة أو بؤرة تقول (تَظْلَال) اسماً لمحل اجتماع أجزاء الظل في آلة التصوير . وعلى الاجتماع أيضاً .

تَفْعَل : خصوصيته الدلالة على ما يحدد الوصف المادي كل حين تقول (شجر يثمر) و (فصيلة يثمرية) للاصناف التي تثمر في العام مرتين أو أكثر ...

تُفْعَل : خصوصيته الدلالة على المنفعل من الوصف لأسباب غير معروفة لكنه تقول (رجل تُفَزَع) أي يُفَزَع من غير أسباب معروفة . ويظهر أنه ينظر إلى الفعل المضارع المبني للمجهول .

تُفْعُل : خصوصيته الدلالة على المنفعل من الوصف بأسباب مشتركة من نفسه ومن الغير تقول (تُنَوَّر) للحشرة التي تضيء في الليل . ويظهر أنه ينظر إلى (تَفْعُل) ولكن أخذ بالاتباع فقط كما قرر سيبويه في (يُفْعُل) ...

تِفْعِيل : خصوصيته الدلالة على مجيء الشيء في غير الألوان عادة تقول

(تَحْيِل) أي حبل في غير الألوان . ويظهر أنه اتباع لوزان (تَفْعِيل) ويدل على هذا أن أكثر كلماته تبيء على أوجه مختلفة . فمثلاً (تحلبة) جاء بضم التاء واللام ، وبكسرهما ، وبكسر التاء وفتح اللام ، وبضم التاء وفتح اللام .

تَفَعَّلَ : خصوصيته الدلالة على مجيء الشيء في غير الألوان مطلقاً . ويظهر أنه وزان قبلي ينتسب إلى القبائل التي تكسر حروف المضارعة . هؤلاء الذين نقدر أنهم متأثرون بالمنطق السرياني وهذه إحدى ظاهراته ...

تَفَعَّلَ : خصوصيته الدلالة على كون الشيء بين بين في الوصف تقول (تَتَوَلَّى) أي حادثة بين السحر والحقيقة . وهذه الأوزان متداخلة كما هو ظاهر من كلماتها التي لا تكاد تنضبط فما من كلمة إلا وفيها وجه جواز من ضريعتها . خذ (تتفلة) التي جاءت كتنضبط وقُنْفُودِ رَهْمَ وجَعْفَرٍ وزِبْرِجٍ وجُنْدُب ...

تَفَعَّلُوت : خصوصيته الدلالة على الذي يتصف بالوصف عند حدوث الحادث فقط أي يدل على مصاحبة الوصف للحادث الذي يفعله فقط تقول (تَرَعْمُوت) أي لا يرغم إلا عند اليأس .

تَفْعِيل : خصوصيته في غير ما يكون مصدرًا للدلالة على ما يكون أداة للوصف تقول (تلوين) لأقلام التلوين ...

تَفْعِيلَة : خصوصيته الدلالة على الاجادة في الوصف تقول (آلة تحديده) أي تحكم التحديد . وكذلك وزان (تَفْعَالَة) و (تُفَاعِلَة) و (تِفَاعِلَة) و (تَفْعِيل) وان كان لها خصوصيات أحياناً فإنها مقاربة
تَفَعَّلَ : خصوصيته الدلالة على الآفة تحدث من الوصف تقول (تَأْبَرَة) اسماً لربو (١) المحددين الذي ينشأ من غبار الابر . وكذلك (تِفْعِيلَة)

(١) راجع دائرة البستاني ج (١) كلمة (إبرة) ومعجم شرف الطيبي

تَفْعُول : خصوصيته الدلالة على لين الوصف تقول (شجر تَخْشُب)
أي لين الخشب

تَفْعِلَة : خصوصيته الدلالة على الذي تهيؤه الظروف طبيعية أو عادية
تقول (بصورة) للصورة التي تحدثها الطبيعة . كقطعة الحجارة التي تمثل
شيخاً عجوزاً بلحيته وهي من عمل الأمطار وتأثير هطولها

تُفْعُول : خصوصيته الدلالة على الاداة غير المباشرة في الوصف تقول
(تُنْسُوخ) للكتابة بورق الكربون . ويظهر أنه اتباع لوزان (تَفْعُول)

تِفْعِل : خصوصيته الدلالة على (البهلوانية) تقول (تَخْطِر) أي لعبة
خطرة بهلوانية ...

تُفْعَل : خصوصيته الدلالة على الأشياء التي تأتي في المناسبات أو معها
تقول (تُرْبِع) للنبات الذي يأتي مع الربيع

تَفْعَل : خصوصيته في غير ما يكون مصدراً للدلالة على أظهر خواص
عمل الشيء تقول (تَمْشُط) أي آلة تصنع الامشاط وسواها ولكنها أكثر
في الامشاط ...

الزيادة بالميم :

مُفَاعِل : خصوصيته الدلالة على المتصف بالمفاعلة بين منفعلين تقول
(مُدَاوِر) للذي يدبر شيئاً آخر في حركة دورانه كما في الدواليب المتعاشقة .

مَفْعَلَان : خصوصيته الدلالة على الموازين مطلقاً تقول (محر كان)
لميزان الحركة و (محتكان) لميزان المشي وهو آلة على شكل الساعة ترقيم
الخطوات عند المشي وإذا كان وصفاً دل على المبالغة في دقة

مَفْعِلَاء : خصوصيته الدلالة على الذي يوجد في المكان ولا يكاد يميز

عنه تقول (مخنزاء) للذي يوجد في مكان العفن والتفن ولا يكاد يتميز عنه مما يصلح أن يسمى به ميكروب العفونة

مَفْعَلٌ : خصوصيته الدلالة على المضاعفة والتضاعف تقول (مَوَزَقِي) للورق المقوى . وعلى الورق يجعل لفائف . وهو يرجع إلى (مَفْعَلٌ) الذي له عين دلالة تقول (مَوَزَقٌ) بالمعنى نفسه . وهذا يرجع إلى (مَفْعَلٌ)

مِفْعِلٌ : خصوصيته الدلالة على مطلق ما يعمل عملاً حرّاً كياً (١) وهو يرجع إلى (مِفْعِلٌ) وهذا إلى (مِفْعِلٌ) ولها جميعها خصوصية واحدة تقول (مِفْتِاحٌ) و (مِفْتِاحٌ) و (مِفْتِاحِي) للمفتاح الحرّاكي ...

مِفْعِيلٌ : خصوصيته الدلالة على المتأثر بتأثيرات خفية تضاف إلى عالم الغيب ولو نسبياً وبعبارة أخرى انفعال عالم الشهادة بعالم الغيب مطلقاً ومن ثم يصبح أن يصاغ منه للموازن أيضاً . كميزان الحرارة والمطر وهكذا . وضروري أن يكون مع ذلك يدل على المعنى بدقة . ويظهر أنه الصوتي الذي يرجع إليه (مِفْعِيلٌ) وهو اتباع لوزان (مَفْعِلٌ)

مَفْعُولٌ : ظاهر الخصوصية .

مِفْعَلٌ : خصوصيته الدلالة على الآلة . وكذلك (مِفْعَالٌ) وكذلك (مِفْعَلَةٌ) .

مَفْعِلٌ : خصوصيته الدلالة على الزمان والمكان ...

مُفْعَلٌ : خصوصيته الدلالة على الانظراف في الشيء تقول (مُنْفَسٌ) أي المنظر في النفس من أشياءها ...

مُفْعُلٌ : خصوصيته الدلالة على ما يكون آلة للشيء ومكاناً له تقول

(١) هذه الكلمة من وضعنا الجديد ترجمة للمصطلح الاجنبي (automatic) وتكاد تكون ترجمة وافية وذلك لأن وزان (فعال) يدل على الجزء الأول منها والمادة تدل على الجزء الثاني

(مُمَرِّط) لالة تصنع المروط وتكون وعاء لها و (مُقْمَح) لالة التي تنقي القمح وتكون وعاء له .

مَفْعُل : خصوصيته الدلالة على مثل اللاحقة الأجنبية (Scope)
تقول (مَنظُر) بمعنى المجهر (microscope) ...

مَفْعُلَان : خصوصيته الدلالة على الشيء الذي يجمع كل أسباب الوصف
تقول (مَنصَرَان) للموضع توجد فيه كل أسباب النصر . وأيضاً يدل على
الموضع يستكن فيه ويطمئن اليه تقول (مَقْمَرَان) للمحل الذي يستطاب
الجلوس عليه في ضوء القمر . و (مَشْمُسَان) لحمام الشمس . ويدل أيضاً
على مضاعفة خصوصية (مَفْعُل) تقول (مَنظُرَان) للمجهر المضاعف .

مِفْعَل : خصوصيته الدلالة على ما يعمل عملاً ذاتياً . وأيضاً على التمكن
من الشيء تمكناً لا يفارقه . ويدل على طريق الشيء وطريقته . تقول (محلَّب)
للعاء الذي يحلب به وله عمل آلي كمثل (The surge milker) ...

مُفْعُول : خصوصيته الدلالة على المفعول في الباطن تقول (مَكْتُوب)
للمكتوب في الذهن (ومَقْرُوء) للمقروء بالملاحظة الذهنية ...

فُعَامِل (١) : خصوصيته الدلالة على العروض والعلوق تقول (مَرَامِض
للمرض يصيب الشخص ويلتق بحيث لا يفارق و (عُلَامِي) للحيوانات
ذات العلوق . وكذلك (فِعْمَال) (٢) و (فِعَامِل) (٣) .

زيادة النون :

فِنَعَال : خصوصيته الدلالة على كون كل ناحية من الكل موصوفة
بصفة ما منه الاشتقاق تقول (مِيعَاد) أي حيوان يهضم بكل جزء من أجزاء

جسمه أي كل جزء فيه معدة مستقلة كالأخطبوط فيقال (الفصيلة المنعادية) ويستعمل مجازاً في الشره وهو تجوز مستملح ...

فِعْنَال : خصوصيته الدلالة على استيلاء الوصف على الشيء استيلاء شديداً ثم لا يمصح عنه إلا بعد أمد طويل . تقول (خِينَاف) أي يستولي عليه الخوف ولا يزول إلا بعد مدة طويلة .

فُنَاعِل : خصوصيته الدلالة على استيلاء الوصف كالسابق ولكن يزول بسرعة جداً تقول (خُنَاف) .. أو الأول وهو (فِعْنَال) يدل على تراكم الشعور من نوع واحد كالخوف الشديد ، فانه في الواقع عدة شعورات خفية اجتمعت . والثاني وهو (فُنَاعِل) يدل على الشعور البسيط أو الشعور الواحد

فَعَنَلَى : خصوصيته الدلالة على الانتقال بالحس إلى المعنى تقول (عنده فَرَتْنَصَى) أو (فَرَتْنَصَا) أي تمزق وتقطع روحي أو عقلي ...

فُنْعَلَاء : خصوصيته الدلالة على المائية أي الاتصال بالماء أو الانقلاب إليه أو الذي فيه مائية تقول (الفُنْصَلَاء) للحاجز يقام في المياه وكذلك خصوصية (فُنْعُل) .

فُنْعَلَاء : خصوصيته الدلالة على الغاز أي الاحتواء عليه أو الانقلاب إليه تقول (دُنْفَنَاء) للغاز المدفون . وكذلك خصوصية (فُنْعُل) تقول (دُنْفَن) ...

فَعَنَلَى : خصوصيته الدلالة على الماضي مطلقاً و (فُعَنَل) يدل على الماضي الغامض

فَعْنَالَك : خصوصيته الدلالة على الشيء يقابله مثله فقط تقول (غَيْرِنَسَاس) أي غراس في مقابلها مثلها . وقد يدل على الذي يعطي كأنه

مثل ذي الوصف

فَعَنْلُوةٌ : خصوصيته الدلالة على ما يكون اداة آلية للمعنى تقول
(قَمَنْسُوة) لآلة الغوص في الأعماق ...

فَعَنْعَلٌ : خصوصيته الدلالة على الاتساع والتراكم بحيث يأخذ المسارب
تقول (عَكَتَكَر) للذي يكر من كل الجهات على اتساع وتراكم تقول
(سيل عكنكر) ...

فَعَنْلَلٌ : خصوصيته الدلالة على الضخامة في غير توازن ولا ضبط تقول
(فلَنْجَج) أي عظيم التقسيم في غير ضبط ...

فُعَنْلٌ : خصوصيته الدلالة على ما له باطن على خلاف الوصف تقول
(عُقْنُد) للمشود الذي له باطن متحلل كشجر الاراك ...

فَعَنْلَة : خصوصيته الدلالة على التصنيف والتوزيع جماعات ويقال
بلون تاء تقول (حَرَنْبَة) و (حَرَنْب) لتصنيف الحرب ولنظام التعبئة ...

فَنْعَلِيلٌ : خصوصيته الدلالة على تضاعف العمل مع انفعال باطني تقول
(خَنْرَقِيق) لكل ما يعمل خرقاً مضاعفاً وهو مجوف ...

فُنْعَلٌ : خصوصيته الدلالة على الطبقات من الوصف تقول (قُنْتر)
للرجل الذي يخله في طبقات مجازاً . وعلى الأزمة الحانقة التي تكون كآزمات
متداخلة .

فُنْعُلٌ : خصوصيته كخصوصية (فُنْعَل) إلا أنه يفيد مع ذلك وجود
فراغ بين الطبقات تقول (قُنْدُر) للقدر الذي في طبقات بينها فراغات مما
يصلح أن يكون ترجمة لكلمة (diplom) التي تراد في الاصطلاح الكيميائي
للعاء على شكل مغرة النجار والغرض نفسه ...

فَنَعْلَ : خصوصيته الدلالة على ما يكون علامة من الوصف بصورة
وبيلة أو يكون بسبب الوصف تقول (فَنَوْرَ) بمعنى الذي يسبب التفسر
العظيم ...

فَنَعْلَ : خصوصيته الدلالة على الذي يثبت على وصف واحد . تقول
(فَنَوْرَ) للدائم الفوران وعليه فيوضع للنوع الحارة التي ترتفع إلى بعد .
فَنَعْلُو : خصوصيته الدلالة على ما يفعل الوصف على صورة بعرة تقول
(رَنَجَزَوُ) أي سيارة تسير في التواء .

الزيادة بالهاء :

هِنَعَوْلَة : (١) خصوصيته الدلالة على اشاعة الوصف بحيث ينتسب إلى
كل جزء على الانفراد تقول (هِرْمَوْلَ) للأرض التي تشيع الرمال في كل
انحائها . وهذا الوزن ليس متفقاً عليه وانما أثبتة التحليل اعتماداً على مثل
(هِرْمَكَوْلَة) .

الزيادة بالواو :

فُعَوَال : خصوصيته الدلالة على العلامة للشيء أو في الشيء ويدخل فيه
الدلالة على الأصوات التي تحدث عند انتهاء المحروقات أو التي تكون للخلل في
الآلات تقول (عُجَوَارَ) أي فيه دلائل على حدث مستقبل و (رُوَّانَ)
للأصوات المنبعثة عند فراغ المحروقات ...

فَوَعَال : خصوصيته الدلالة على الالتفاتات على النفس أو الذات . الناشئة
عن القوة كما في الاعاصير والتيارات . وعلى كل ما يعطي هذه الالتفاتات .

(١) ليس من سبويه بل من ابن جني في التصريف الملوكي ص ١٥ .

ولو شكلاً والذي يتحرك تحركاً اسطوانياً . ولكن يغلب استعماله في القوى كالكهرباء . تقول (دَهْوَان) للدهان الذي يعطي التفافات بلمعانه ومجازاً للرجل الذي كأنه في لفائف من نفاقه ...

فَوَعَلَّ : خصوصيته الدلالة على العمل في الشيء تقول (زَوْفَن) للرقص المتكلف وبدل أيضاً على الشيء يقوم بوظيفة آلية وان لم يكن آلياً تقول (هَوَلَب) للداء الذي يمسح الشعر مسحاً تاماً ...

فَوَعَلَاء : خصوصيته الدلالة على مطلق ما يحيل من صفات الى صفات أخرى تقول (عَوَظَمَاء) للآلة التي تحيل العظم إلى غراء ...

فَعَوَل : خصوصيته الدلالة على المتعلق بالنور وأيضاً على النور نفسه و (فَعَوَال) للأكثر تعلقاً أو انارة ...

فَوَعَلَانَ : خصوصيته الدلالة على الذي يفعل بتعمل يحدثه فيه الغير . تقول (بَوَهَرَان) للمضخة التي تدفع الماء أو الغاز إلى مصب أرفع من المنبع ...

فَوَعَلَل : خصوصيته الدلالة على الانفراج في تداخل تقول (كَوَبَلَل) للريش المتثنى نصف ثن في الحمام والبط ...

فَعَوَل : خصوصيته الدلالة على الآفة مطلقاً ويكثر في الآفة المرضية بدون تخصيص في النبات أو الحيوان تقول (عِضْوَل) الداء يصيب العضل ...

فَعَوَل : خصوصيته الدلالة على عِظَم الدقيق تقول (كَعَوَس) للشخص ذي السُلَامَى العظيمة ...

فَعُوَل : خصوصيته الدلالة على المتكرر تكرراً غير منفصل . أو الموحد من أشياء كثيرة . ويقال منه للدوائر الاسلاك .

فَعَوَّلَ : خصوصيته الدلالة على ثبوت الوصف ولكن في اللينونات
واللطائف تقول (خَشَوْتُ شَبَّ) أي خشب النباتات اللينة ...

فَعَوَّلَ : خصوصيته الدلالة على الموار من كل وصف تقول (حَزَوْنَن)
للرجل الذي يعتره الحزن على صورة منكرة ...

فَعَوَّلَ : خصوصيته كالأول ولكن يغلب في الحس تقول (حِسَوْنَن)
للذي يظهر وكان الحسن يمور فيه موراً ...

فَعَوَّلَ : خصوصيته الدلالة على الذي تأتي أفعاله على مقتضى الوصف
تقول (شِتَوْر) للمبضع الذي يختص بالأعضاء الدقيقة كالجفون ...

فَعَوَّلَ : خصوصيته الدلالة على مضاعفة المبالغة ويكثر في العددي تقول
(شَبُّور) للمقياس المنبني على اعتبار الشبر ...

الزيادة بالياء :

يَفْعَلُ : خصوصيته الدلالة على الذي يتصل فيه الوصف اتصالاً يظهر
في كل فترة انه ابتداء .

يَفْعَلِيَّ : خصوصيته الدلالة على مثل زائدة (de, dé, des) في
الفرنسية وهي تفيد انعدام الحالة أو العمل وتدل على الأصل وابتداء العمل
كذلك وزان (يَفْعَلْ) ...

يَفْعُولُ : خصوصيته الدلالة على مثل خصوصية (يَفْعَلْ) ولكن في
امتداد واستطالة .. ويدل أيضاً على الكُنْه المستكن في الصميم كيقظور
ويحمور .

يُفْعُولُ : خصوصية الدلالة على مثل خصوصية (يَفْعَلْ) ولكن في
الطبيعي أو الصناعي يشبه الطبيعي تقول (يُنْقُوف) للفرخ الذي ينقف في
المصنع ...

يَفْعِيلُ : خصوصيته الدلالة على مثل خصوصية (يَفْعَلُ) ولكن مع الظهور والغيوب على التعاقب تقول (يَنْوِيْر) للنور الذي يفعل هذا الفعل...

فَيَعَالُ : خصوصيته الدلالة على الشيء تكون فيه وحدة الوصف فيشتق منه للمثل الأعلى من كل شيء كالقوة والحركة والحسن تقول رجل (حَيَّسَان) فيه وحدة حسن الرجولة وحيَّسَانَة للمرأة فيها وحدة حسن الأنوثة .

فَيَعَالُ : خصوصيته الدلالة على مثل سابقه (bis) في مثل biscuit التي تفيد معنى كون الشيء مفعولاً مرتين أو تفيد معنى (double) كذلك . تقول (ميلال) من مادة (مل) بمعنى وضع في الرماذ الحار مرتين ترجمة لكلمة (بسكويْت) وبذلك تكون ترجمة تامة للكلمة الأجنبية ...

فَيَعْلَى : خصوصيته الدلالة على ما يتصل بالماء ...

فَعْيَلُ : خصوصيته الدلالة على الظلمة أو ما يتصل بها وكذلك (فَعْيَال) ... فَيَعْلَانُ : خصوصيته الدلالة على اتصاف الشيء بصفة تكون لغيره أو تندر فيه فيقال لشجرة من الفصيلة تمتاز بشيء غريب عنها تقول (بَيْثُقَان) لكل ما ليس من شأنه أن ينبثق ..

فَيَعْلَانُ : خصوصيته الدلالة على ما يتصل بالروح تقول (وَيَلْبَان) للشخص لا يكاد يفعل الشيء حتى يتركه لتصورات فكرية ...

فَعْيَلَى : خصوصيته الدلالة على النقل إلى المصدر أو إلى الصفة أي تقوم مقام اللاحقة (ness) في التصريف ...

فُعْيَلَى : خصوصيته الدلالة على بذل الجهد تقول (دُرَيْزَى)

فَيَعْلُ : خصوصيته الدلالة على البالغ مبلغ النضوج تقول (طَبْعَم) للناضج الطعم .

فَيَعْلُ : خصوصيته الدلالة على المتخصص بالشيء تخصصاً بالغاً يقال

(طَبِيعُ) للواقف نفسه على الطبيعيات ...

فَيَعْبَلُ : خصوصيته الدلالة على التَنَظُّرُ المستقبلي تقول (خَبِيفٌ) للذي يخشى المستقبل ويأخذ أعظم الاهبة له ...

فَيَعْمَلُ : خصوصيته الدلالة على الاحتكام بالوصف احتكاماً يجعله كسخر له تقول (نَيْمُوسٌ) للذي يتصلب في إتباع القانون وتطبيقه .
وتقول (آلة ظَبْلُوم) خصصت للظلام ...

فَيَعْلَلُ : خصوصيته الدلالة على طلب العلو مطلقاً . تقول (ضَبَجْمٌ) للعوج في الفم يأخذ في الارتفاع .

يَقْنَعَلُ : خصوصيته الدلالة على الثبوت عند حدود الوصف فقط ...

فَعَيْلَلُ : خصوصيته الدلالة على كون الوصف بقوة مولدة تقول (خَلَيْدٌ) أي خالد بقوة تولد فيه الخلود ...

فَعَيْلُ : خصوصيته الدلالة على التملؤ من الوصف مطلقاً ولو غير حقيقي ...

فَعَيْعَلُ : خصوصيته الدلالة على كون الوصف بقوى مولدة عديدة..

فُعَيْلُ : خصوصيته الدلالة على ذي الهجوم والامتدادات القصيرة
تقول (كَبَيْنٌ) للعادي في استرسال قصير الامد كالعربات الحديدية الصغرى التي توضع في طريق الحدائق أو في الجمارك أو في المناجم

فَعَيْلُ : خصوصيته الدلالة على المتصف بالطبع تقول (حَجَّيْنٌ) للذي عوجه طبيعي ...

فَعَيْلُ : خصوصيته الدلالة على المتصف بالتمكن تقول (جَجَّيْنٌ)
للذي عوجه عن آفة متمكنة ...

فُعَيْل : خصوصيته الدلالة على النباتات أو الحيوانات النباتية . وكل ما هو حلقة اتصال تقوم لتمثيل فترة انقلابية ويدخل فيها أيضاً الدلالة على فترات الانقلاب في العناصر تقول (سُمَيْك) أي السمك في الحالة الانقلابية .

فُعَيْل : خصوصيته الدلالة على الذي يمسك الشيء تقول (مُسَيْك) للآلة التي تملك ابرة الخياطة في (الماشين) المسماة (afikeu) ...

فَعْفَعِيل : خصوصيته الدلالة على الطبع اللازم على اضطراب من الوصف وبعبارة أخرى على الطبع المضطرب من الوصف ...

وهنا تأتي على أوزان أخذنا فيها بالتحكيم وان كان لها وجه اعتباري على غموض . خصصناها بالعلوم .

أوزان كيميائية

فِعْلِيل : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على (كومبو زي بينار او كسجين) . الذي يعرف بكلمة (او كسيد) قبل الاسم الممتزج ولكن للدلالة عليه يضاف اليه التاء المتحركة ويصير الوزان (فِعْلِيلَة) . وأما بالتجريد من التاء فيخصص للدلالة على القسم من (الاوكسيد) الذي من خاصيته أن يتحد مع الماء . لأجل أن يعطي حامضاً (أسيد) ويسمى في الأجنبية بزيادة (igue) على آخر الاسم الذي يتحد مع (الاوكسجين) تقول بدل قولهم (خليك) . (خِلِيل) ...

فِعْلِيَت : خصوصيته في الكيمياء . الدلالة على (كومبو زي بينار ايدروجين) ولما أنه قد يصادف في عداد (الكومبوزي بينار ايدروجين) انه يحوي خواص (الاسيد) الحقيقي ويميز باسم (ادراسيد) ويسمونها في الأجنبية بزيادة (اسيد) على الاسم المتحد مع الانتهاء (hydrique)

مثال ذلك (اسيد كلوريدريك) نصتلع زيادة التاء لهذه الفارقة فتكون (فِعْلِيَّةٌ) ...

فَعْمَعِيل : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على (الكومبوزي بينارني اوكسجين في ايدروجين (أي التي لا هي ايدروجين ولا هي اوكسجين . وتميز في الاصطلاح الكييمي بالانتهاء (ure) متبوعاً باسم الجسم الآخر مثل (سلفير دي كاربون) ...

فِعِيل : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على (أسيد) ...

فُعِيل : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على (الباز) الذي يحصل من امتزاج (أو أكسيد) معدني مع الماء

فُعِيل : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على (الاملاح الاوكسجينية) ..

فَنَعْلِيل : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على (الالياج) أي للمعادن المخلوطة ...

فُنُعَل : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على (املجم) أي المعادن المخلوطة بالزئبق ...

فِنُعَل : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على اللاحقة (eux) التي تضاف على الأجسام التي لها (فلانس) متغير . وتقدر أن تؤلف مع جسم آخر اثنين من المترجات الثنائية ...

فَعَلَن : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على (موتوفلانس) أي ما كانت نسبة الايدروجين في شبه المعادن واحد ١ .

فِعَلَن : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على (ديفلان) أي ما كانت نسبة الايدروجين اثنين ٢ .

فِعِلَن : خصوصيته الدلالة على (تيريفلان) أي بنسبة ٣ .

فِعْلَان : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على (ترافلان) أي بنسبة ٤.
 فَعْبَلَل : خصوصيته الدلالة على ما يقوم مقام (بروتو) في الاجنبية ...
 فَعْبَل : خصوصيته الدلالة على ما يقوم مقام (سسكي) ...
 فَعْلِيل : خصوصيته الدلالة على ما يقوم مقام (تري) ...
 فِعْبَال : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على الامتزاج ...
 فَيْعَال : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على الاتحاد ...
 فُعَال : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على التركيب ...
 فِعَال : خصوصيته في الكيمياء الدلالة على التأليف ...

أوزان عديدة

فُعُل : خصوصيته في الدلالة على الآحادي تقول (عُقُد) لما فيه عقدة
 واحدة إلى عشرة ...
 فُعُلٌ : خصوصيته الدلالة على العشري تقول (عُقْدٌ) لما فيه عشر عقد
 إلى مائة .
 فُعْلَان : خصوصيته الدلالة على على المثوي تقول (عُقْدَان) لما فيه
 مائة عقدة إلى ألف ...
 فَعَلٌ : خصوصيته الدلالة على الألفي تقول (عَقْدٌ) لما فيه عقدة إلى
 المائة الف ...
 فَعَلٌ : خصوصيته الدلالة على ما فوق المائة الف تقول (عَقْدٌ) لما فيه
 مائة الف عقدة إلى الف الف ...

فَعَلَّانٌ : خصوصيته الدلالة على ألف الألف فما فوق تقول (عَقَدَّ أَنْ) لما فيه مليون عقدة إلى المليار ...

فِعِلَّ : خصوصيته الدلالة على المليار تقول (عِقِدَّ) لما فيه مليار عقدة ...

فِعِلَّانٌ : خصوصيته الدلالة على أقصى العدد تقول (عِقِدَّ أَنْ) لما فيه أكثر من المليار إلى أقصى العدد ...

فُعِلَّ : خصوصيته الدلالة على الجزء مما يقسم إلى الوصف تقول (عُشِّرَ) للواحد من العشرة و (سُبُعَ) للواحد من السبعة .

فُعِلَّ : خصوصيته الدلالة على نصف الجزء مما يقسم إلى الوصف تقول (عُشِّرَ) لنصف العُشْرِ أي الواحد من العشرة و (سُبُعَ) لنصف السُبُع أي الواحد من السبعة .

مِفْعَال : خصوصيته الدلالة على النصف تقول (مِشْهَارَ) أي نصف شهر يقال (مجلة مشهارية) ...

مِفْعَل : خصوصيته الدلالة على الربع تقول (مِشْهَرَ) أي ربع شهر يقال (مجلة مِشْهَرِيَّة) للمجلة الأسبوعية ...

في الحيوان والنبات

فَعَّال : خصوصيته الدلالة على سائس الحيوان أو المتخصص به وكذلك في النبات تقول (أَسَادَ) و (نَمَّارَ) وهكذا وفي النبات (زَهَّارَ) و (وَرَادَّ) أخذاً من قول العرب فيل وفَيْتَال وغيره ...

فَعَّل : خصوصيته في الحيوان الدلالة على المشي بذات العضو الذي منه

الاسم تقول (رَجُل) أي مشي على الرجل و (رَكَب) أي مشي على الركبة
تقول (مشي الرَّكَب) أخذاً من قول العرب (مشي الكُوع) أي مشي على
الكُوع ...

هذه طائفة من أوزان الثلاثي في العربية . وليست هي كل ما في اللغة .
وانما أثبتُ منها ما رأيتُ . واقتصرت عليه نظراً لشيوعه وكثرته النسبية في
مواضع العرب . ولم أعرض إلى شيء من زنات الرباعي الأصلية . لأن كثرة
كما ترى يمد بها الثلاثي لا تدع حاجة إلى مزيد .

ونحن أولاء نرى كيف يكون غنى الاشتقاق العربي . وكيف تعود
عربية اليوم . على مثل قوتها يوم كانت للعرب القدامى ..

ونرى من خلال هذه الكثرة السر الصحيح . لسعة العربية في قديم ما
كانت وليس إلى شيء آخر أبداً . كما نتحقق من الدقة التامة في وضع كل شيء
بحسبه واعتباره وربما كان هذا لا يحتمل نزاعاً وتحت نظرنا . مجموعة كاملة
من دورات مختلفة للجذر المادي الواحد . سواء في التقاليد أو في الزيادات
التصريفية حتى ينتظم في تطورات ثابتة النسب قوية الحياة ...

وكما ذكرت في غير ما مناسبة أن ما أقرره من خصوصيات هو جهد
يحقق امكان الأخذ وسلامة التطبيق . وان كان عمق الدرس ونفوذ البصيرة
والأناء عليهما يدني الحقيقية أو يدني اليها وهي غاية الشُّدان ...

الفصل الثاني

« اللغة غاية لا وسيلة »

ان ما نفيض به في هذه المقالة سيجد قلة تؤمن به وتسيغه . وانما كانت قلة لأن ما اشتهر من أن اللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . جعلها شيئاً دون الغرض تتناوله للكشف عنه ومشار كته . وهو ملحظ حق وصحيح . حينما نتجه بنظرنا الى اللغة في دورها النشوى . وأما هي بعده فمجموعة من الأفكار والتقاليد والعواطف والاحاسيس والتزوات وشئى المشاعر والاعتبارات . تنتظمها الألفاظ انتظاماً أصبح منها كما يكون الشيء من الطبيعة . فللاً لفاظ بعد هذا الدور . وجود معنوي على مقدارها لا تنزل دونه في الاعتبار كما لا يقع دونها كذلك . ونحن وان كنا لا نختلف مع الجماعة . في أن الذي أنزلها هذه المنزلة هو الوضع والاصطلاح . وهو أيضاً الذي أفرغ عليها ما أفرغ وحملها بما ترى عليه . فاننا لا نوافق على اطلاق القول اطلاقاً يشمل اللغة حتى في دور كمالها . فانها تكون على ملء الالهاب . وإذا تناولنا بها (وهي على ما هي) أية صورة ذهنية . كان لنا أحياناً من فضول الألفاظ زوائد لا تكون أبداً في خيالنا حينما نريدها على تأدية ما كان اليه القصد . فهذه الزيادة التي يتأنى لنا أن نصفها بالطُفيلية . لا يسهل تعليلها إذا كانت اللغة وسيلة . فقط تكيفها المعاني المتجددة على مقاديرها . وانما نكون أقرب قصداً من التعليل حينما نجعل للألفاظ في وجودها شاخص أو الشاهد قياماً معنوياً . وبعبارة أكثر اصطلاحية كوناً معنوياً . تحكيه أفكارنا حكاية نتوسل

إلى الكشف عنها بالقياس على كون الألفاظ : وهذا رأي لا نفرده به بل سبق إليه (صاحب النهاية) أبو المعالي الموصلي المعروف بابن الخباز . حين حد الحقيقة بأنها (لفظ يستعمل لشيء وضع الواضع مثله لمثله لا عينه لعينه) راجع الارتشاف لأبي حيان : فألفاظ اللغة عندي تناول الأفكار كما تناول المقاييس الأبعاد . وللمقاييس حقيقة في نفسها ووجود زائد على وجود الأبعاد قطعاً . وفي النتيجة هي غاية دون الأبعاد والامتدادات . وإن كان بالنظر إلى ما يفيدنا منها تكون غاية بملحظ من الوسيلة . وأكثر الغايات يكون لها هذا النصاب من الملحظ فهي غايات غير استقلالية . يفرض فيها التعاون مما يتأتى لنا تسميتها بالغاية (١) المطاوعة . والمقصود من هذا المنتحى في أسلوب الشرح . بيان أن دلالة الألفاظ على المعاني المتجددة لا المستقرة دلالة مقايسة فاذا أردنا أن نؤدي صورة ما فاعما نؤديها بضرب من المقايسة المحضنة بين ما هو حاصل في خيالنا وبين معاني الألفاظ المستقرة .

فكان لألفاظ اللغة أية لغة . التي تستخدم للتعبير عن مختلف الصور زوائد أحياناً تفرغ على الصورة ما يزيد في معناها بحيث لا يظن أنها كانت كذلك على كمالها في خيال الأديب أو العالم . وهذا طبعاً غير الجمال التعبيري الذي تتأثر به من جهة ذوق البيان لأن ما نعني به نقص وزيادة على الصورة لا اشراق الديباجة ورونة الألفاظ ورصاعة التعبير .

وهذا موضوع على ما فيه من جلاء ملاء غموضاً. ولذا غبر وهو محل للأخذ والرد بين ادباء الجيل . وكان ان استقر في روع الكثيرين . ما ليس إلى المنطق الحق . وراح من لم يدرب على فصيح العربية أو العربية اصلا . يركب مركباً

(١) ووجه الاصطلاح بالنظر إلى اصطلاح المطاوع في الصرف الذي هو بمعنى الفعل المنفعل فتخوف مثلاً فاعل منفعل فالغاية المطاوعة معناها الغاية التي تنفعل فتكون وسيلة .

ذَلِكًا وَيَغْشِي مِثْلَ الْوَعْثِ وَالطَّيْعِ . اخذاً بقاعدة الانانية والشهوة (الغاية (١) تبرر الوسطة) أي على أي اعتبار . فلم يأبهوا بعد ذلك أن يؤدوا ما يقصدونه على أي نهج . استقام او التوى ما دام لا يلتوي مع غايتهم التي من اجلها يعملون . وهي اذا جومل بها العلماء والفنيون فما يجامل بها الادباء الذين هم أهل اختصاص في الواقع . وفي الحق اني مُغرَضٌ جداً ومُحْفَظٌ من لزمنطق الغاية هذا . في محيط الادب بل في محيط البيان العربي عموماً . وجدير بسي وحسرى بكل عربي . أن ينطوي على حفيظة مغرصة من هذا النوع واسميتها مغرصة لأنني ابتغيها غير قابلة للتفاهم أبداً . اولا تسمح بأية مناقشة دون رعاية أساسها .

والمعجب في نهضة مصر الادبية . أنها تسير بخطى ثابتة في جُدد من العربية الصريحة . وعلى مقدار تعلقها بتجديد الفكرة تعلقها بسلامة اللغة وعربية التعبير . وواجب ان أسجل وان لم أكن في مقام تأريخ . ان نهضة الاسلوب العربي تدنٍ لمصر وحدها كما تدنٍ للنهضة اللغوية للبنان القديم .

ولهذا قصدت أن أهدم . بتحقيق ان اللغة غاية كما يكون الحساب والهندسة وما اليهما من أنواع الرياضي . ما يَفْزَعُونَ اليه اذا راموا اللغة عَابِثِينَ . وقررت ما لم يكن في معرفة الكثيرين . من أن دلالة مفردات اللغة على المعاني المتجددة دلالة مقايسة وموازنة . والا لو دلت بالنفس لكان لها (على نهج الفلسفة القديمة) . وجودات متعددة بتعدد الأشخاص اللاغين . والتلازم خُلِفَ فارفعت الملازمة على وجه الاقتضاء . وبحسبنا من حديثه ما انتهينا اليه . لنفيض في يانه على آيات من الشعر ندُلَّ فيها على ما يجدر بالناقد البصير تمييزه . وأعني به تحقيق الفرق بين اشراق اللفظ وبين زائدة اللفظ ويتنبئي عليه في درس الادب والاديب كثيرٌ من التصحيح . قال قيس بن الملوح مجنون ليلي .

(١) راجع مقدمة كتاب (السفس) للدكتور ابو جمرة الفريال وكتاب للاستاذ نعيمه .

« بَعِيشِكَ هَلْ ضَمَمْتَ إِلَيْكَ لَيْلَى
 قُبَيْلَ الصَّبْحِ أَوْ قَبْلَتْ فَاهَا »
 « وَهَلْ رَفَّتْ عَلَيْكَ فُرُوعُ لَيْلَى
 رَفِيفَ الْأُقْحُونَةِ فِي مَدَاهَا »

يكاد يكون هذا القسم عاماً على لسان الشعراء والعرب جميعاً . وهو لا يزيد في اعتبارهم على (بربك) و (لعمرك) وأمثالهما . ويقين أنه لم يكن من معناه في خيال المجنون أكثر من الحلف والتأكيد على هذا الذي حظي بالسعادة كلها مجموعة بين يديه دونه . في غير مكابدة . ولا علاقة لاغية . ولا علاقة لاغية وعلى خيال الحلف وحده أكد المجنون على مخاطبه . أو بعبارة أقرب مزاحمة تعبيراً في محل تعبير . لما كان يزيد عن أنه قسم عادي جداً لا نشعر معه بشدة الزقرفة . التي في مثل ما يكون من الموقد اذ يصيبه الماء ثم يخمّد في غير ضجيج . ليبر عن الاسى المصمت بثوبه الفحيمي الدّاكن . وهذا البيت جاءت به الرواية أيضاً على وجه آخر من التعبير فلم يكن من وقعه الاطنين القسم اجوفاً .

« بَرَبِكَ هَلْ ضَمَمْتَ إِلَيْكَ لَيْلَى قُبَيْلَ الصَّبْحِ أَوْ قَبْلَتْ فَاهَا »

ولكن كيف يشعر ذلك التعبير بما نُهَوِّلُ به . سأجيب بأنه من زائدة الألفاظ وذلك حين نتمثل المجنون يرى العيش في ظل التي يهوى سعادة دونها السعادات . وهو من نُشْدَأْنَهَا ظل يبكيها ابدأ في أنشودة الحزنِ المرة . بهذا النظر طالع القسم حين يستفهمه عن شكل من أشكال تلك السعادة . ولون ثري من ألوانها مرسوماً بضمة السحر وقُبْلَة في عين الصباح . بربك اما تشعر بأسى يتقطع في أنفاسه . ويذوب في نَبْرَاتِهِ . مع القَسَمِ اذ يرسله جامعاً بين الاماني العذاب وتأوهات العذاب وهو أروع (١) قسم سمعته في الشعر على تاريخ البيان .

(١) راجع الكلام عليه مبسوطاً في بحث (القسم في القرآن من مقدمة التفسير)

قالت نَزْهُونَ الْغُرْنَاطِيَّةَ .

« الله دَرُّ اللَّيَالِي مَا أَحْيَسْنَاهَا _____ وَمَا أَحْيَسْنَ مِنْهَا لَيْلَةَ الْأَحَدِ
« لَوْ كُنْتُ حَاضِرًا فِيهَا وَقَدْ غَفِلْتُ عَيْنُ الرَّقِيبِ فَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ »
« ابْصُرْتَ شَمْسَ الضُّحَى فِي سَاعِدِي قَمَرِ بِلْ رَيْمِ خَازِمَةٍ فِي سَاعِدِي أُسْدٍ »

لا أجتهد بأن أدل على مواطن الجمال في هذه الايات . التي ينزل البيت الأخير منها منزلة أبرع الشعر وأمتنه بكلمة شعر . وإنما اقتصر منها على محل الشاهد الذي هو (زائدة الألفاظ) وأين تقع منها . وفي غير كبير تَعَمُّلٍ . تعرّ عليها في (فلم تَنْظُرْ إلى أحد) وفي (بل ريم خازمة) ولكن كيف يكون لهُذين التعبيرين ما نذكر من ابداء الصورة على شكل ما تظهر به من سَرَى وَثَرَاء . فهذا ما نتناوله ونجتهد في تمثيله على وجه قريب من الاصل . ولكن طبعاً لا تكون له تلك العذوبة التي لأصله .

تقول في البيت الثاني كلاماً عادياً حتى تنتهي إلى (فلم تنظر الى أحد) فتشتر بكل افتنان صورة من غفله الرقيب . التي لم تكن عادية ولم تكن غفلة مختلة كما هو شأنها . بل كانت غفلة على معنى الاباحة . حتى كأن الرقيب جعلها منحة للفناء في الحب والاغراق في النشوة . فكنت تشهد مناظر من النجوى المطمئنة التي لا ترقب مفاجأة من الارزاء . ولا تخشى عناء يسترها الهواء . فهي نجوى مُتَبَسِّطَةٌ تزيد تبسطاً في مر النسيم فلا تهرب من حفيفه حساً . ولا تحذر من غناؤه صوتاً . وأنت لا تسمع في خلالها الا قُبْلَةً لا تنتهي الى موضع اللام (١) ومنها . وهذا منظر لسنا نحن نرسمه على افراد بل بريشة (نزهون) وحدها . وأسمع كيف تقول لم تنظر الى أحد . فقد كان هناك آحاد . وعين الرقيب لم تنظر اليهم . فهو اذن مشهد ممتد . يحوي مناظر عديدة من هنا وهنا تَنْتَشِي الحُب من رَأْوُوقه الصافي وَهَمٍ في رواقه المشرق الهادي . وأنا على غير ريب في ان (نزهون) لم تقصد كل هذا . حين ارسلت (فلم تنظر الى أحد)

(١) كناية أجريها مجرى الصناعة عن استدامة القبله وطولها لأنه ينطبق اللام تنفرج الشفتان وتنهى القبله.

وان ما نعتقد انها تصورته لا يزيد عن ان عين الرقيب غفلت في مشهد ما تريد ان تطلع عليه . مرسوماً في البيت الثاني على لوحتين . تزدادان براعة مع دوام النظر . تبدو اللوحة الاولى منهما دقيقة ومشرقة على مقدار ما لو حدث في الطبيعة . وكانت الشمس في ساعدي القمر حقيقة . وتجاوزها الى اللوحة الثانية التي فيها ما نعينه بالزائدة . بيد أن الصورة نفسها لا تعبر عن شيء وراء ما تعبر عنه الصورة الاولى فلا نشرحها . وانما نقف عند اللفظ الذي أثار في نظرنا زائدة حقيقية وهو (بل)

وهي أي نزهون لو قالت بعبارة (أو) لما كان لها ذلك الوجه الذي نحكي عنه . وأنظر كيف تثيره (بل) هذه وتحملنا حملاً على التنبيه اليه . فهي تقول ما كنت تبصر جميلة في ساعدي جميل فقط بل فتنة مشبوبة . تؤلف من اختلاف الطبائع طبيعة تجد معناها وحقيقتها فيما كان يمتاز عنها بالمعنى والحقيقة . وتجعل من القسورة الشرس حملاً ودباً . ينطوي بتحامل وحنو نشواناً بالمعنى الذي هو وراء وجوديهما فيشدّة في خدر صليب . وسبات هانيء لذيد . وفي اللوحتين تعرض مثلاً من الجمال في الحب . ومثلاً من الفتنة في الحب . ومثلاً من الجمال العاشق . ومثلاً من الفتنة المحبة .

حقيقة ان معنى الصورة الثانية في صميم الالفاظ ولكن (بل) وحدها هي التي تثيره وتنبه اليه . ولولاها لكانت غفلة الحاطر عن المعنى حقيقية . (ونزهون) من بعد لم تقصد الا تنوع الصور كما يظهر .

قال الصافي (١) من قصيدة

« وَأَسْكُنُ كَوْخاً مَا بِهِ أَيْ زُخْرُفٌ وَلَكِنَّهُ كَوْخٌ أَقَامَتْهُ لِي يَدَيَّ »
هو بيت يرى على أشد ما يكون الوضوح . حتى كاد يكون حديثاً عادياً ولكن رغم ما يبدو عليه من بساطة سابعة . أشعر بأنه ملتبس نزوات شتى

(١) احمد الصافي النجفي ، شاعر عصري ثائر حتى في صوته . وشعره لا يشف عنه كثيراً . ولو استطاع أن يفرغ كل نفسه في شعره . لجاء به شعراً فوق الشعر « وشعره على وجه العموم صامت وأهني بالشعر الصامت ، الذي ينزل عن مستوى المعنى ، ولا يتناوله إلا على غموض .

وَفَلَسَفَاتٍ وَجَدَانِيَّةٍ عَمِيقَةٍ . وَهُوَ بَيْنَ الْقَنَاعَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ . وَالزُّهْدِ وَالْإِدْلَالِ .
يُحْقِرُ الْعَظَمَاتِ الَّتِي تُقِيمُهَا إِيَادُ أُخْرَى . وَيَسْخَرُ مِنَ الْقِنْفَخَرِيَّاتِ (١)
الذَّلِيلَةِ الَّتِي تَصْطَنِعُهَا جِهَاتٌ . تَسْتَعْبِدُهَا اسْتِعْبَادًا يَعْدُو عَلَى كُلِّ حُرِّيَّةٍ .
وَيَرَى الْعِظْمَةَ غَيْرَ الْمَزِيْفَةِ وَالْقِنْفَخَرِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ فِيمَا تَبْهِيهِ الْيَدُ لِصَاحِبِهَا .
وَكَذَلِكَ يَطَّلَعُ عَلَى كُلِّ النَّاسِ مِنْ كَوْنِهِ مُدَلًّا تَبَاهَا وَهُوَ بَعْدُ كَوْنُ
حَقِيرٍ . وَأَنَا لَمْ أَسْمَعْ أَشَدَّ نَكَايَةً . وَلَا أَكْثَرَ سَخَرِيَّةً . وَلَا أَبْلَغَ تَهْكِمًا . وَلَا أَمَرًا
تَعْرِضًا . مِنْ قَوْلِهِ (أَقَامَتُهُ لِي يَدِي) وَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ بِمَحَلِّ الشَّاهِدِ وَإِنَّمَا أُرَدْتُ
التَّعْرِيفَ (بَيْت) يَمُرُّ بِهِ أَكْثَرُ النَّاسِ . وَلَا يَشْعُرُونَ بِالْجَانِبِ الْرُوحِيِّ فِيهِ .
وَالزَّائِدَةُ فِي الْبَيْتِ (وَلَكِنْ) هَذَا الِاسْتِدْرَاكُ الْمَوْطَأُ لَهُ بِكَلِمَةِ (زُخْرُفٌ) . وَمِنْ
ثُمَّ اسْتَمَعَ لِإِذْنِ بَلَاغِيَّةٍ شَاعِرَةٍ . تَدْرِكُ مَقْدَارَ مَا تُثِيرُ مَعْنَى عَمِيقٍ تَنْزِلُ عَنْهُ
الْأَلْفَاظُ . وَيَبْقَى حَيْثُ هُوَ فِي تَسَامٍ مَدْهَشٍ .

قلت من قصيدة (٢)

« مَنْ رَأَى الطَّيْرَ يُعَاطِي لِنَفْسِهِ رَشَقَاتِ الْحَبِّ فِي جَوَافِ الْكَرَى
مَنْ رَأَى الْجَدُولَ مَصْبِيًّا عَلَى ذَكْرِيَّاتِ أُسْكِرْتِهِ فَجَرَى
مَنْ رَأَى الْغَابَ مَصْبِيحًا خَاشِعًا لِأَلْفَيْنِ اسْتِمَاحًا الْقَدْرَا
مَنْ رَأَى هَذَا فَإِنِّي مِثْلُهُ لَعَبَ الْمِيدُ بِهِ فَازْدَخَرَا
تَأْمَلُ فِي ذَوْقِ النَّاqِدِ (اسْتِمَاحًا الْقَدْرَا) تَجِدُ تَحْتَهُ سَرِيًّا مِنَ الْمَعْنَى . هُوَ مِنْ بَابِ
هَبَاتِ الْأَلْفَاظِ وَحَدَّهَا ، الَّتِي لَمْ يَكُنْ مِنْ عَوَالِقِهَا فِي الْخِيَالِ إِلَّا مَعْنَى غَامِضًا
أَشَدَّ الْغَمُوضِ . أَوْ كَانَ فِي سَمَاوَةِ مِنَ الذَّهْنِ تَائِهَةً . ارْتَسَمَ فِي نَسْجِ الْأَلْفَاظِ
خَلْقًا سَوِيًّا . وَهَذَا شَيْءٌ لَا أَحْكِيهِ عَنْ الْغَيْرِ فَأَتَمُّهُمْ بِهِ وَلَا أَقْلَرُهُ تَقْدِيرًا
مُرْسَلًا فَأَرْمِي بِالْتَّخْطِئَةِ . وَإِنَّمَا هُوَ شُعُورُ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ ... »

(١) مَنْ وَضَعْنَا الْجَدِيدَ بِمَعْنَى (الْارِسْتِقْرَاطِيَّةِ) وَ (قِنْفَخَرِي) فِي مَحَلِّ الْارِسْتِقْرَاطِي مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ
(قِنْفَخَر) (لِمَفْتَخَرٍ بِنَسَبِهِ التَّارِيخِيِّ) .

(٢) هَذِهِ أَيْبَاتٌ مِنْ قَصِيدَةٍ قَلَّتْهَا فِي خُطْبَةِ أَخِي الشَّقِيقِ .

الباب الرابع

المجمع والمعجم وشكليات اللغة

ومهما يكن من شيء ، فرائدي خدمة العربية ،
ولإغناؤها ، والخروج بها من قوقعتها الضيقة .
فإذا لم تكن لنا لغة تامة صحيحة فلن يكون لنا فكر
تام صحيح . وفرض إنسان بدون لغة ، معناه فرض
إنسان بدون فكر .

(العلابي) : مقدمة المرجع

وقد حاول السيد العلابي أن يقوم وحده بما تقوم
به الجموع الحاشدة ، فوضع المعجم ، وضعاً متجديداً
نامياً ، لا وضعاً جامعاً حاشداً فقط ، وعمل على هذا
النماء الداخلي الذاتي للعربية ، ومتابعة سيرها التطوري
من حيث وقفت ، عند خروجها من الجزيرة العربية
فاتحة مهاجرة . .

وفي عمله هذا محاولات لغوية فنية خطيرة الشأن
كما فيها ، مع ذلك ، محاولات عملية ومادية لاتقل
خطورة شأن عن المحاولات الفنية اللغوية . .

وكل أولئك ، لم يبد - فيما رأينا - من آثار
الإحصائيين اللغويين الرسميين من المجمعين ، أنهم
بادروه أو عرجوا عليه ، أو أشاروا إلى شيء منه ،
برضى أو سخط ، وتصحيح أو إبطال - وهذا
ما يدعوني إلى متابعة اللفت ، بل اللفت القوي لفكرة
التطور اللغوي في ذاتها - ولهذا الجهد التطوري الجليل
المناضل للسيد العلابي - مهما يكن الرأي فيه ، وفي
نتائجه . .

أمين الخولي : مشكلات حياتنا اللغوية

مقدمة الباب الرابع

كان يُظَنُّ أَنّا سننتهي من الكتاب عند الفصل الثاني من الباب الثالث. لأن البحث في غائية اللغة يُوهم بالوصول إلى الغاية ، ويفري بالاستراحة من متابعة البحث . . ولكنّ ما ذكرناه في خاتمة الباب الأول يُبْطِل هذا الوهم ، ويفرض ضرورة هذا الباب ، لأن الرحلة التطورية في ماضي العربية واكتشاف معقول العربي من خلالها ، وما يحمله هذا الاكتشاف من حياة العربية ونمائها ، لا ينفع بشيء مالم نصغ إليه ، ونعمل به ، ونستثمر معطياته ؛ ومن هنا كانت ضرورة المجمع اللغوي ، الذي يمثل سمع اللغة وبصرها ، ويقرّر السّماع الذي ارتآه صاحب المقدمة ، ورأى به معقول العرب اللغويّ في القياس . .

وأما المعجم فأهمُّ لوازم المجمع ، ودفتر مذكراته الذي يصوّر به تطوّر اللغة ونشوء العربية ، فيعكس عقلية العربي الماضية ، ويتشوف حياة وجدانه الحاضرة والمقبلة . .

وواضع المعجم ، حيال ضرورات الوضع ، يحتاج إلى معرفة وسائله ، وبذلك تقتضي الحاجة إلى بحث شكيلات اللغة ؛ ما يتعلق منها بالصورة الخارجية كالخط والإملاء ، أو ما يتعلق بالصورة الداخلية كالبيان والموسيقى . . الخ .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات ، رتب هذا الباب في أربعة فصول :
الفصل الأول ؛ المجمع ضرورة ..

الفصل الثاني ؛ كيف نضع المعجم الجديد .. وقد صار الاقتراح حقيقة
عملية ، إذ وضع الشيخ العلايلي معجمه المقترح وبدأ نشره منذ ١٩٥٤ ،
وإن المخلصين من أمتنا ، للغتهم يترقبون بشوق تمام العمل العظيم .

الفصل الثالث ؛ الشكليات الخارجية كالخط والإملاء ..

الفصل الرابع ؛ الشكليات الداعلية والمعنوية كالبيان والعروض ..

الفصل الاول

المجمع ضرورة

أما أن المجمع ضرورة فهذا مما لا شك فيه . وأما أنه حاجة من حاجات اللغة والأدب فكذلك لا تجد من ينازع عليه . فهو من اللغة بمنزلة السمع والبصر . يرى بدقة حيث لا يختلط عليه البصر . ويسمع بدقة حيث لا يدوي عليه السمع .

ولتهذيب العربية المنشودة ، تكون الحاجة شديدة إلى مؤسسة تعمل على هذا الطراز ، خصوصاً والعربية في مرحلة تطور خالصة . لا بدّ أن تستقر في النهاية على شكل من أشكاله . أولى أن يأتينا موزوناً لا يدعنا نفرغ إلى ثقافتين علمية ولغوية . نحتاج في كليتهما إلى فضلة مجهود ربما كان فيما دون الثانية أقل اعتياصاً وأيسر أخذاً . .

وحيث كان المجمع عندما نظن من خطّره وأهميته . وأن غايته أن يتقدم باللغة على سنة الارتقاء . لا أن يرجع باللغة إلى الوراء على سنة التخلف . وإذا كان الشأن تطور كل شيء على نسق ينزع إلى الأصلح ، كان حتماً أن يعمل المجمع على غير نظامه الذي أخذ نفسه به . وطبع وضعه على غرارهِ . فما المجاز ، ولا التضمين ، ولا التجريد ، ولا شيء وراءها من النقل والاصطلاح بمغن فتيلاً فيما حمل وفيما عهد اليه من أمر اللغة .

وأنا هنا لأعني مجعاً بعينه . ولا أشخص بنظري إلى مجمع واحد . بل أعني كل المجامع التي أنشئت من مثل نادي دار العلوم القديم ، ومجمع القاهرة ، ومجمع دمشق ، ومجمع بيروت ، والمجمع الملكي . أو التي يراد لإنشاؤها . فإنه لن

يتأتى لها الانتاج الموفور . وهي قائمة على دراسات سيمر بك مافيهما من نقص كبير وخطأ محض وملاحظ واهمة . . .

وأنا لا أدري أي معقول في محافظة المجامع على (السماع) الذي معناه على المكشوف علي ما تنذر به بعض (١) أفاضل المغاربة (اسمع ولن تسمع غير ماسمعت مما يكون الجواب المنتظر عليه . إني لن أسمع ما قد سمعت وانتهيت) ونحن وإن كنا نقر السماع ولكن بمعنى غير معناه . ووجه على خلاف وجهه . ومن ثم بدت خطة المجامع ملتوية ضعيفة . ووقية أيضاً . لا تداوي الآفة وإن تكن قد تخدر الألم . وهي محافظة في ناحيتين لا يتأتى لها السير معهما إلى النهاية .

(١) القواعد وتأخذها على علاقتها بلون مناقشتها إلا على نحو شكلي صرف . .

(٢) فرض المعنى في مقدار ماورد من اللفظ . ميزاته وهيبته وبنائه .

هاتان الناحيتان اللتان أفضتا بالكلام عليهما في شتى المناسبات من المقدمة . فلا نعيده مرة أخرى لثلا ينقلب الحديث شططاً وتجاوزاً ممجوجاً .

وفي الحق لن يستقيم سير المجامع بما يضمن حاجة العربية وتقوم بالذي عهد اليها على أحسن الوجوه . إلا بأن توحد النظر على إعادة درس العربية مرة أخرى وتصحيح القواعد على مقتضى هذه الدراسة . ولست أعني أن تكون النتائج التي انكشفنا عنها هي النتائج المحتومة والمتعينة . فإني أنبهت غير ما مرة إلى أن عملي هذا لا يعدو الأضواء التي تعرف بالسيل والشمك الذي يدل على النبع .

على أن الذي يعجب له من أمر المجامع توفرها على معالجة المفردات وحدها وكيف تضع منها وتضع عليها . بينما هناك جهات أخرى من حاج العربية تستدعي معالجة . ووقوفاً طويلاً . وبالأخص حينما نأخذها مع لهجات العرب العصرية التي يقتضي درسها بدقة . وتفهمها ببيان متعقل . وإلا إن كانت غايتها معالجة المفردات وحدها . فما أضلها غاية . وما أغنانا عنها نتيجة .

(١) هو الأمير الجليل المرحوم خالد الجزائري . نافخ الروح الوطني في الجزائر . وكان ضمني به مجلس فتناولنا اللغة في بعض أطراف الحديث . وبحق كان رحمه الله نادرة نادرة .

والدراسات التي يجب أن تفرغ اليها المجامع وتجمع هدفها فيها . عدا الاشتقاق الذي هو هدف رئيسي وغاية أولى . تنحصر في أمور :

(١) تأريخ المفردات وتنويعاتها واستعمالاتها على التاريخ . وهذا يفرض الانتشار الواسع على كل شاعر أو أديب . وإحصاء كل ما انفرد به من جديد أقتضى تطويراً في الكلمة بإشراكها معنى غريباً أو بتقلها بملحظ اعتباري . على معنى ان نفرد كل شاعر أو ناثر بفصل نتناول فيه أثره على اللغة من جهة ما انفرد به من تطوير على المفردات أو الاستعمالات .

(٢) تأريخ المولّد . والكلام على مولده ومنشئه ومرباه .

(٣) درس العامي والعامية . وكيف تم نشؤهما . والأسباب التي أفضت إليهما . ومقدار اختلاف اللهجات الحية اليوم . وإفراد كل واحدة منها بالدرس ودرس ألفاظ الاختلاف بينها . وتعيين مصدرها الذي تنظر إليه . . .

(٤) طريقة المرحوم (حفي ناصف «١») في درس اللهجات لوقتنا . والاستدلال منها بالمقايسة على توزع القبائل هنا وهناك . وهذا الدرس يفيدنا من وجه آخر فائدة جلى . لم يرم إليها المرحوم . وهو الوقوف على مقدار الاختلاف القبلي القديم بالنسبة إلى العربية العريقة . ومن ثم يمكننا أن نفهم تماماً المقدار الذي كان عليه الاختلاف مما يضع أعلاماً ومقادير ونسباً محدودة للتفاوت فلا يعود لقاتل أن يقول من وراء التقدير ماشاء في اختلاف اللهجات وأثرها في اختلاف الكلمات .

وطريقة معرفة هذابسيطة جداً بأخذ المفردات التي تنفق عليها اللهجات العامة في المناطق العربية . ورقوب مقدار الاختلاف فيها وفي مخارج حروفها . على شرط أن تعزل اللهجات الشديدة التأثير بالأجنبي . كعربية المغاربة في المغرب

(١) راجع رسالة « مميزات لغة العرب » له ..

الأقصى والجزائر لظهور البربرية فيها على نحو بارز وعربية أطراف العراق . لا على معنى إهمالها من هذه الناحية بل على معنى إفرادها بالدرس العميق لتحديد مقدار تأثير اللغة باللغة بعد تشخيص مقادير الاتصال . وهذا يوضح لنا مبلغ تأثير لغات القبائل القديمة التي كانت تجاور في أطراف الجزيرة أجناب من أمم شتى .

وبالحملة فهي طريقة أخرى تباين طريقة (ناصر) . إذ الاستدلال عنده طردي حين يعقد من التشابه الحاصل بين لغة مناطق من العرب الحاضرين وبين لغة قبائل من قدامى العرب . جامعة واحدة بحيث يقدر معها انتساباً بيّني عليه أن هنا حطت قبيلة كذا الخ . .

وأما هذه الطريقة فهي تعقد من التشابه عين تلك الجامعة ولكن لتبني عليها فهم درجة اختلاف اللهجات الغائبة بالقياس على الحاضرة . بادعاء أن ما نقلها تميمية هي كذلك تميمية نفهم عنها لهجة تميم القديمة ومقدار مابه تختلف عن غيرها من لهجات القبائل . وعلى ضوء هذه الطريقة الجديدة يمكننا أن نميز بعض الشيء ما أغفل الرواة تمييزه بالنظر إلى اللهجة فقط دون البناء . وهي طريقة تحقيقية نرسلها هنا . وهي جديرة بالدرس والتفسير حتى تأخذ صبغة من التحقيق بحيث يقال عليها الأسلوب العلمي التاريخي . وإنما أدمجناه في قرن مع طريقة (ناصر) . لأنهما تصدران عن اعتبار أولي واحد . وإن كانتا تختلفان في الغاية على مثل التباين . وبالحملة فهو اعمال لاعتبار واحد على جهة الطرد والعكس .

(٥) العمل على ترقية العامية إلى العربية بشئ الوسائل . فإنه من الضرورة بمكان . وهنا أورد فكاكة اقتصادية أرسلها المرحوم (حفي ناصر) في محاضرة (١) حول موضوع (تسمية المسميات الحديثة) قال (وعلى كل حال فالجمع بين العامية

(١) — راجع مجموعة الخطب التي ألقى بدار العلوم القديم . سنة / ١٩٠٨ ص / ٨٨ .

والفصحى يستنفد خمس عشرة سنة من عمر المتعلم . فإذا تحققت الآمال وصار التعليم إجبارياً . فكم تخسر الأمة كل سنة من أعمار أفرادها . فإذا أخذنا المعدل السنوي للمواليد وهو (٤٧٠,٠٠٠) وطرحنا منه معدل وفيات الأطفال إلى سن العشرة ونفرض أن النصف (٢٣٥,٠٠٠) يكون عدد الباقيين (٢٣٥,٠٠٠) نضربه في عشرة أعوام . وهي ما يخسره كل واحد فتكون النتيجة أن الأمة تخسر في كل عام عمل شخص واحد في (٢,٣٥٠,٠٠٠) سنة وبعبارة أخرى يفوتها ربح زراعة (١,٢٧٥,٠٠٠) فدان على فرض أن الفدان يزرعه اثنان . فياضية الأعمار تمشي سهلاً) .

وهو يقترح شيئاً لا تقترحه لإحراز هذه الكمية الكبرى من السنين . يقترح نحو العامة وإحلال العربية محلها في السوق والبيت والمدرسة . مما هو حلم يصبح الإنسان منه على ذكره . ونحن نقترح ترقية العامة على معنى غزوها بالمفردات الفصحى . وفي الواقع أن شيئاً من هذا أتى عرساً بانتشار الصحافة العربية حتى الدت العامة العربية ، أفصح من عربية (الجبرتي) الفصحى التي استعملها لغة تأليف . وخذ أية مجلة تكتب بالعامة الصرف ، فلا ترى كبير فرق بينها وبين بفصحى إلا بالاعراب ومفردات أخرى تكاد تكون معدودة . فإذا أخذت المجامع بالحزم واستعملت مشوقات بنشر أطرف الألفاظ وأترفها . فلا تلبث العامة أن تكون عربية زایلها الاعراب فقط . ومن ثم لا يبقى في المحيط العربي لغة حديث ولغة درس ، بل تصبح لغة واحدة تقريباً ، أهم الفوارق بينهما كما قلنا أو أكبرها الاعراب ، الذي نرى الكثرة المتعلمة تتخفف منه في المحاضرات والخطب أحياناً بله الحديث . وليس معناني بهذا أني أرمي إلى إلغاء الاعراب من العربية ولكن أقصد أنه فارقة ليست بذات خطر . حتى وجدنا من الأولين (١) من يحدث أن نكتة قد لا تحسن إلا وهي غير معربة فإذا اعربت بردت وسمجت . وساق لها قول مزيد المدني (وقد أكل طعاماً أثقله فقل له تقيأه يذهب ما بك

(١) هو أبو اسحاق الحضري في جمع الملح والنواتر / ص ٨ / .

فقال : خبز نقي ولحم جدي والله لو وجدته قبيء لأكلته . فلو أعطاه حقه من الاعراب فقال : خبز نقي ولحم جدي والله لو وجدته قبيئاً لأكلته لخرج عن حده وأثلج في برده .

وكان من المتقدمين من لا يكاد يتكلم بالاعراب وهو (ابن خالويه) المعداد في أئمة الأدب واللغة كما حدث عنه ابن الأنباري والسيوطي .

وبهذا يتحقق ما طالما صبونا اليه من توحيد اللغة ووضع حد للخلاف الطائش ، الذي ثار يوماً غباره داكناً بين اللغويين في : هل الأولى لإحلال العامية محل العربية في كل مجالاتها ؟ فتنقلب لغة علم وأدب ، أم الأولى القضاء التام على العامية حتى في طبقتها الدنيا ؟ .

(٦) التوفر على دراسة المجموعة الأدبية في أقدم تاريخ الأدب ، سواء الشعري والنثري وتزييف المدخول والمنحول فيها ، وإحلال موازين وافية بالغرض من تمييزه إما بالنص أو الظاهرة النقدية . وكذلك درس المجموعات الشعرية الأخرى بحسب تسلسل التاريخ الأدبي عند العرب . ويتوسع هذا الدرس بتناول الجديد من الأوزان والبحور المستحدثها أدباء كل جيل . ليفرغ في النهاية إلى دراسة مجموعتنا الشعرية التي هي أغناها بالتجديد والافتنان ، وإن كانت لم تستقر بعد على وجه عملي . نما فيها الأزجال والمواويل والمُلعنى والقرّاد ، والحق أنها جديرة بالدرس فهي غنية من الناحية الأدبية ، خصبة أشد الخصوبة . ولا بأس من أن أورد (مؤالا) على البغدادي (لقوّال) (١) يبروتي . يذكر فيه بمضض وحرقة خيانة الجيرة وذوي القربى . :

« لَرَكَبَ مِنْ الْبَحْرِ لُجَاً وَأَسْرَجْنَهَا بَعْدَهُ ،

« وَلَتَلْحَقَ بِعَادٍ وَتَمُودِ الْمَوَحِشَاتِ بِعُسْدَةٍ ،

(١) هو المرحوم حمد .

« وَهَجَرُ رَبُّوعِي وَهَلِي الْفَيْنَ عَامَ وَبَعْدَهُ »
« عَنْ جِيزَةِ قَطَ مَا تَلَا صُرُوفَ اعْدِلِ »

الذي هو بحق أبرع ماقيل في معناه المقصود . وهو في تصوير الرجوع إلى الماضي والعودة إلى ضمير التاريخ السحيق في أبدية الغابر أفن من (شوقي) في قوله (١) :

« وَطَوَى الْقُرُونُ الْقَهْقَرَى حَتَّى أَتَى فِرْعَوْنَ بَيْنَ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ »
على براعة ماطالع به (شوقي) . ووجهه أن (القول) يتمنى على الدهر لو يركب من البحر لجة مسرعة ويلحق عليها الماضي مع وجهه إلى أعمق المغاور . حيث تقطن قبائل عاد وثمود في موحشات البعد السحيق . ومظلمات الأبدية النائية : هذا التصوير الذي بلغ فيه غاية الافتنان بالتعبير (بالحق وموحشات) . ثم يزيد الصورة خلماً بقوله (واهجر ربوعي وأهلي الفين عام وبعده) تأمل بدقة المهاجرة بعيداً عن الأهل والربوع في أنفاق الماضي ، حيث يكون حاجز الزمن صفيقاً بمقدار ألفي عام . ثم قول (شوقي) على براعته المتمثلة في الاسناد إلى المكتشف بعبارة (طي القرون) لانجد فيه شيئاً من الزيادات التي يطرّفنا بها (القول) بوضوح وظهور وقوة . وإن كان لا ينكرُ جماع القدرة عند (شوقي) في (بين طعامه وشرايه) . وفي الحجاز نوع آخر من هذا الشعر يدعى (المجروح) وهو مليء بأثرف الصور الجميلة التي يجيىء عرضها في ألفاظ تكاد تعدل أحسن الشعر كل الشعر . إلى غير ما هنالك مما دعا إلى إيراد مثل منه ، بيان أن عملاً من هذا القبيل لا يكون عادم الثمرة الأدبية من حيث هو كنز مليء بالطرف العبقري ، عدا الثمرة الفنية التي تعيننا موضوعاً من حيث هو شكل من الشعر العربي العصري .

(٧) درس الأمثال العربية بما فيها العامة . فإننا نقع أحياناً بين تضاعفها على

(١) من قصيدة (كارنارفون) ج ١ من الديوان .

ماهو أسمى من كثير من المثل العربي الفصيح . وكم يخلبني مثل يقال هنا في (مصر) كناية عن طهر الطوية وبراعة الجانب وهو (باطي والنجم) . وفي الحق أنه جميل متين التأدية مما يقل مثله في فصيح العربية جامعاً بين وضوح الكناية، وقوة الأسلوب . وبفضل تأمل يسير في الوصل بين الإبط والنجم تقع على براعة البيان .

(٨) تلخيص الدراسات العظيمة والمتفرقة التي قام بها العلماء الأولون طوال عصور الدرس ، وتصنيفها بحيث تكون وحدة ويكون من مجموعها تأريخ للفكرة اللغوية على وجه مفصل . ومرتبة على طبقات يتجلى معها تمام تطور الفكرة وكيف تكاملت . . .

(٩) الوقوف بالمرصاد للاستعمالات والمفردات التي تنقل من معناها الأصلي إلى معان جديدة بحيث تفقد العلاقة اللازمة للاعتبار . . .

(١٠) تشجيع الرحلات الأثرية للقيام بحفريات في الجزيرة بحيث يكون للمجامع مساهمة في إعداد التاريخ العربي القديم كما بدأ المصري يتمم تاريخ المصريين القدماء . . .

وبعد فلم يعد من الصعب تناول هذه البحوث بعد أن قام المستشرقون بجزء كبير منها، فنحن نعتمد ما انتهوا إليه فيما يرى صحيحاً ونكمل العمل. كما أن تحقيق اللهجات الحية يبدو متيسراً بأعضاء الشرف الذين ينتخبهم المجمع من كل قبيل . ثم إذا وضعت قواعد الاشتقاق على النهج (١) الذي بسطنا من أمره ، وقرر في موازين (٢) العربية جميعها، الشائعة والنادرة ، مخصصة بخصوصيات تقوم مقام التركيب في اللغات الأجنبية . وأحكم التعريب (٣) بقواعد واحدة

(١) راجع قاعدة الاشتقاق في الباب الأول .

(٢) راجع (داء العربية ودواؤها) في الباب الثالث

(٣) في (التعريب) من فصل ظواهر العربية في هذا الباب .

فلا يعوز الوضع للمسميات الحديثة إلى كبير عناء وعظيم مجهود مما تقوم به
لجنة قليلة العدد في فرصة محدودة . . .

المجمع والمصطلحات العلمية ! .

هذا قصد له مؤيدون وله خصوم ، وله أشباع وله مستنكرون . وليس لي
الآن أن أؤرخ له ، لأن تأريخه من هم من تخصص وانصرف إلى نقد الحركة
الأدبية المعاصرة . وهو طبيعي أن لا يكون غرض من تخصص هنا للدرس
الأصول الاشتقاقية والقاعدية ، لولا أن الموضوع في صميمه يعني شيئاً آخر له
مساس بليغ بما نأخذ به . وهذا بدون ريب يدعونا إلى إبداء الرأي فيه خصوصاً
حين بدا على غموض شديد في محاوراة الطرفين . أي لم يتخذ الطرفان هدفاً بعينه
في التناحر ، ولذلك جاءت النتيجة غير خالية من المفارقات . وأرى ضرورياً من
أجل تحديد الموضوع ، أن أتكلم عن غرض انبعاث حركة المجمع . وفي غير
إفاضة أقول إن القصد الأسمى منها كان العمل لإعداد لغة قومية شاملة في
مفرداتها واصطلاحاتها الاستعمالية ، التي تجري مجرى الوسائط في تأدية الغرض
العلمي . وقد تشكل هذا القصد القومي في محاوراة الطرفين بشكل علمي نقلها
إلى غير سبيلها فكان قياس على المجمع الأوروبية ، وهذا ما كان يجب أن يتحاشى
لأنه خطأ من حيث النظر الموضوعي وسيمر بك وجه خطئه . . .

وبعد فإذا علمنا أن القصد القومي قبل كل شيء كما هو الشأن في حماية اللغات
عامة ، كان ضرورياً أن نترك للواضع العربي حريته ليضع كل شيء مادامت
اللغة القومية بمعزل عن اللغة العلمية لا تأخذ عليها السبيل . . .

ولأجل أن يكون ما أعنيه شديد الوضوح ، أنساق في الحديث على وجه آخر .
فأقرر بأن منطق مناصري المجمع يقرر غايته في غير مساس ولا مزاحمة للغة
العلمية (التي يريدونها عالمية) على معنى أنهم يريدون أن يعملوا من العربية

لغة شاملة لكل ما يطلب منها ، غير متخلفة في استعدادها عن أي مضمار من مضامير الحياة ، صالحة لأن تزدرد كل شيء على أن تمثله تمثيلاً يعود بتكاثر الخلايا الحية فيها ، مما يحفظ وجودها ويجعلها شاعرة بكل ما في الاجتماع على أدق كونه لا أن يكتفى منها بتناول توافه الحياة اليومية على وجه لا تتخلف عنه البربرية نفسها . وكذلك يريدونها لغة تحجب اليها أبناءها والناطقين بها بسرف ، لغة يقعون منها على كل ما يطلبون في غير إرهاق ولا عنت وفي غير فقر ولا معجزة . ولا مناص لنا عن هذا القصد مادامت غايتنا أن نعمم الثقافات ونرتفع بالمستوى العام . ومن الخطأ جداً أن تبقى المصطلحات العلمية (مادامت الغاية قومية) مع ذلك في إهابها الأجنبي المرعب يدب حياً جباراً في جسم العربية ، الذي هو ضرب من استعباد اللغة ومن ثم ندرك ضرورة تناول العربية لكل الأشياء مادامنا نريدها لغة لنا . وغنى العربية على هذا الوجه لا يعني القضاء على اللغة العلمية بين الاختصاصيين ضرورة أن الاستكمال اللغوي شيء ، والاتفاق بين رجال الاختصاص على متواضع ما ، شيء آخر . فاللغة للأمة جميعاً والاصطلاح لذوي اعتباره . فدعوتنا نحن محصورة في أن تستكمل اللغة كل ما يدعوها للبقاء وليس للبقاء فقط بل للبقاء السري أيضاً . وأن تكون ذات استطاعة لتناول الأشياء مهما استدقت ، بصورة عربية بحتة تخدم الأدب والعلم معاً والفن والصناعة سواء .

وأما إذا تنكبنا هذا الطريق إلى منطق الجماعة ، فمعناه أننا لا نستطيع يوماً من الأيام الوصول إلى أسلوب ثقافي صحيح وخالص من ذات العربية ، ضرورة عدم وجود كلمات تؤلف الأسلوب . لذلك كان من التفرير العظيم أن ندفع بالعرب في مثل هذا المضيق الذي يضطر كل مثقف أياً كانت ثقافته ، أن يستخدم لغة أخرى في سبيل تكوينه .

وهذا هو السبب الذي أهاب بجماعة اللغة ، مذ كانوا يعملون بدافع أنفسهم إلى أن انتظموا في مؤسسة رسمية تعمل تحت إشراف دوائر نظامية .

فكان قصدهم الأول إعداد العربية كلفة قومية وافية ، وما عليهم بعد ذلك إذا كانت جماعة الاختصاص تتفق عالمياً على ألفاظ بعينها تكون برسم العلم : وهذا شيء له نظير في كل اللغات الحية ، خذ معجماً (كوبستر أو لاروس) تقع على ما يجاوز العد من الكلمات النباتية وسواها ، التي يذكر مصطلحها العلمي ثم يردفه بالإنجليزية أو فرنسية المدلول . مما نقلب منه بالمذي نريد تقريره من أن استيفاء اللغة من حيث هي لكامل التأديت شيء آخر غير الاصطلاح ، وهذا ما ينبغي اعتباره وفاء بحق العلم واللغة . ولا يعتل بضخامة البرنامج اللغوي الذي يكلف المتخصص بحفظه ، لأن معنى التخصص الاتساع في الفرع موضوعاً ولغة . على أنه كشيء متزع من صميم الاختصاص لا يكون مرهقاً كما يتوهم . والخلاصة إنا نشايق الفئة التي ترمي إلى وضع كل شيء على أن يكون وضعاً خالياً من الشوائب ، صحيح التحديد والشمول .

اقترح ومناسبة

تسعى حكومات الشرق العربي يجد كما يظهر ، إلى غاية توحيد الثقافة وتقريب الأواصر المعنوية والروحية ، حتى يكون منها في خاتم الأمر وحدة تنتظم الأهواء والميول ، وتهتضم الفوارق في تجاهل مطلق . وهذا بلا ريب لا يتم إلا بعمل مشترك تغذيه حكومات هذا الشرق العربي الواسع ، تغذية حقة لا تقتصر على التمثيل بل تساهم مساهمة فعلية تشمل الصرف والإنفاق أيضاً .

لذلك كان على حكومات الشرق العربي أن يعنوا بفكرة المجامع عناية خاصة ، إذا كان قصدهم حقيقة تبادل الثقافة على شكل تكون منه وحدة ثابتة في الأفكار والميول والأهواء . وإنما رأينا أنه يتم كذلك على وجه محقق ، من حيث ترى كل حكومة في تشريعها ومصارف أموالها ، شيئاً بارزاً يعود نفعه على كل الأقطار العربية مرفوعة التخوم والحواجز . ويرى كل عربي أن له الحق

فيها من حيث كونه يساهم في المشروع .

وأرى وجوب الاشتراك في أمور ثلاثة . اللغة . والقانون . والثقافة العامة .
وذلك بأن تنشأ مجامع أو نواد أو مؤسسات سمها بأي اسم أردت . تغذى بأموال
الحكومات العربية قاطبة بدون استثناء وتعمل في نواح ثلاث :

(١) اللغة . فينشأ مجمع يختص بها ولا حاجة لأن يكون غير المجمع القاهري
ولكن على وجه أن يغير في قانون إدارته بحيث يتوافق مع المصالح المشتركة .
وأما أن تقوم به حكومة وحدها كمصر مثلاً . فعدا عن أن المشروع قد يأتي
يوم يلغى فيه ، يأخذ على مر الأيام شكلاً إقليمياً يجعل احترامه في منطقته فقط مما
يظل معه موضوعي الفائدة والإنتاج .

(٢) القانون . فإن الظواهر القوية الوضوح في حياة الأمم وصيغة الاجتماع
هي التشريعات الخاصة بالعموميات . ومن ثم كان ضرورياً (إن كنا نقصد تحقيق
الاتحاد العربي على وضع عملي محض) العمل على إنشاء مجمع قانوني أو فقهي يضم
النخبة الممتازة من الأقطار العربية الحائزين على صفة رسمية ، للتواضع على
القانون العام مرعياً فيه القواعد الأساسية . التي تكاد تكون مشتركة بين
بين هذه الأقطار عموماً . ويكون عمله بحيث لا يصح لأية حكومة بعد تصديقه
المشارك أن تنفرد بسن القوانين الأساسية أو بتغييرها ، إلا بعد أن يبدأ المجمع
فيعطي رأيه ، ثم تعرض على المجالس التشريعية لكل حكومة حتى يأخذ
صفة القانون النافذ في الموضوع ، ويغذى أيضاً بأموال الحكومات العربية جميعها .

(٣) الثقافة العامة ونعني بها مؤسسة الترجمة التي تكلمنا عليها فيما سبق من
المقدمة (١) فلا نعيده ثانية هنا . . .

(١) راجع فصل (العربية والغات) ص (٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩) .

الفصل الثاني

المعجم كيف نضعه ؟

كنت أروم أن أتسع بالكلام على تاريخ المعاجم في العربية . فأتناول منها كيف بدأت والأسباب التي هيأت إليها . وكيف كان تقييد الرواة لمفردات اللغة وشواردها إذ كانت المعاجم على الترتيب الهجائي من عمل النحاة . ولكني أقصرت لما أن الموضوع تناولته كثرة مستشرقة وعرب . بيد أنني أشير هنا إلى ملاحظة بسدت لي في تاريخ المعاجم قد تعبر عن ناحية غامضة وتفسرها بعض الشيء وهي أن فكرة المعاجم كانت نحوية أي من صنيع نحويين . ومنتزعة من صميم اختصاصهم ، فلم تكن في خاطرة الرواة ومن اليهم ممن اتسموا بالنحو إلى جانب الرواية أو بعبارة أدق عند طبقة النحاة الذين كانوا قبل أن يكون النحو علماً بأصول . فكان علينا إذن أن نترك سراعاً ما قبل الخليل ونقف عنده ، لأنه أقدم من عرف له معجم واسع المادة يتناول من اللغة أشياءها الجملة في شيء من الحصر أو في حصر حقيقي على الحروف .

ولكن يتساءل هنا في تحر وحذر عن فكرة الكتاب وكيف نبنت ونمت في نفس الخليل ، واستقل بعملها . وهو تساؤل جدير بالدرس وجدير بتوفير النظر الخليقين بأن ينكشف من بعدهما سر الكتاب ، ونحن في غير اطمئنان إلى الشك نجد مما يقوي فكرته وجوهاً :

(١) خروج الكتاب عن يد فارسية بحث. مما لا يكون بعيداً معه الظن بأنه نتيجة جهد غير عربي أو على الأقل لا يفكر بفكر على طراز عربي خالص ...

(٢) ترتيب الكتاب الفذ فهو يتبدى في ترتيبه نهجاً غامض القصد روج لفكرة أنه ينظر إلى نهج تقليدي عن السنسكريتية وجدوا عليه شواهد (١) ولها قوة . ولقد يكون القصد منه نشوئاً ، على معنى أن الخليل كانت عنده أفكار عن نشوء العربية بحسب طبيعة الحروف ، فعمل لخدمتها على هذا الترتيب . وهو إذا صح كان تفكيراً مستقيماً من الخليل وآية من عبقرية النادرة . والذي لا يجعله بعيداً ما حدث به (حمزة الأصبهاني) ونقله (ابن خلدون) و (ملا كاتب جلبي) من أن الخليل رمي بالفعل إلى حصر كلمات العربية المحتملة على نسق عقلي محض . هذه المحاولة التي تعرّف بخطة تفكيره ، وفيها حظ من النظر النشوي غير قليل كما يظهر ...

(٣) تطلع المحيط العلمي إلى آثار الخليل . حتى في عصره وعنايته الشديدة بها فلم يكن رجلاً مغموراً كما تشاء بعض كتب التاريخ تصويره . بل كان شاغلاً الناس ومالئاً الفراغ كما يظهر من حكاية (٢) ذكرها (أبو الهلال العسكري) ومن شغف الشخصيات بالاجتماع اليه ومناذرته (كابن المقفع) ، ومن الحاح الأمراء بتقريبه (كالعباس بن محمد) مما هو شاهد تقدير عبقرية . وإنما يعزى عدم حظوته إلى أفكاره العبقريّة أيضاً ، التي لم تكن بحكم جديتها تلذ الجمهور لأنها ترتفع عن مدى مداركه ، ولا الخاصة الذين همهم التعلق بالجانب اللاهي من الحياة ، وإلى أسباب أخرى من العصبية للبلد ونفوذ الكوفة .

هذا التطلع الذي يقضي بانتشار الأثر . وبالأخص إذا كان يحوي مفاجأة

(١) فقد ورد في دائرة المعارف الاسلامية ان الخليل اتبع في ترتيب مجمله طريقة النحاة السنسكريتيين في ترتيب حروف لغتهم فأن حروف السنسكريتية تبدأ بأحرف الحلق (guturols) وتنتهي بالأحرف الشفوية (Lobials) وهو قد رتب العين على الحروف مبتدئاً بحروف الحلق فاللسان فالاسنان فالشفتين .

(٢) راجع ديوان المعاني ص / ١٨ / ج ١ /

حقيقة فتأخر ظهوره سنة (٢٥٠) نطوي منه على حذر شديد. تجتمع أسبابه على ظن أن يكون لمدرسة البصرة فرع نشأ في فارس . ينتظم الأمير الليث وجماعة شملهم نفوذه . قام على تمجيد ذكرى الخليل وشرح تراثه وترتيبه بالمقدار الذي وصلهم منه ، ولكن تناولوه بعقلية غير عربية ، وذهنية دربت على غير نحتها . كان عندها من التنظيم الفني قسطاً أوفر مما كانت عربية خالصة ، فأخذوا العربية على نسق بدا كما هو ، غريباً جداً وأجنيباً واضحاً ، ومن ثم يظهر كيف تأثر الكتاب بفكرة سنسكريتية قد تكون ، عن هذا الطريق .

وأما الخليل نفسه فأبعد ما يكون عن ظن التأثير في كل ما انكشف عنه من إحياء عبقرى . في العروض . في اللغة . في الاشتقاق . وهو عندي مثل أعلى مما يمكن للعبقرية العربية أن تقدمه من مثلها العليا . والذي ننهي به هو ان الكتاب ليس من تصنيف الخليل على صورته ، وان كانت أفكاره الرئيسة من أفكار الخليل ، أخذت صوغاً آخر واملاء طريفاً . ومن جهة أخرى يوضح لنا كيف وقعت فيه الأخطاء (١) التي أخذت عليه وقال فيها (ابن جني) انها لا تقع من أصغر تلامذة الخليل فضلاً عنه .

وأما زعم من زعم أن الكتاب احترق وأملأه تلميذه الليث من حفظه ، فأقرب أن يكون خرافة ونادرة . يكاد يتسق عندي هذا الظن ، ولكن يعرض دونه سؤال وهو ألا تعرف آثار أخرى يمكن عزوها إلى هذا الفرع الفارسي من مدرسة (البصرة) الذي يمتاز عنها بأسلوبه في شرح الخليل ؟ . وهو يبدو قوياً ولا يمكن الجواب عليه بسهولة ، وان كان من المستطاع الاجابة عليه بمحاوله غير مقنعة . وذلك حين يظن انه قد كان له آثار عفى عليها ما بدت به

(١) بهذه المناسبة أذكر بان أشد المنكرين الحاحا في أن يكون من عمل الخليل هي مدرسة الخليل واعلامها مما يبدو معه مستبعداً جداً ما ظنه الدكتور محمد بن شنب كاتب المقال عن الخليل ابن احمد في الموسوعة الاسلامية من ان الحسد للخليل هو الدافع الوحيد لانكار نسبته اليه ..

مدرسة البصرة الرئيسية من قوة في شرح الخليل ، ومن انتاج خصب متفوق .
مما أضالّه وجعله يقضي في صموت ، أو شملته بمنطقها فلم يتميز عنها فيما أنتج ...

هذا ما يستطيع فهمه من تنف النصوص المحفوظة . وما علينا أن يكون من
عمل الخليل ، ما دمنا نقرر أنها أفكاره مشروحة على نهج غريب ، ومن ثم
نتخلص إلى تصنيف المعجم العربي في مناهج ثلاثة :

(١) منهج الخليل : في العين وأعظم ما ظهر عليه المحكم لابن سيده .
والجمهرة لابن دريد .

(٢) منهج ابن فارس : في كتابه مقاييس اللغة الذي لا أعلم أحداً سبقه إلى
الوضع على مثاله وفيه يبدو نوع من تقدم اللغوية العربية وجنوحها نحو التهذيب
والسهولة والتصنيف . وأهم ما ظهر عليه المحيط للصاحب بن عباد تلميذ ابن
فارس والأساس للزمخشري والمصباح المنير للفيومي .

(٣) منهج الجوهري في الصحاح وفيه تتمثل العقلية اللغوية بتعام قوتها ، وملكة
التصريف الفلسفي ويعطي صورة من بلوغ المنطق في اللغة . وأهم ما ظهر عليه
العباب للصغاني . واللسان لابن منظور والقاموس الفيروز ابادي . وملخص الأساس
للزمخشري ...

هذه نتبة عجل حقيّة كما أظن . ولا يعني ما قبلها كثيراً لأنه لا تجدر به كلمة
المعجم (١) . وانما تدخل في موضوع الأسباب التي هيأت إلى المعجم ومهدت
إليه ...

(١) جاء في ضحى الاسلام (ج ٢) ان المراحل للمعجم العربي ثلاث وأنها كانت متلاحقة
بانظام وهو وهم والحق ان وضع المعجم على المعاني ليس بمرحلة وانما فن يعمل في الناحية الأخرى
التي يعمل في مقابلها المعجم على الاصول فهي مرحلة تاريخية لا الحاقية وتأخر المعجم على الاصول
انما كان نتيجة طبيعية . لان العمل الصرفي ابتداء على الحقيقة بعد الخليل . والمعاجم على هذه الملاحظة
كانت لخدمة التصريف قبل كل شيء ويظهر هذا من كتاب مقاييس اللغة لابن فارس اذ كان يصرح بأصول
الكلمة كثل (خضم) يقول الخاء والضاد والميم أصل الخ وفرق كبير بين أن تكون مراحل مترتبة
بمعنى ان كل واحدة أدت الى نشوء الأخرى وبين أن تكون مراحل تاريخية او زمنية .

وهذه المناهج وان يكن بعضها وافياً بالغاية من المعجم المادي. فهو في حاجة إلى متممات تزيده سهولة . وانما كان منا هذا التخصيص لأن من رأينا لزوم وتنويع العمل في المعجم العربي (١) على أنحاء :

(١) المعجم المادي ويبحث على سنة المعاجم القديمة ...

(٢) المعجم العلمي . ويبحث في الاصطلاحات موزعة على حسب الاختصاص بحيث يكون للقانون جزء يختص به وللاجتماع كذلك . وهكذا .

(٣) المعجم الاصطلاحي . وهذا يكون على نسق الكليات لابن ابي البقاء، والتعريفات للجرجاني

(٤) المعجم التاريخي أو النشوئي . ويبحث في نشوء المادة ومقارنتها بالساميات وتطوراتها الاستعمالية وتراوحها بين الحقيقة والمجاز مقيدة بالعصور . ويكون مادي وسياقي بيانه .

المعجم المَعْلَمِي وهو يضم جميعها باختصار ...

المعجم المادي !

نختار في ترتيبه أن يكون على سنة (المصباح) بيد لا يتقيد بالنظر إلى الأصول. بل ينزل الزوائد عليها منزلة الاعتبار أيضاً . ولكن كما أبدى بعض الباحثين من أن هذا قد يفصم عروة المادة العربية . أو هو يفصمها بالفعل بخلافه في الأجنبية . لأن الزوائد تغلب على الأول فيها (prespex) . وفي الأجنبية قلما تكون عنده وتكثر في الآخر (suffix) . وهو ملحوظ يمكن الاحتياط له بأن يبنى الكلام على الزوائد بضرب من الاحالة . على معنى أن يثبت في باب الهمزة

(١) ناصر هذا الرأي الدكتور حين نصار في كتابه الضخم المعجم العربي نشأته وتطوره

نظر ص ٧٢٥-٧٢٨

والراء مثل (أروٲٲان) وان يحال الكلام عليه الى مادة (رون) كما هي سنة اللوائر العلمية في الاعلام بحسب الاشهار لقباً أو كنية أو اسماً .

وهذا وان يكن يلزمه عملان ويتضخم معه المعجم العربي بعض الشيء ، يسهل مهمة الاستقلال بدرس المعاجم وبالرجوع اليها على الناشئين ، وبعض الخاصة الذين يعتاص عليهم تناول كلمة من معجم كالقاموس (١) . وينبغي أن تثبت فقط على هذا الوجه ، الزوائد غير الواضح شكل زيادتها ، وأما القياسية الواضحة فتثبت من أول الأمر بمحلها المادي (كفاعل ومفعول) . ثم يأخذ بعمل شكلي كالترفة بين الحقيقة والمجاز ، واختلاف المعنى باختلاف الوصفية والاسمية وسائر الأشياء التي أثبتناها في النماذج المنشورة . والتحلية بالصور من أجل التوضيح .

المعجم العلمي

وهذا يفرغ فيه لخدمة الاختصاص وحده ، فتوضع الفاظه مبنية على شرح تخريجي يتولاه أهل الاختصاص ليأتي على صورة وافية ، فيوضع في أجزاء للجغرافيا والحيولوجيا والهندسة والقانون والاجتماع والتاريخ فناً واعلاماً الخ ...

(١) نفي الي ان الاستاذ اللغوي (محمود خاطر) مرتب (مختار الصحاح) قد رتب القاموس على نهج (ترتيبه للمختار) توفيراً للجهد الذي يتدارك أي مطالع وهو عمل جسم بلا ريب ومفيد أية فائدة ولكن نرى أن يعمد إلى تصحيحه أولاً. فان الشرتوني القى على عاتقه أكثر ما انتشر من الاغلاط (راجع اقرب الموارد ج ٣ ص ٤) وأخذ عليه الشدياق (في مقدمة الجحاسوس) اهام عبارته بحيث لا ينه على الفصيح من غيره والغريب والمهمل والمحرف والمصحف وذكر الاستاذ (Lane) في مقدمة كتابه (مد القاموس) ان كثيراً من ملاحظات الفيروز ابادي النقدية خاطئة . ومن قبل هؤلاء . تمقه الائمة الاعلام في الكثير الكثير كابن الطيب الفاسي والقراقي كما ان الواجب يقضي اذا أخذ بترتيب القاموس على هذا الشكل ان ينقي من الأوهام التاريخية وأن تحقق فيه النباتات والحيوانات وأما اذا ترك على ما هو من الأوهام اللغوية والعلمية ، فما يكون الصنيع الجديد الا ترويحاً للخطأ واشاعة للاغلاط ...

المعجم الاصطلاحي :

وهذا يتناول المصطلحات في درس لغوي علمي فيبحث عدا شرح الاصطلاح ، في اشتقاقه ووجه مأخذه وما يتبع ، والغرض تعبيد الموسوعة العربية على منتهى المواتاة ...

المعجم التاريخي أو النشوي :

وهذا يفرغ فيه إلى درس المواد وكيف كان نشوءها . ويتناول المفردات من حيث هي عربية عريقة أم تنظر إلى مصدر غير عربي . ودرس كل الملاحظ الاعتبارية عليه بحيث يكون على وضوح تام فيه . ما يدعى باختلاف اللغات واللهجات وتداخلها وما وراءها من مشاكل في اللغة .

ولهذا المعجم عندنا ترتيب ينزل من مواده منزلة نشوئها في أقرب التقدير . ذلك بأن يبدأ (بالمعل) الذي هو في نظرنا (١) الثنائي الصوتي . ثم بالثنائي والمضعف الذي هو في نظرنا المعل نفسه طوروا اعلاله على هذا الوجه من التضعيف اثم بالمهموز الذي هو في أكبر عدده معل أخذوه بالهمز . ثم بالثنائي المكرر . ثم بالثلاثي ثم بالرباعي وهكذا واليك المثل عليه :

(زَبَى) بمعنى حمل . وزباه بشردها . الازبى النشاط وضرب من السير .

(زَبَّ) الزباء الداهية الشديدة . وزب القرية ملاًها .

(زَبَّأ) الزباء الغضبة .

(زَبَزَبَ) غضب . وانهزم في الحرب .

(١) راجع مبحث المجلات في الباب الأول .

(زَعَبَ) الاناء ملاءه . والقربة احتملها ممتلئة . وتزعب نشط .

(زَعَبًا) عندها تنتهي المادة فلا نجد لها ذكراً في المعاجم . واليك مثلاً آخر أتم من الأول وهو .

(شَرَى) الفرس . بالغ في سيره . وشرى الشر استطار . وشرى الاقط وضعه على خصفة ليحف . تشرى تفرق .

(شَرَّ) شره الشباب نشاطه وشرر النار . وشرر اللحم والاقط كشره

(شرشر) الشيء قطعه . والشرشر الاثقال .

(شمر) الفرس مرجاداً أو مختالاً . وأشمر الابل اعجلها .

(شمرد) الشمردي . الناقة السريعة .

(شمردل) الفتى السريع من الابل .

وهكذا يكون السير فيه بحيث يضع حدوداً واضحة للتطور ورسوماً بينة للارتقاء ثم ينتشر كذلك على المفردات في الاستعمال والدخيل وما يتبعه من أبحاث يرتفع معها مستوى النظر اللغوي في العربية .

المعجم العلمي

أو دائرة المعارف الصغرى على مثل معلمة (اكسفورد . وبستر . لاروس) .

والواقع ان أصول الاشتقاق والنظر الاجتهادي على العربية ، أصبحا في حاجة مطلقة إلى التمهيص . لنخدم عريتنا الحاضرة وتاريخ العربية العريقة خدمة مزدوجة . تفيد العربية الحاضرة بما تنفخ في بقاياها من الروح . وبماتمسها به من تيار الحياة . وتفيد العربية القديمة بكشف أسرارها الغامضة .

الفصل الثالث

شكليات اللغة الغارجية

الخط العربي^(١)

هو أي الخط العربي شغل الرأس في أقدم ما كان . وما فتىء شُغله على جانب عظيم من صعوبة الحل . وكذلك لا يزال يُراخي بالرؤوس بين الأكف لتتناهى في تفكير عميق .

وعلى صعوبة ما صادف الأولين من عنائه . فإن ما يصادفنا نحن منه يزيد على أعضائها أو عليها كافتها . وربما كانت هذه آخر معضلة . وإذا ستقامت فيه فليس أجمل منه ، ثم ما أخصره قلماً .

وتلك هي مشكلة الخط المُعَرَّب ، أى الدال بنفسه على الحركات . وسميناه مُعَرَّباً بصيغة اسم الفاعل أو المفعول بملاحظة الاعراب بمعنى البيان ، وهو مطلب خطير الشأن غَنِيٌّ الجانب . ضروري أن يشترك اللغويون والفنيون من كتبة الخطوط بالسعي الحثيث إليه حتى يسقطوا منه على ما يكفي حاجة العربية .

والحق ان متن اللغة هو أحوج ما يكون إليه حاجة ، فكل ما يرمي به من صعوبة آتية من سداجة الخط ، فاذا كفت العربية أمره ، لم يعد مفر من ضبط كل كلمة على ما هو في الأجنبية ، وتلقينها كذلك وتداولها على وجهها من الصحة . بله تربية النشء على أقوم اللهجات وأصحها . بحيث يمكن أن نضمن

(١) نرسل هنا رأياً في الخط الذي يفني عن الحركات . وهناك آراء مختلفة . يمكن تحقيق رأينا بالاعتماد على ما جاء في الجزء الرابع من صبح الأعشى . ولكن هذا التحقق الذي أرجوه يستنهض هم الفنانين الكبار ، ليكون واقعة تنفع ..

بمرور ربع قرن على شيوع هذه الحروف أن تصبح اللهجة القويمَةُ الفصحى .
هي اللهجة المشتركة العامة .

وفي هذا شيء كبير من تشذيب العامية ورفع مستواها . وتقريب ما بين
مختلفها كالمصرية والسورية والعراقية والحجازية واليمنية والمغربية ، وما إليها مما
يكثُر على الإحصاء .

وبالأخص حين يصبح التعليم اجبارياً في عموم المحيط العربي وهو آخذ
في تحقيق هذه الصفة له ، على أنه لم تكن له أية صبغة رسمية . فالنهضة التي
شملت الناس عامة ، والصحافة التي شغفت الجميع ، وانبت كل امرئ إلى
تقدير المسؤولية ولو من بعض وجوها ، ستحققان هذه الغاية من وراء الخط
المذكور على شكله . وسيجمعان الأقطار العربية على ثقافة لسانية لم يكن العصر
العباسي الذهبي على شاكلتها .

ولا تعجب اذا سمعت ان الأجنبية فيها كثير من هذا الاختلاف وهذا
الضبط والضبط وحده شغل جزءاً كبيراً من المعاجم . وربما كان على وجه
أصعب من العربية .

ولكن اذا سهلت في الأجنبية واستعصت في العربية ، لأنها تلقن كذلك
وتقرأ كذلك ويتخاطب بها كذلك ، ومن ثم لم يعد لها مناسبة تجاوز فيها فصيح
نطقها فيلتوي الذهن على الخطأ وتنطبع كذلك على الهوى .
واليك المثل عليه من الانجليزية ففيها .

(Pear) بمعنى الاجاص . وتضبط هكذا (Par)

(pear) بمعنى أمير اوند . وتضبط هكذا (par) واليك مثل منها على

وجه آخر (patrol) وضبطها (patrôl)

(patron) وضبطها (patrûn) وهذا كثير يفوت الحصر . ولذلك كان

واجب المعجم عندهم كما هو الحال عندنا يقضي بضبط كل كلمة حتى يكون
المرء على بينة من فصيح نطقها .

ومنه نتبين أن الخط العرب ليس هو السبب كله لشيوع الفصح في

الأجنبية ، بل وراءه أيضاً أسباب أخرى نثرنا ذكرها هنا وهناك من موضوع الاملاء وغيره .

وأهم الأسباب فيما تبدو عليه العربية ، مزاحمة العامية . فللحديث اليومي وجه وللحديث العلمي وجه آخر ، وأيضاً التلقين الخاطيء الذي يضعف من شأنه الخط العرب .

وفي غير بسط وتمطيط من جوانب الموضوع وحواشيه ، نذكر اقتراحنا هذا الذي نرى فيه أنه علاج لا يبعد صلاحه ، إذا لم يكن مما يحقق كل المراد فلا ريب في أنه يمهد السبيل الفني في أقل التقدير .

ونحن نقترح ما نقترح من أمره مع المحافظة الشديدة على الشكل الهندسي والارتفاع به حتى يكون دونه مجال الاقتراح ، فان ما وراء هذا الرسم لانشاؤه بحال . ونرى أنى لا أتكلف لهذا الاقتراح (عَرَقَ القِرْبَة) واعتصر الذهن على أشكال مناسبة . وانما غاية ما كان من أمري ان أخذت بالاقتصاد في زمن يكثر الاسراف فيه ، فان المجموعة الخطية المختلفة الاوضاع عندنا تشكل ثروة تجوز العد ، وهي تتقارب في أشكالها وهندسة الحروف تقارباً لا يبلغ حد الاشتباه بل تختلف بما تمتاز به . وهذه الثروة عوضاً عن أن تبقى لتطريف الخط على مثل التطاير ، نضعها موضع الفائدة ونأخذ بها مأخذ الاستثمار . ونحكم منها خطأً قد يأتي موزوناً جداً . وستجد له أشكالاً نعرضها هنا حتى لا يعجز الشاهد .

ومن رأينا أن نؤلف (الخط الجديد) من النسخ . والرقعي . والفارسي والديواني والثلاث .

فالثلاث — للحروف المضمومة . أولاً ووسطاً وآخرأ .

والنسخ — للحروف المفتوحة . كذلك .

والرقعي - للحروف الساكنة كذلك .

ومن الفارسي والديواني - للحروف المكسورة كذلك .

وهذا وان كان يعسر التمييز بينه للتقارب في أول الأمر ، فانه يُعَبَّد مع المراتة والتعهد . وفي اليونانية حروف على هذا النسق متقاربة ، ولكن لا تبعث على الاشتباه للمزاولة المتعاهدة من أول الأمر بالتعليم ، حتى يُنْتَظَم بها حاسة دقيقة جداً ، كما هو الحال في كل الأشياء . وكذلك نجد في السريانية تقارباً بين بعض الحروف ، وفي العبرية أيضاً ، ومع ذلك يشعر قبيل كل لغة بسهولة . وكذلك نجدها سائغة إذا أردنا أن لا نتعصب عليها . ونَعْتَلِّها متأفين . وقد يؤخذ بأنها تُكَبَّدُ الطالب إتقان فروع من الخط كثيرة . ولكن يجب أن لا ينسى أنها تكفيه أيضاً مؤونة اللغة ضبطاً وتصحيحاً وأيضاً مؤونة النحو . على أن هناك فرقاً بين المراتة على تمييزها وبين احسان رسمها ، وإنما يكلف الطالب بالتمييز دون الآخر الذي هو من هَمَّ الخطاط وحده . وإذا صرفنا النظر وجدنا في الأجنبية تَعْدَاداً للخطوط ، يكلف الطالب بجزء كبير منها ، فهو مضطر ليساير الشائع أن يكتب (Capital-letter) أول الأعلام وابتدأت الأسطر وهكذا .

ومن ثم تصبح العناية بالنحو واللغة في التعليم الاولى قليلة من حيث ما يلزم للمطالعة منها . وقد يُعْتَلَّ بأن هذا الخلط في الخط ، ربما أضاع جمال الهندسة العربية ، وهذا قد يكون صحيحاً ، بيد أن الخطاطين إذا تناولوه بالتهذيب . أخرجوا منه قلماً جميلاً بدون شك . ولا يبعد المثل عليه فهذا (الخط الأيوبي الذي اخترع بين الثلث والنسخ . ما زالت أيدي الخطاطين تراوحه حتى بدا أجمل منهما معاً . ويكفي أنه اتخذ قلم دولة ، ومظهر حكومة .

ولا نجد داعياً إلى وضع حرف مشدد بل نلتزم الاحتفاظ بالشدة . ووضعها فوق الحرف الذي بشكله يدل على حركة الشدة . وأما (ال) الشمسية فنرى رسمها في الساكن (الرقي) وإذا وقعت بعد ساكن . تحرك بالكسر أو بالفتح . وانما اخترنا أن تكون هي دليل الحركة في الحرف . لئلا يظن أن الحركة أصل في الساكن قبلها ، وليكون دليلاً على تعرضه لالتقاء الساكنين . وأما همزة الوصل فترسم في الساكن (الرقي) وأما التنوين في الحرف فإشارته (،) مثل (ل ،) .

على أن ملاحظة الآخر على سنة هذه الحروف . صعبة لعل الاعراب في العربية الذي يتغير كثيراً . مما يصح معه أن نصطلح على إعمال الخط المعرب فيما عدا الاعراب الذي لا يفتقر إلى كبير مجهود . وبما أن الأصل في الأواخر (الوقف عليها بالسكون) . فرسم أواخر الحروف مطلقاً التي هي متراوح الاعراب في الساكن (الرقي) . لما هو مقرر من أن (العارض بمنزلة العلوم) . وأيضاً الشكوى ليست من الاعراب وانما من البناء أي تحقيق ما هو مقتضى الابنية في العربية الصحيحة .

هذا ما تراءى لي وللهيئات الخطية أن تبدي رأيها ، وتأخذها بما يلائم من اصلاح وفنية .

بيد أنه يبقى رغم كل ما يدخل عليه من اصلاح وتهذيب وتحسين ، صعباً على الطفل البدئ . فهو من الناحية التربوية . يبدو عقيماً بعض الشيء وهذا مأخذ قد يكون جوهرياً ولكن يمكن أن يحتاط له بأحد اسلوبين .

(١) أن يعلم شكلاً من أشكال الخطوط العربية كالنسخ والرقعي ساذجاً . وفي الأول ابتدائي يعنى بتعليمه الخط المعرب .

(٢) أن يكون تعليم هذا الخط المعرب على طريقة التوزيع بمعنى أن يعتمد إلى

الكلمات المضمومة في كل حروفها . والتي توضع في الثلث - والكلمات المفتوحة في كل حروفها والتي توضع في النسخ - والكلمات المكسورة في كل حروفها . والتي توضع في الخط المختلط - ويقتصر عليها في ترويض الطفل للوهلة الأولى . حتى يتمرن على مزاولتها بهذا الشكل ، وتنطبع في ذهنه فوارق الخطوط بكل وضوح وهكذا حتى يدرك بنفسه ميزات كل خط بدون تلقين أبداً . بل بالاستنتاج المجرد . ومن ثم يؤخذ الطفل إذا قطع هذه المرحلة ، بالكلمات المختلفة الحركات والمعرّضة بالسكون ، حتى تتم منزلة هذه الخطوط من نفس الطفل كما لو كانت من طبيعة الحروف . وبهذا يعود الخط في ذهن التلميذ ، وله قياس مترتب الحلقات مطرد النظام . بحيث يستغني استساغة مطلقة .

وهذا الأسلوب الثاني . أفضل من الأول في الترويض على الخط . ومن هنا يصبح كما ترى خطأ سائغاً لا مشكلة فيه .

ونحن إذا حمدنا لهم هذا المقدار من الشكوى ، أو حمدناها شكوى في هذا المقدار وأصغينا إليها بانتباه حكيم ، حتى كان من كافة رجالات العربية مناوله لها مشتركة ، بأفضل الوجوه والأوضاع الممكنة التقدير والاحتمال . فاننا لا نحمد ما وراءها مما يزيد على مقادير الجذ ، ويكون غُنجاً من الغُنج ، ودلالاً من الدلال . هذا الغنج المرتسم بالشكوى أيضاً من صور الحرف على موقعه من الكلمة أولاً ووسطاً وآخرأ . وهو لا يفسر الا بأحد تفسيرين .

إما أن الجماعة تريد أن تدرس العربية ولكن كما يقول العامة (بسدون نفس) وما احبلاها كلمة فيها قوة . وفيها حقيقة وفيها براعة أخاذا .

وإما أن تكون إثارة مثل هذا الأمر مقصود وراء ما تعطي الألفاظ ووراء ما تخفي الظواهر . وهو على المكشوف وضع العربية والعرب ، أمام الأمر الواقع الذي لا مفر معه من اعتماد العرب على أحد لونين : إما الكتابة بالحروف

الصوتية ، وإما الكتابة بالحروف اللاتينية من أول الأمر ما يرومونه وهو في بادي النظر. ونحن نميل الى الاتهام ونعتبرها ليست شكوى . بل طلائع محاولة خطرة . إذا تم وأخذ المصريون بها انعزلت مصر^(١). وفقدت كل ما تتمتع به من مكانة سامية . فان هذا الجانب منها والحق ، ليس له لون الشكوى في شيء وانما هو اللجأ والاحتراج .

(١) هذا الكلام من ثلاثين عاماً ، فما ذا نقول عن نفس المحاولة ، حديثاً ، في غير مصر؟

الاملاء

يخصون الاملاء بجزء كبير من شكواهم ، المطبوعة على غيرار لا يختلف في كثرة ما يختلف الشاكون . ونحن وان كنا نتحسس معهم صعوبة في قواعد وضع الهمزة ، وفيما يخص الف اللين المنقلبة عن ياء او واو ، لا نرى من الانصاف اللجاج في الشكوى . فان العربية اذا كان في هذين وجه صعوبتها فقط ، ففي بعض اللغات الاجنبية ما يضاهي هذه الصعوبة باملاء كل كلمة كالانجليزية التي تنطوي على اختلافات ، وبقايا وزوائد أثرية تارة ، وتقليدية تارة أخرى لا تنظر الا الى مصدرها البعيد . ومع كل ما نجد في الانجليزية من هذا لا نسمع تأففاً بصم الآذان ، ويستغل كل مناسبة على كثرة ما تدرس بين ظهرانيها .

ولا أجد داعياً الى أن اسوق شواهد واستكثرها من هذا الاختلاف ، فإنه اللغة برمتها ، وان كان قد يلتمس له علل لغوية فلا ينافي صعوبة الاملاء الى حد الارهاق .

ورغم أننا نرى العربية ليست على صعوبة من هذا القبيل — فلا علينا ان تبقى على ما هي من املائية لا ترهق دراستها — كنا ابدينا رأياً يضعها في نحو أيسر طلباً واطوع عملية . تأتي هنا على تلخيصه لأنه لا يعدو مناسبته .

لا نظن أن احداً يستريب في أن قواعد الاملاء . خضعت للفرض بأكثر

مما خضعت للمحاكمات الدقيقة والاستنتاج منها . وهذا ضروري في جانب تراث حظه من التقدم الكتابي ضئيل. ومن وجه آخر نشاهد بان اللغة في مفرداتها وموازينها لم تستقر على وجه التمام ، مما يكون معه على جانب كبير من البداهة ، تقدير وجود املاآت قَبَلِيَّة مختلفة اختلافاً بيناً بصورة غير يسيرة . ويشهد لهذا حتم عثمان (ض) على كتبه المصاحف (الام) بان يكون الرسم آخذاً سنة قريش في الكتابة والتصوير . على ما ذكره الداني والسيوطي وغيرهما .

فلا سبيل اذن الى انكار ان بعضاً من الصور الاملائية التي قبلها اللغويون على علاقتها ، أي كصورة متممة للاستقراء الاملائي ، باعتباره موضوعاً من الصرف هي من الاملاآت الأثرية التي تمثل عهداً انقضى او ينقضي بأوزانه ورسومه . وانما بقاؤها في العربية الحديثة كبقاء حيوان من الفصائل المنقرضة يغالب الحياة في أن تقبله مع منافسه الاصلح . (ويمكن ان تسمى هذه الأثریات بالمتحجرات اللغوية التي يبقى عليها لصالح التاريخ ومن ثم يظهر وجه كيف تكون اللغة أيضاً في سلك التاريخ الطبيعي) .

وفي اللغة تبقى النفايات لاعتبارات – عدا المنافسة – تتبع القبيلة في سيرها الارتقائي . وعليه فالخطأ الذي وقع فيه اللغويون من وجهين .

(١) ظن ان الأثري هو من اللغة الحديثة التي عرضوا لدرسها واستنتاج قواعدها

(٢) أخذ القبائل جميعها بملاحظة واحدة . فلم يستقرعوا الملاحظات القبَلِيَّة في هذه الاختلافات .

ومن هنا يظهر بعض من سر الابقاء على املائية القرآن من غير تغيير ، او خطر هذا التغيير كذلك ، لان القرآن كتب ممتثلاً نهج قبيلة بعينها ، هي اتقن ما تكون للوسائل الكتابية ، عند مقايسة القبائل . ولما تعهد اللغويون وضع قواعد الاملاء ، تناولوا الآثار الكتابية وحكموا اجتهاداتهم الصرفية بصورة كبيرة ، رفعوا مستوى القرآن عن أن يأخذه بها .

على أن اللغويين كادوا يتورطون باجتهاداتهم على القرآن ، ولكن لما اجتمع أمر القراء بانفصال القراءة عن اللغة ، وأصبح لهم بما يسمى في لغة العصر (نقابة) او شبهها ، وقفوا وقفة كان لها أكبر الأثر بعد ذلك بحفظ هذه الإملائية وصيانتها من التغير وزادوا محافظة حين افردوا املائية القرآن بالتأليف وجعلوها فرعاً من علومهم . وهنا أذكر قصة تقف منها على صحة ما نقول من أخذ اللغويين بقواعدهم على القرآن رغم اختلافها ، فكاد يكون في القرآن رسماً مختلفان أشد الاختلاف أو رسوم ، ذكرها (ابن الانباري) في كتابه (١) نزهة الالباء قال :

(ويحكى ان بعض أكابر أولاد طاهر . سأل (أبا العباس ثعلب) أن يكتب له مصحفاً . فكتب والضحي بالياء – أي الألف المقصورة – ومن مذهب الكوفيين انه اذا كان كلمة من هذا النحو أولها ضمة أو كسرة كتب بالياء وان كان من ذوات السواو . والبصريون يكتبون بالألف . فنظر (المبرد) في ذلك المصحف فقال ينبغي أن يكتب والضحي بالألف . لأنه من ذوات الواو . فجمع ابن طاهر بينهما فقال المبرد لثعلب لم كتبت والضحي بالياء ؟ فقال لضمة أوله ، فقال له ولم إذا ضم أوله وهو من ذوات الواو . تكتب بالياء ؟ فقال لان الضمة تشبه الواو وما أوله واو يكون آخره ياء . فتوهموا ان أوله واو ... فقال أبو العباس المبرد أفلا يزول هذا التوهم الى يوم القيامة ؟ ...)

وكذلك لم تضبط قواعد الاملاء ، ولم توضع أصوله بعيداً عن النظر الصرفي ، ولذا لم يفرد بالتأليف . ومن كتب فيه كتب بصورة عامة لا تخصه بالذات كأبن درستويه في (المتعم أو ادب الكتاب) . والصولي في (ادب الكتاب) . وابن قتيبة في (ادب الكاتب) وأكثر ما يظهر فيه هذا . قواعد وضع الهمزة . والف اللين المتقلبة . ولذا بقيت فيهما مشوشة نوعاً ما . ومن ثم

(١) راجع نزهة الالباء في أخبار الأدباء ص ٢٨٨ ..

لا نرى مانعاً يمنعنا من المضي في تقرير قواعد جديدة للهمزة ينزع عنها هذا الاضطراب .

ولم نر مانعاً لأننا بعرض نسق الكتابة عند العرب لا نستطيع أن نخرج بقواعد واحدة ، أولاً نخرج بقواعد ابدأ . مما نلرك معه ضعف التعويل على اسلوب عربي عريق في شريعة الاملاء . وبالاخص حينما نعلم ان الاملاء أخضع لتطويرات حسب الداعية فكان يُتأنى ويُحتناط به مع ما يستوي والحاجة قال (١) أحد لغويينا اللبنانيين ظاهر الشويري (ان قواعد الاملاء اصطلاحات كان لبعضها أوجه قبل النقط والشكل وأما الآن فقد صارت ليست عديمة الفائدة فقط بل من جملة العوائق) . ومن ثم نتركه للاجتهاد الصرف او للأرتاء وحده كالحط ، فلم يكن التجديد فيه . وتحديد قواعد خاضعاً للملاحظة اعتبارية . وعليه فلم يعد ضعفاً اختصار قواعد وضع الهمزة ، اولاً ووسطاً وآخرأ ومفردة ومركبة على حرف من جنس حركتها . او بعبارة ابن درستويه . (على حرف من جنس ما تسهل اليه) . وفي حالة الاسكان تكتب على حرف من جنس حركة ما قبلها .

وقواعد كتابة الالف المقصورة تختصر بكتابتها وفق لفظها الذي هو الالف الهوائية ، بقطع النظر . لان ما وراءه ملحظ صرفي يضاف الى اللغة ويتعلق بالاشتقاق .

ويجب أن لا يغرب عن البال . باننا نرسل نموذجات لا قواعد محتومة التقليد ، وهي بعد دعوة مرسله قد تجدد وقعا ، وتصادف هوى .

ومع اني اعتقدتها دعوة ، حتم علينا الاخذ بها ووضعها موضع العمل . تسهلاً على الناشئين ، فلا أرى ان نتناول بها القرآن ، لأنه برسمه التقليدي يجمع العالم الاسلامي على راموز واحد ، له مسحة قدسية عميقة مما تصغر معه اية غاية أخرى .

(١) راجع رسالة اللع النواجم في اللغة والمعاجم ص ٤ .

الفصل الرابع

الشكليات الداخلية أو المعنوية

البيان

مضينا في دراسات وأحاديث حتى جاء حديث البيان، والبيان حديث طويل واسع، نتناوله فنتناول به علما غير واضح القصدولا ظاهر الغرض، وموضوعاً لايقوم في مسائل وانما يقوم في خواطر، فجاء البيان كذلك منجرداً عن صبغة ما به يكون العلم. وأنت حين تأخذ فيه لا تشعر الا انه (ابساغوجي والقاطيغورياس)، اجريا على الأدب في غير تقليد محكم، وإلا فأی معنى للمثل (فجرى التشبيه من الكلبيات للجزئيات) الا ان يكون تصويراً لحركة النفس في المعقولات.

ثم أي معنى لأن نأخذ في اللغة بتقسيمات دقيقة من نوع الوهميات وما إليها. مما هو خليق بأن يكون تصنيفاً للصور الحاصلة بالحصول الشبهي. وايضاً فأی معنى لرأي السكاكي في (انبت الربيع البقل) الا ما نقرر من الانتزاع الفلسفي البعيد عن قصد الأديب.

والواقع أن درس البيان، لن يكون بهذا البيان. ونحن لاننكر بان المعلومات التي يطالعونها بها في هذا العلم (كما يشاؤون تسميته)، انها صارت وتقررت قسماً من علمنا، فلا نشجبها باستغناء مطلق، وإنما نريد ان نجعل دراستها للمتخصص فهو يدرسها على انها حلقة من حلقات تطور هذا العلم، وهو يتقنها لا من حيث أن لها ضرورة، فيفهم على شاكلتها بيان العرب وأدبهم، بل ليتحقق لونها من دراسات الأولين.

والأفاني أخذ هذا يا قوم . لاسلوب العرب إذا كان على نهج (ليس كمثل شيء) الذي كان نهجاً كافراً جعل لله أمثلاً ، في نفس الآية التي جاءت لتنفى المثلية والمثل . وما أضرار وأوضّر الا لزّ منطق المتفلسفة في محيط الأدب ، وأخذ بهذا النسق البعيد عنه أشد البعد . ومن أجل ما كانت عليه الآية من تجاذب الرد والمناقشة ، الفت فيها رسائل كأنها المعضلة الخطرة ، ولما نزل يبحثونها .

وأنا لا أستجيز لنفسي أن أقف من هذه المجموعة الثرة بالأفكار ، موقف الملحد لها أو المقبر . وإنما أريد أن ندرسها كما سبق وصرحت ، كفكرة نبتت في محيط هذا الفن ، مثلما يدرس المتخصص بالفلسفة نظرية الحكماء في الأفلاك ، والعقول العشرة ، ونظرية إدراك الكواكب وما إليها من الالاهي ، ونظريتهم في الثقل وأنه قوة أو كمية وما إليها من الطبيعي .

* * *

وأما ما يجب أن ندرس من البيان كفن عملي لنا اليوم . فشيء غير هذا أبداً . لا يستقيم معه ولا يسايره ولا يأخذ نهجه . وإنما علينا أن ندون فنه مرة أخرى . ولقد تمثل هذا للاولين على أوضح صورة واليك ما يحدثنا (الزركشي) بعبارة مأثورة في نقد العلوم (أما علم الحديث والفقه فقد نضج واحترق ، وأما علم النحو والاصول فقد نضج وما احترق ، وأما علم التفسير والبلاغة فما نضج ولا احترق) ونرى لنهجه الجديد أحد وجهين .

(١) الغاء كل مباحثه واصطلاحاته سوى التشبيه والكناية ، فان ما بقي يرجع إليهما من أقرب الطرق ، إذا أنصفنا التطبيق ولم نتجرّج عليه بتجبل محض . فهذه (الاستعارة بالكناية) يمكن أن ترد الى التشبيه الكنائي فيقال في مثل .

« وَإِذَا الْمَنِيَةُ انشَبَتْ اظْفَارَهَا الْفَيْتَ كُلِّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ »

شبهنا المنية بشيء له أظافر ، وأرسلناه كناية عن الامساك في دقة وشدة

تعلق ، وما وراء هذا من التخيل تخيل ؛ أو بدون ملحظ التشبيه أصلاً ، وإنما من أول الأمر يقال جعل للمنية أظفاراً كناية عن دقة التعلق وعسر الخلاص .

ويمكن أن نرد مثل (لا صلبنكم في جذوع النخل) إلى الكناية أيضاً والمعنى لا صلبنكم صلباً شديداً . لأن التعلق في الظرفية أشد . وإذا أبقينا على التضمين النحوي في اصطلاحاتنا (وما فهمناه على أنه حيلة اللغوي ليعلل به فوضى العربية في الأدوات وعدم استقرارها كما جاء بحثه في موضوع التعدية واللزم من المقدمة) أمكن رد الآية إليه في غير عناء .

وعندي أن الأولى أن ترد الاستعارة في الحرف إلى التجريد ، وعليه فالكلام : حقيقة . ومجاز ، تجريد .

والحقيقة - قسمان (١) لغوية وهي ما كانت على مقتضى الظاهر (ب) ما كانت على خلاف مقتضى الظاهر . وتشمل المجاز العقلي . والمجاز بالحذف . والمجاز بالزيادة . من كل ما كانت الحقيقية مرعية فيه بملاسة أو رمزية . وهذا بقطع النظر عن أن يكون في الاسناد أو في ظرفية أو في فضلة تابعة .

والتجريد - قسمان (١) تضمين نحوي (ب) تضمين بياني . والمجاز قسمان (١) تشبيه (ب) كناية وكل منهما : مطلق . مرشح . مجرد . (وتعريف المجاز عندنا كتعريفه عندهم وهو الاستعمال في غير الموضوع لعلاقة مع قرينة مانعة) . ومن ثم يرد كيف يعد التشبيه مجازاً ؟ والجواب عليه ليس بعسير بعد إنعام النظر . فإن التشبيه بأنواعه الثلاثة يصدق عليه أنه استعمال في غير ما وضع لعلاقة وهي وجه الشبه ، مع قرينة وهي التصريح بالشبه ، وتتقوى القرينة باداة التشبيه ، ولكن بعد أن نفهم في (القرينة والعلاقة) معنى فيه تسامح فالتشبيه المطلق - هو المذكور فيه الأداة ووجه الشبه .

والمرشح - هو المحذوف منه الأداة ووجه الشبه .

والمجرد – هو المذكور فيه أحدهما .

والكناية المطلقة – تشمل : الكناية البسيطة كزيد كثير الرماد، والمجاز المركب (أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى) .

والمرشحة – تشمل : المجاز بالاستعارة مطلقاً والكناية المركبة مثل (ليس كئله شيء) .

والمجردة – تشمل : المجازات المرسله مثل (إني أراني أعصر خمراً) كناية عن شدة وضوح الغاية وهكذا ينبغي أن لا يفهم من عبارتنا بالاصطلاح ، أنا نبقى عليه وفيه موطن العلة ، بل كان الغرض منه توضيح كيف ترد مسائل علم البيان إلى هذا التقسيم . وإلا فالاصطلاحات التي يتم الاحتفاظ بها هي .

(الحقيقة . والمجاز . والتجريد . والتشبيه . والكناية . والمرشح . والمجرد . والمطلق حسب) وما وراءها لغو من اللغو في سياسة التعليم .

(٢) من الوجهين – أن يقال . الكلام حقيقة ومجاز . وكل منهما . كناية . وتجريد .

والكناية الحقيقية – تشمل الكناية البسيطة . والتشبيه . والمجاز المركب .

والكناية المجازية – تشمل كل كناية انبنت على تشبيه . والكناية المركبة .

والتجريد الحقيقي – يشمل التضمين النحوي

والتجريد المجازي – يشمل المجاز العقلي . والمجاز بالحذف . والمجاز بالزيادة .

وكلا الوجهين منبيان على اعتبارات مختلفة لم نأت عليها اقتصاداً في بيان الفكرة

واقْتصاراً على مقدار الاقتراح . وإذا أبدى المحيط العربي استعدادَه لدرس هذه الأفكار يجد . بعيداً عن الهوى الثائر . أخرجنا ما نقف منه على مقدار الضبط والسهولة في كل من الوجهين بل الدقة أيضاً في حصر مسائل الفن .

المعاني والبديع والنحو والصرف

سأتكلم عليها كلاماً مجملاً وعاجلاً على مقدار اجمال العنوان ، لأن ما تناول من النواحي . اما بيانيه صرفة كما في الأولين . واما لغوية على وجه الاعراب أو البنية كما في الآخرين .

فالمعاني – للغة بمثابة المنطق في علوم المعقول . وتنقيحه بعدم درسه في كتب القواعد كعلم . بل يدرس على نهج في كتب الأدب كما نجد الجرجاني في (دلائل الاعجاز) وعند الرّمحسري في التفسير . بتهديب يتسق عند أخذه . في اسلوب مدرسي تخريجي . وهذا يكون أدخل في النوق وأقرب مناسطاً بالنفس . وكذلك البديع

والنحو – صعوبته ليست في نفسه . وليس لأنه يحتاج إلى تكميل . أو من نقص يبدو في قواعده . فإنه بحق أو في المجموعة الدراسية التي أعطاها علماء الأدب وأصحها أيضاً . وإنما صعوبته آتية من أن الاجتهادات التي تمت عليه في خلال عصور عديدة كانت تنضاف اليه مجتمعة . بحيث يستوعبها الفن بدون تصنيف ولا ربط بينها . ومن ثم كان كثله مجموعة اجتهادية لم تنفح ولم ترتب . وعليه فليس يلزمنا فيه إلا أن تقتصر من علمه على أبسطه وأدخله دون ما وراءه . ونختار من مذاهب النحاة ما ينتهج وذوق العرب اليوم . دون ما نظر إلى كبير موافقتها للآثار الأدبية المحفوظة . مادامت قد عرفت لغة عربية وحفظت على أنها كذلك لانكسرفها ولادخل . وبذلك ينسبك في شكل فني وأسلوب تخريجي مدرسي . وطريقة تربوية . والحق أنه كذلك واف بالمراد .

وكافل للغاية التي يطلب من أجلها . وليس في حاجة إلى زيادة درس فيما سوى تصنيف تلك الافكار وتأليفها على نحو يدخل في (سيكولوجية التربية) اصلاح النحوم أن يكون لغوياً إلى أن يكون فنياً محضاً يعني شعبة اختصاص أخرى .

والشيء الذي يجب أن لا يغفل عنه هو أن التصنيف المذكور ضروري أن يدرس على ضوء القواعد التي أقررناها في البابين الأول والثاني .. وعلى بصيص التطور الذي أثبتنا أثره على العربية من كل الجهات . وهناك دعوة ترمي إلى إصلاح النحو على صورة تجعل قواعده كَيْفِيَّة .. بيد لأفهم لها وجهاً يجعلها موفقة .

وأما الصرف – فهو في حاجة إلى التدوين مرة أخرى ويقتصر منه على أدخل مباحثه في النحو كالنسب والتصغير والجمع . وما بقي من الاعلال ومثله يضاف إلى علم الاشتقاق . ورأيت في أبحاث المقدمة ما ينسفه نفساً .

العروض أيضاً :

العروض وإن يكن وجه المناسبة فيه لموضوعنا ضعيفاً . حتى يبدو وأسبابه في مثل خيوط الشعاعة . تناولته وقصدته بالحديث كما لو كان من أركان الموضوع لانه من جملة أشياء العربية التي تستثار بالشكوى . ومهما يكن من ظروف هذه من الشكوى وقوتها ومناسبتها . فالحق أنها في هذه الفرع من فنون العربية حقيقة بالإثارة وجديرة بالاستماع .

فإن العروض هو الفرع الوحيد الذي بقي لا يدين إلا إلى عمل واحد فقط . فنحن ندرسه مترسمين حدود (التحليل) . وهو نتاج العقلية الأولى التي توفرت على اختراعه . والتحليل عدا عن أنه عمل منفرداً في شيء لم يسبق بلون منه .

يشر انتشاراً واسعاً على ما للعرب من أدب شعري يقايسه ويوازنه ويحاكي بينه ويستمتع لأذن دقيقة الحس ثم يجتهد بضبطه وتسميته . ويفرغ عليه كل ما به يأخذ صبغة الفن ..

وهذا عمل مهما قيل فيه . فانه واسع النواحي . رحب الجنبات يقتضي استقراء في الرواية وتعاوناً على النظر . لا يقوم له الواحد .

وعلى أنني أنظر في الخليل أمة عبقرية . وجماعة مولدين ونسقا فذاً . فلا أستطيع إلا أن أحكمه بالشخصية التي لا يمكن أن تنجيء إلا في آفاق محدودة . وكأنما لمس هذا أو لمسه بالفعل (السكاكي) في بحث الشعر من (المفتاح) فقال عبارة تنصف الخليل وتنصف الفن وتكبر من العلم والعالم .

« لا (١) يظن أحد الفضول عندهم في الباب من ضم زيادة على ما حصروه ليست في كلام العرب . فضلاً على الامام الخليل بن أحمد . ذلك البحر الزاخر مخترع هذا النوع . وعلى الأئمة المغفرين منه من العلماء المتقدمين رضوان الله عليهم أجمعين والا فمن أنبا لهم . لم يكونوا يرون الزيادة على التي حصروها من حيث الوزن مستقيمة . والزيادة عليها تنادي بأرفع صوت

لَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ

فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ (

إلى أن قال وهي أي استقامة الطبع المعلم الأول المستغني عن التعلم . فاعرف وإياك أن تقل اليك وزن منسوب إلى العرب لا تراه في الحصر . أن تعد فواته قصوراً في المخترع . فلعله تعد اهماله لجهة من الجهات . وأي نقيصة في أن يفوته شيء هو في زاوية من زوايا النقل لا العقل . على أنه أن عد قصوراً كان العيب فيه لمقدمي عهده حيث لم يهتوا لامام مثله ما يتم له المطلوب . من مجرد نقل الرواة ومجرد الاستظهار بذلك اللهم صبراً) .

فالخليل تفرغ بمفرده لوضع الفن بكل ما فيه من اصطلاحات . وبكل ما فيه من شكليات معتبرة اعتبار القاعدة . فمن ثم كان عملا غير هين . وعملا قد يترك واضعه متصعباً بضبطه . بيد أن النبوغ يَفْتَرَع الصفا وَيَسْتَنْدِي الحجر . (كما يقولون) . وهنا تنجلي عبقرية الخليل بكاملها حين بدأ عملا وانتهى منه . فانتهى في اعتبار الناس كذلك . وان كنت تعثر على اجتهادات للاخفش والزجاج وقطرب والحائمي فانها اجتهادات في الشرح فقط .

ونحن من وراء ما قدمنا نريد أن نصل إلى أن الخليل حين قرر ما قرر . لم يقصد به أنه كذلك قضية حاصرة . وانما يعني انها ظاهرة فقط . وأظن بأن الفرق بينهما واضح . وذلك لان كونها قضية حاصرة . يقضي بعدم جواز الخروج عليه . وأما انها ظاهرة فتعني وصف ما هو واقع دون حظر أو تحكم . والفرق في أخصر عبارة كالفرق بين التعليل والوصف .

وان كان قد أخذ عمله بعد ذلك على وجه الالتزام للشاعر بأن لا يتنكبه . غير ان الشاعر كان جوابه الصريح على هذا التخرج بلسان أبي العتاهية (اني سبقت الخليل) حينما قيل له في بعض شعره انه على خلاف علم الخليل . فقد وقع أن جاءت عنده في الخفيف عروض مجزوءة مخبونة مقصورة تصير فيها (مستفع لن) إلى (متفع ل) وتحول إلى (فعولن) وكذلك الضرب فيكون هكذا .

« فاعلاتن فعولن فاعلاتن فعولن »
قال ... « عَتَبُ مَا لِلْخَيْالِ خَبَرِي نِي وَمَالِي »

وكذلك ما استحدث من وقع المدق عند قصار وقال عليه .

« لِلْمَنُونِ دَائِرَاتٌ يُلُونُ صَرَفَهَا »
« حَتَّى يَتَّقِينَنَا وَاحِدًا فَوَاحِدًا »

وما أجدر كلمته أن يرسلها مثلاً. كل مجدد ملهم يقف منه المحافظون موقفاً حرجاً . وما أجدر الشعراء أن يقولوا اليوم كذلك . أو يتخذوا كلمة أبي العتاهية شعار نهضتهم . على معنى أنهم فوق سلطان النقد من هذه الناحية التي تعني الشاعر قبل الناقد . ثم هي من هبته على الادب . لا من هبة الادب عليه . ولقد كان هذا في قرارة الشعراء على التاريخ كشيء هم أولو أمره . فهذا (المتنبي) لا يلتزم ما التزموه من وجوب القبض في عروض الطويل . على ما أخذه به الصاحب بن عباد في رسالته (الكشف عن مساوئ أبي الطيب وهذا (البهاء زمير) . يشذ كذلك في أبيات بحيث لا يعرف لها بحر على ما ذكره (الصبان) في حد الشعر . وان راح يتعمل بلزها في بعض المجازيء بعنف .

وكذلك وجدنا الشعراء يفتنون دائماً — فكان ان استحدثوا المستطيل وما اليه من الموشحات والقوما . الى غيرها من الانواع الكثيرة التي ذكرها ابن خلدون وغيره .

والذي لا ينكر ، انه قد عرى الجماعة ضرب من التحكم في بعض دراستهم أو قصدوا أن يأخذوا الموضوع بشيء منه . واليك ما يذكره السكاكي وفيه تلمس ما نعني ، قال في الكلام على البسيط من المفتاح (١) .
(وعن الخليل ان العروض المقطوعة لا تجتمع غير الضرب المقطوع والكسائي يروي خلاف ذلك الى أن قال وفي قصيدة عبيد بن الابرص وهي (أَقْفَرَمِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ)

كثير من هذا القليل . وهذه القصيدة عندي من عجائب الدنيا في اختلاف الوزن . والاولى بها أن تلحق بالخطب كما هو رأى كثير من الفضلاء .
قف عند قوله (الاولى أن تلحق بالخطب) ففيه الشاهد الصريح لما نقرر .

واليك قصيدة (١) التمر بن تَوَلَّبَ المُحَلِّي التي يقول فيها :

« صَحَا الْقَلْبُ عَنْ ذِكْرِهُ تُكْنَمَا

وَكَانَ رَهِينًا بِهَا مُغْرَمًا ،

« وَقَصَرَ عَنْهَا وَآيَاتُهَا يُذَكِّرْتُهُ دَاءَهُ الْاَقْدَمَا ،

وهي تصح من المتقارب المثنى المحذوف الضرب والعروض . الذي اقتصروا فيه على العروض السالمة وهكذا مما نلمس نقصه . وعلينا أن نحرر من أمره ما يتساق مع مطالبنا . ويتسع لها وينهض بالادب .

ونحن من اعتبارات الاوائل بين ما يبيح لنا هذا الاخذ . فقد ذكروا في حد الشعر انه القول الموزون دون زيادة قيد (على نهج مخصوص) . مما يعلننا بأنهم لا يتخرجون من قبول النظم على غير الموازين المحفوظة . أو عليها مع تغيرات في الضروب لم تحفظ . ولا يستضيقون من اطلاق كلمة (شعر) عليها وان خرجت على مألوف ما أثر . ويؤكد هذا قول السكاكي حينما عرض لتعريف الشعر قال (٢) (ومذهب الامام أبي اسحاق الزجاج في الشعر انه لا بد من أن يكون الوزن من الاوزان التي عليها أشعار العرب . وإلا فلا يكون شعراً ولا أدري أحداً تبعه في مذهبه هذا) ...

وعليه فلا مانع من أن نعمل بجدي في هذا السبيل . وأن نأخذ بقصد وعزيمة وإن أبى علينا جماعة من الناس هذا النهج . فما أجدرنا أن نترك لهم كلمة (الشعر) ومجموعة أوزانه المحفوظة . ونعتمد في شأننا مذهب الامام أبي اسحاق الزجاج . من أن الشعر لا يقال الا لما هو جار على وزن من أوزان العرب . ونسمي ما نعمل اليه من التحلل . اسماً غير الشعر إذا كان كل ما في الأمر تغيير الاسم . ومن ثم تطلق للأديب الحرية بحيث يتسنى له افراغ ما يريده بكل مطاوعة ومواتاة ...

(١) راجع مختارات ابن الشجري ج ١ ص ١٦

(٢) المفتاح ص ٢٧٥ .

ويستوي هذا القصد عندنا في أن نقسم الكلام الموزون إلى شعر . ونظم .
والشعر — ما جاء على وَفْق ما حفظ عن العرب الأولين . في أوزانهم
وضروهم .

والنظم — ما جاء موزوناً على غير ما حفظ عن العرب . وهو مباح
للأديب ما دام صحيح الموسيقى لا تباين في مقاطعه ونبراته وهو على قسمين ...

(١) نظم يأخذ منهج الشعر ويتقيد به . ولكن يتحلل بأجراء التغيرات
مطلقاً في كل بحر ما دامت معروضة لتفعيلاته . ولا تخرج بالبحر عن جرسه .
ولا يتقيد بوضع تكون عليه العروض في البيت أو الضرب . بل يتحرر على
نسق ما رأينا عند أبي العتاهية في الخفيف . وتجد شواهد في كثير من الشعر
الذي مثلنا به في المعجم . واليك قطعة من قصيدة (١) :

« خَلِبَ الشَّبِخُ عَلَى حُنُكْتِهِ بِدِهَانٍ وَطِلَاءٍ وَرُوءٍ » .

« ظَنَّ مَعْنَى الْخُلْدِ فِي غَضَنِ الْحَيَاةِ »

وَيَنْحَهُ مِنْ خُلْدِهَا الزَّاهِي الْكِسَاءِ »

فأنك لو أخذت العروضين في البيتين لوجدت بينهما في وزان تفعيله
العروض اختلافًا لا يصح في نهج الشعر . فالأولى . محذوفة . والثانية محذوفة
مزالة ... واليك مثالا من قصيدة على الخفيف ليتضح عليها الغرض .

« إِنَّمَا بِسْمَةِ الْحَيَاةِ أَمَانِي فَأَعْظِمُ بِبِسْمَةِ الْأَمَالِ »

« فاعلاين . متفعِلن . فعلاتن . متفعِلن . فاعائن »

(١) وهي قصيدتنا : رحلة الى الخلد

« عَلِمَ فِي الْجُنُوبِ قَدْ ظَلَّلَ
 الأجنالَ تَبْهًا وَآخَرَ فِي الشَّمَالِ »
 « فَعَلَاتَن . مَتَفَعَلَن . فَاَعَلَاتَن فَاَعَلَاتَن . مَتَفَعَلَن . فَاَعَلَاتَن »

وبمقايضة ما صارت اليه التفاعيل من أبيات القصيدة يتبين لك مقدار ما
 نقصد من الأخذ الجديد . الذي يتسع بالأعاريض اتساعاً لا يخرج بها على سنة
 البحر ولا يغير من موسيقاه ولا جرسه . بل ربما كان إلى بدائه الأذواق أقبل
 من بعض الزخافات التي قبلوها لشعراء سابقين . من مثل (١) ما ذكره الآمدي
 في شعر أعشى بن النباش التميمي .

« وَيَلُ أُمَّ بَنِي الْحَجَّاجِ إِنْ نَدَبُوا
 لَا بُخْلَ فِيهِمْ وَلَا فِي الْخَصْمِ إِشَارُ »

وتقويمه (ويل لأُم بني الخ .

وكذلك نجد الجماعة تقرر في زحاف الخفيف . ان التشعيث يجري في
 فاعلاتن الضربية والعروضية . ولكن مع التصريح لا غير . واختلفوا في كيفية
 لإيقاع التشعيث . وهكذا مما تجد في القصيدة المثبتة مجاوزة شأنه وخلافه . وانما
 قيدناه بالنظم الشعري من حيث هو جار مع أوزان العربية بازاء تام إلا في
 تعميم اجراء التغيرات على الشرط السابق من عدم الخروج بالبحر ولا الاخلال
 بالتوازن الموسيقي . كما يظهر من عمل أبي العتاهية على الخفيف . فعندهم
 التشعيث لا يجري في بعض البحور . وعندنا يجري في كل وتد مجموع من
 أي بحر وهلم جراً . ونعني بالتجاوز والخروج أن يجمع في القصيدة الواحدة
 بين بيت تام وبيت مجزوء . أو التغير بحيث ينقل البيت من بحر إلى بحر آخر
 بداخله على قرب . ومن ثم نعرف أن المحظور هو هذا فقط . وما وراءه من

لرؤم للعروض في القصيدة أو للضرب أو للتفعيلة على وجه فمما لا نرى أمره .
حتى ولو كان بين البيتين في العروضين . حذف وكف كمثل (١) (شعر) .

« وَفِيهِ افْتِدَاءٌ حَقُوقٌ غَدَتْ تَتْنٌ بِلَيْلٍ إِذَا مَا اعْتَرَمَ »
« وَفِيهِ نِدَاءٌ يُصِمُّ بِرُوعٌ
ظَلُمُوا غَشُومًا إِذَا مَا احْتَكَمَ »

« وَفِيهِ نِدَاءٌ أَيَا الظَّالِمِينَ
رُؤِيْدًا رُؤِيْدًا فَلْيَلْحَقْ » يَوْمٌ »

فانك تجد بين عروض الأول وبين عروض الثاني والثالث مخالفة . إذ
الأولى مخنوفة . والثانيتان مكفوفتان . ولا وجه عندي لمنعه . وإن كان الأكل
التزام التغيير على أي الوجوه ولو في النظم .

(٢) النظم الجاري على ابتداء واختراع ككثير من أخذ شعرائنا اليوم
وفي السابق . فالمستطيل يقال له نظم ولا يقال له شعر . وكذلك الموشحات .
ومن ثم تجد كيف اقتصرنا باسم الشعر على ما كان بالوفاء التام على أوزان
العرب وبحورهم . أو بعبارة أدق بالوفاء التام على أوزان الخليل وبحوره .
لأننا لا نستطيع أن نَحْكَمَ العرب بعمل الخليل الذي لا بد أن يكون قد أتى
قاصراً على الإحاطة ببعض الشيء ...

وأرجو أن أكون أوضحت بهذا . منحي قد يجد الشعراء فيه سهولة
تحقق بعضاً من أهدافهم . فلا يعالجون من الشعر كما يُعالج من علك الشكيم .
وأنا أعرف أشخاصاً عندهم سري من الإلهام الشعري قعلوا عنه لاعتياصهم
بالشعر على فنيته المقررة . وهذا الاعتياص شمل كل شاعر مهما اقتعد . فقد
حدثني بعض (٢) من لغويننا هناك في لبنان . بأن الجزء الأول من ديوان المرحوم

(١) من قصيدة لنا . (الكلام للشيخ عبد الله)

(٢) هو اللغوي الكبير عبد الرحمن سلام .

أمير الشعراء (شوقي) في الطبعة القديمة . مملوء بالأغاليط العروضية .

وفي الحق لا أرى أفضل من اعتماد رأي الزجاج . وبه نتمكن من احلال ما نريد محل الاعتبار حتى من الجماعة المحافظة المستدقة .

الخاتمة

قلنا ، في مقدمة التهذيب ، إن حكاية المقدمة اللغوية هي قصة العربية . وإن حكاية صاحبها هي قصة الحرية . رأى الفكر العربي مغلولاً بعبوديات كثيرة ، أهمها عبودية العادة والتاريخ . وأبرزها في الجانب اللغوي . فاللغة بيت الكائن الحي ومرآة فكره . بل قد تكون اللغة وحدها وسيلة الإبداع ، ومرادف الإنسان . فالإنسان لغة . لا إنسان بلا لغة . اللغة غاية لا وسيلة ، مذ كان الإنسان غاية . سُخِّرَ له كل شيء .

من هنا ، كان الاهتمام بالعربية اهتماماً بالإنسان العربي . اتهام العربية بالقصور والعجز اتهام للإنسان الذي يتكلمها . المؤامرة عليها مؤامرة عليه . محوها محوه ، وإثباتها إثباته .

لذلك تحصت المقدمة أسباب الشكوى من العربية ، فإذا بها مبرأة مما يزعمون . ليست أصعب اللغات ، إن لم تكن أسهلها وأمرتها . هي أصلح للحياة والتطور . أثبت ذلك الغوص في تاريخها ، واستجلاء بدايتها ، ثم مسابرتها في أدوار رقيها ، وحلقات تطورها ، حتى خروج أصحابها من جزيرتهم ، وتوقفيها المفاجيء قبل إكمال دورتها التطورية . مما حملها بعض العلائق المتخلفة في الأفعال والمصادر والجموع ، والأوزان . ومما زاد في عمر هذه المتخلفات تزمّت اللغويين القدامى ، ومتابعة المحدثين لهم .

هذا داء العربية ، تنفته جهات خارجة عن طبيعتها . أما دواؤها فتخليصها من التروير عليها ، والازورار عما تُريد هي ، وعما كان يُريد أصحابها

منها . هذا اللواء الشافي تقدمه مقترحات المقدمة ، في حذف السماع من اللغة ، وتحكيم القياس ، فغنى اللغة إنما يجيئها من غنى قواعدها وانتظامها ، لا من أي شيء آخر ... وفي تحديد معاني الموازين ، وصوغها من أي ثلاثي كان ، وكذلك موازين الرباعي .. وفي توحيد معاني المشتقات جميعها للمادة .. وفي الاستفادة من قاعدة الاشتقاق الكبير ، وسنة الرباعي ، والمعاقبة أو الإبدال .. وبالتالي في إدراك غائبة اللغة ، وسهر المجامع على مسيرتها ومساعدتها على التطور ، بما تهيئه لها من الوضع الجديد في المعجم الجديد ، ومن التنسيق لشكلياتها المختلفة ، الخارجية كالخط والإملاء ، والداخلية كاليان والمعاني والنحو والصرف والعروض ...

في الباب الأول ، كانت رحلة التفهم لتطور اللغة ، وإدراك المعقول العربي من خلال أدوارها النشئية ، وحلقات تلك الأدوار . مشكلات ليست من طبيعتها . إنها دخيلة عليها . تولدت عن سببين كبيرين : خروج العربي من جزيرته قبل تمام تطورها ، ثم تزلزلت اللغويين القدماء وتمسكهم بالسماع ، ومتابعة اللغويين المحدثين لهم ، رغم ضرورات العصر الجديدة ..

في الأبواب الثلاثة الأخرى ، كانت أهداف التنقيح الجديد الذي اقترحه الشيخ عبد الله العلايلي للسير بالعربية بعد توقفها . ولدفعها إلى المستقبل الممدود . لتكون خالدة بين أسيائه الباقية .

وفي سبيل ذلك المستقبل المنشود ، للغتنا العزيزة ، وشعبها العظيم .. تنادى إخوة لنا ، من لبنان وسورية ، إلى إخراج هذا الكتاب بشكله الجديد .

وفي هذا السبيل ، أغتمُ الفرصة لإبداء الملاحظات التالية :

١ - الإلحاح على ما أُلحَّ عليه الأستاذ أمين الخولي ، في كتابه : مشكلات حياتنا اللغوية . من ضرورة اعتماد الفكرة التطورية التي فتح أبوابها الشيخ

عبد الله العلايلي ، في هذا الكتاب ، لأنها وحدها الفكرة الجدية ، والحقيقية التي بها تزال مشكلات حياتنا اللغوية . أو لغويّات حياتنا المشكلة ^(١) .

٢ - اللفت الشديد إلى أهمية ما نادى به مؤسس الندوة اللبنانية الأستاذ ميشال أسمر ، من ضرورة تنظيم مجلس دوريّ يُسمَع به الشيخ العلايلي ، وتسجَلُ أحاديثه ثم تنشرُ ، لأنَّ له بارقات وانطلاقات نادرة في التحدث العفوي ^(٢) .

٣ - تنفيذ ما تمنّاه المرحوم الأستاذ رثيف خوري ، من واجب الانتفاع بعبقريّة الشيخ عبد الله العلايلي وعلمه الأصيل المبتكر في قضية ضخمة كقضية اللغة العربية . وذلك :

أ - بانجاز ما بدأه في قاموسه ، المعجم والمرجع ، وكلاهما معجم للغة العربية حديث حقّاً بمنهجيته ومادته .

ب - بالانطلاق من نظريات الشيخ إلى تحقيق ثورة صحيحة في اللغة العربية وكتابة قواعدها وأساليب تدريسها وتفجير المزيد من طاقاتها الغنية ^(٣) .

٤ - هل من حقّنا أن نحلّمَ بالمستقبل الممدود الذي يُطلُّ من وراء أنظريات شيخنا العلامة ، للغتنا العربية ، ولشعبنا العربيّ ؟.. وهل من حقنا أن نقف ، على الصعيدين ؛ اللبناني والعربي ؛

فعلى الصعيد اللبناني ؛ أمنية أن نرى المجمع اللغويّ يشقُّ طريقه إلى الوجود ، ثم يحمل إلى الوجود لغةً متطورةً ، تتسع لكل متطلبات الحياة

(١) مشكلات حياتنا اللغوية : ص ٩٦ - ١٠٦ /

(٢) محاضرات الندوة . ص ١٧ . نشرة ١١ - ١٢ . ص ١١ /

(٣) المرجع السابق ص ٩

المتطورة ... ومن حق لبنان أن يجددَ ريادة العبرية الأبجدية ، بهذا العبريِّ المعجزة، الشيخ عبد الله العلايلي..وأعلام العلماء العاملين بفقه العربية، في لبنان ...

وعلى الصعيد العربي ، أمنياتُ أن نعيش جراءة الجامعات فيها ، بحيث تجعلُ لنقد فقه اللغة المتطور ، منبراً حرّاً ، وكرسيّاً خاصاً . وتطلقُ به الحرية للشيخ عبد الله العلايلي ، تخطيطاً وتنفيذاً بمعاونة العباقرّة الأحرار ، الذين لا يؤمنون بالأسوار ، من هذه الأمة .

٥ - الحلم والتمني قدرتان معجزتان . فإذا ترجمتا عملاً تحقق كلُّ تطور وابداع . ولئن كانت فئة قليلة العدد من الطلاب الثانويين قادرة على إنجاز عملٍ مثل إخراج « مقدمة لدرس العرب » مرة ثانية . فلأننا ننتظر من أمتنا العربية كثيراً . إن على الصعيد الرسمي ، حكوماتٍ وجامع . وإن على على الصعيد غير الرسمي ، دورَ نشريٍّ ومثقفين ...

٦ - أعود أخيراً للتأكيد على قصة العربية ؛ في سيرها .. في توقفها .. في مستقبلها .. ولكنني هذه المرة ، أترك الشيخ يروي القصة ، في مقدمة المعجم وهو يتحدث عن الكتاب الذي نضعه ثانيةً بين أيدي القراء العرب ؛ غنيتُ المقدمة اللغوية . قال :

«والشيء البارز الذي أردناه من وراء ذلك الكتاب، هو التأكيد على ان ما تعلمناه ولم نزل نتعلمه ، بات في حاجة كبيرة الى معاودة درسه وتجديد تدوينه ، على وجه يكون أكبر حظاً في باب الصدق ، وأوفر نصيباً بمعنى الدقة

ومهما يكن من شيء ، فقد قررت في الكتاب المنوه به ، ما رأيته معقول العرب في اللغة من وجه ، ومقبل عثارها على نحو يُعدُّها للمستقبل الممدود من وجه آخر .. واعتقدت اذ ذاك ، ولم أزل عند معتقدي نفسه ، بان عملية الوضع التي تأخذ غير هذه السبيل ، ليست في الواقع إلا مداورة للغة لإلتئامها ولا تنهض بوجودها في شيء .

ولقد آن لنا أن نأخذ بمذهب الجد ، وإلا وُضعت العربية في الموضع القلق والمحل المتهاافت والمضمار الضيق . وتبعة كل اولئك إنما تقع على كاهل اللغويين وحدهم حين وقفوا موقفاً لا يحيد عما تواضعه سالفو اللغويين ، من قوانين لم تكن في اولها الا وهماً خاطئاً ، أو نتيجة درس غير مستقيم ولا محقق ، كأكثر ما نزرع تحته من تقاليد وعادات ، لم تكن في الواقع البعيد الماضي أكثر من مغالط صيرها التاريخ عقائد .

وبقيناً أني لا أجد منصفاً يتقن وسائل الدرس ، يرتاب في أن تقديرات اللغويين التي ندعوها اليوم علم اللغة ، لا تجاوز كونها من نوع ما نسليه الفكرة الشخصية ، فهي تعبر عن ملحظ مقدرها وأسلوبهم في الادراك ، بأكثر مما تعبر عن ملحظ العربية نفسها .. وعليه فمن الغث البارد أن نقف عند حلود ما سموه قياساً وسماعاً .

نعم لشد ما يحفظني ويغيطني ، اعتماد لغويينا اليوم شكلاً قاسياً من المحافظة ، وهم يشهدون من مطالب العصر على اللغة ، ما كان كافياً ان يزحزحهم .. وخير العربية اليوم ، انما يرجى من ذلك المتّجه الذي يبتدىء البحث اللغوي من جديد ، ويأخذ اعتبارات المدرسة القديمة على انها اعتبارات فقط ، لا على انها اللغة او قانون عملها الثابت .

وهذا الأخذ من شأنه ان يميز ما هو أصيل مما هو مجتلب ، وأن يسلم اللغة الى الحياة إسلاماً عفويّاً ، أي أن يردها الى محلها من الحاجة والضرورة .

فاللغة — ومنزلتها من التصنيف الاجتماعي ، أنها مؤسسة مرتبطة ارتباطاً مباشراً بنشاط الإنسان — تتحرك بقانون الغاية لا السببية .

فاذا غلبت بقانون السببية الصُّرف ، وأخضعت له في قسر وعنت ، مثلما فعل قدامى اللغويين ، تنزل رأساً وتقلب الى بناء فوق منقطع ، واذ ذاك تحدث الهوة بينها وبين الجماعة وتوضح ، لتؤول في النهاية الى اداة

لإرغام ، تعبر الجماعة عن وطأتها بتأفف مكظوم ، ثم بتحريك انتفاضي للخروج وفي هذا وحده ، سر ما تظالعلك به الجماعات اليوم من تصعُّب حيال العربية .. وظُنَّ أنه لشيء أصيل في طبيعتها ، حتى لخامر هذا الظن المنقطعين إليها درساً وتتبعاً وبِحُثٍّ .. واليك حكاية سيرها وتوقفها في يسر :

البيئة العربية الأولى ، على ما عرف التاريخ ، كان اللسان فيها — الى جانب منزلته الاساسية المرتبطة مباشرة بالنشاط — المعطى الفني الأوحده ، اصف الى هذا انها بيئة خلّت من الطبقة .

فلا بدع اذن ان يرقى هذا اللسان تبعاً لرغبة الترقى المستمرة لدى الكائن ، وأن يتأنق ايضاً بالغاً مبالغه في الاناقة باعتبار انه المعطى الفني الأكل والواحد ، وأن يشيع شيوعه التام بين الفئات بحكم عدم الطبقة .

ومن هنا تدرج جلياً ، كيف كان هذا اللسان العربي ، بخصائصه الفصحى ، لسان العامة والخاصة دون ما تميز ، واللسان الدارج في غير احتساب لمنازل وفروق .. وبالتالي تدرج ، كيف كان هذا اللسان اداة اجتماعية مباشرة يتحرك بقانون الغاية المتحولة دواليك بين الكمية والكيفية .

وما هو حتى أُذِن للوجود العربي بان يمتد امتداده ، واتفق لحركته ان تنطلق هنا وهناك .. وكان من نتائجه المباشرة ، الخفض على تعبئة اجتماعية ذات شكل هرمي ، جاء فيها قمةً اربابُ هذا اللسان .

حتى اذا تأكدت هذه التعبئة الضامة لشعوب شتى ولغات كذلك ، طبقاتها بما انتسب اليها من شعوب وبقايا لغات ، في صراع اتخذ اشكالاً عديدة ، ودار في مدارات مختلفة كان من نتائجه في اللغة ، تولد « النحو » الذي هو — قطعاً — من عمل القوى الطالعة ، وكان بمثابة « تأميم » لما تستبد به الطبقة الشريفة مظهراً من مظاهر الامتياز .

وهذا وحده هو ما يكشف عن وجه السر في التسمية « بنحو » اي اتجاه ، والمعنى ضوابط في اتجاه العربية لا انها هي هي ، ولا تُلقَى بالاً لحكايات القدماء المخترعة اختراعاً لتفسير التسمية .

واذا انت انعمت النظر جيداً تحت هذا الضوء ، يبدو لك جلياً ، كيف بُني النحو بناء حركياً متطوراً متسعاً ، يسعى بقانون الغاية ، مما ظلت العربية معه أداة اجتماعية مباشرة .

يبد أن المدرسة اللغوية ولا سيما فرع البصرة ، تخلّت اذ ذاك ، واعتمدت السببية العقلية اعتماداً مطلقاً أدت الى التمكين لنظرية العامل في تعسف كبير .. وهذا من شأنه ان يجعل الاستمداد وفقاً على « اللغة التراث » دون اللغة الناحية نحو العربية او قل بتعبير أخصر : دون « اللغة النحو » ، ومن شأنه أن يحمل على التزيّد من ضروب الاحتمال التماساً للتعليل .

أقول إن صنيع هذه المدرسة اللغوية ، وقف بالعربية وقوفاً ظهر أثره الواضح ، عندما حدث داخل المجتمع تراكم في الكمية اللغوية لاشتات الشعوب ولا شتات لغاتها ، هذا التراكم الذي من شأنه - اذا بلغ الذروة - أن تتحول فيه الكمية الى كيفية .

وبدلاً من أن تمثل العربية الفصحى هذا التكيف الجديد وتتطور به ، انكسبت عنه وانقطعت دونه . فكان من ذلك ان اتخذ التكيف الجديد سبيله إلى إبداع الاشكال اللغوية الدارجة « العاميات » ، وباتت العربية الموضوعة داخل الاطار المدرسي بما افتن من ضروب الافتراض الفكري ، وهي بناء فوقي منقطع ، يتزايد الانفراج وضوحاً بينه وبين تشكيلات المجتمع وحاجات الجماعة يوماً عن يوم .

وما أظنني في حاجة الى التنبيه من بعد ، الى ان العاميات الدارجة ليست

متزلة في « سُلّم التصاعد » ، بل خطوط منحرفة تُلرّع بها التطور في حركةٍ تشكّله الدائبة .

ونحن اليوم في المجتمع العربي ، إزاء تراكم في الكمية لاشكال العاميات ، وهو يؤذن حتماً بتحول الكمية الى كيفية .. فاذا عرفنا من جديد كيف نهيء العربية تهيئاً يتفق وهذا التكيف ، نكون قد أعنا التطور على عمله حقاً في هذا الجانب ، وبالتالي نصل خطه متجاوزين ما انحرف منه .

وهنا تبرز جناية التزمت اللغوي على حقيقتها ، كما تتضح الضرورة التي باتت تدعو الى تغيير مناهج دراستنا اللغوية وطريقة قياسها في الوضع والاشتقاق وما يتبعه من اشكال الاستعمال .

أعمال المؤلف

- ١ -

أبحاث مستقلة نشرت ؛ بعضها طبع في ١٠٠٠ ص
كمعرفة الله ، وبعضها لا يتجاوز ثمانين صفحة ، كالثقة
بالتراث والمستقبل ؛ مرتبة حسب الحروف الابدجية

- أ -

- أساسيات النحو العربي ؛
- الأسلام كما بدأ
- اعلان للحب
- الانسان والتاريخ في شعر أبي تمام
- الايمان ؛ في دروس عصريه ؛
- الإبداع والنقد ، « نظرية وممارسة » ، السؤال ، ط ١ - ١٩٨٥
- ب -
- في رسالة الشعر ومنهج النقد ؛
- البحث والباحث ؛

- ت -

- التأليف وغاية البحث العلمي ؛
- التراث والمستقبل في عالم اللغة ؛
- تحويل المحنة منحة
- تربية العاطفة والعقل
- تربية الباحث الحر
- تربية ستمائة مليون حكيم في شعر من الصين
- تفسير القرآن المرتب ، منهج لليسر التربوي ،
- تفسير الحديث النبوي في دروس عصرية ،
- تهذيب المقدمة اللغوية للعلالي ،

- ث -

- الثقة بالتراث والمستقبل ،
- الثمار الشاهدة في حضارة التقدم

- ج -

- جدل القومية والأنسانية في الفكر العربي

- ح -

- الحج ؛ معانيه العصرية ؛

- حوارات ؛
في الثقافة ،
ومجلة الدراسات العليا ،
والموقف الادبي ،
وملحق الثورة ، دمشق
والمرأة العربية ،
والقبس ؛ كويت
والاسبوع العربي ؛ بيروت

- د -

- دعوة مثيرة للتفوق بتعليم اللغة ، من جمال النحو
ومجمله ،
- دورة الانفعال الشعري في ديوان عاصفة .

- ذ -

- الذكاء لنحترم ترابنا من جديد

- ر -

- روضات الآراء والقيم النقدية ، أجزاء

- ش -

- الشبيبة والقادة
- الشعر الحديث جدا في الوطن العربي والمهجر

- ص -

- الصحافة والاعلام النافع
- صناعة الكتابة للجميع
- الصمت والكلام في قضايانا الكبرى

- ض -

- ضحك الاعصاب للصعاب

- ط -

- طابع الشعر الاسطوري
- طريق الباحث الحر
- الطلاب أولا ؛ ١-٢ ؛
- الطلاب وانسان المستقبل المنقذ

- ع -

- عبقرية الانتباه ؛
- العرب والامة الوسط لتقديم الفكر العربي .

- ف -

- فرح الصائمين والصائحات
- فن المتعجب العاني وعرفانه ؛ « رسالة دكتوراه في الادب »
- فن الحياة فن الكتابة ، جامعة دمشق
- في رحاب المصطفى
- في مسرح الشعر والنثر

- ق -

- قصة الاسلام في عيد الغدير
- قصة القواعد
- القمر و طاغور وأنا

- ك -

- كتاب الآباء
- كتاب الأمهات
- كتاب الدراسات العليا ومناهج البحث .
- كتاب شجرة الكرز ومعيار التقدم والتخلف .
- كتاب المعلمين
- كوى إلى آفاق الشعر العربي

- م -

- مجتمع العرب وشخصيتهم في البلاغة
- المرأة في القواعد
- مسرح الجمال والحبّ والفن في صميم الانسان .
- مشكلات تحصيل الطلاب المسلمين في العالم
- مصابيح القراءة للتأليف العلمي
- المصادر والمراجع رؤى ومرايا
- معاناة عالمية في قصائد سويدية
- معرفة الله والمكزون السنجاري ؛

- «رسالة دكتوراه في الفلسفة»
- ملامح عالمية في قومية الرسم العربي
- من عام المرأة الى عام اللغة

- ن -

- النزعة الشعوبية في شعر مهيار الديلمي (نظرية ونقدا)
- وَحْدَةُ الْغَايَةِ وَتَنَوُّعُ الْمَنَاهِجِ
- أبحاث مشتركة
- الاسلوب الصحيح في البلاغة والعروض
- مع قاسم الجراح
- صناعة الكتابة ، مع فكتور الكك
- الشباب طاقة محرّكة خلاقة ، كيف توجّه ؟
- مع رؤساء الجامعات في لبنان .

- ٣ -

- أعمال شعرية
- أرجوحة بين مكة والقدس
- اسطورة الصحراء ، أولأنك حبيبي
- أوانس وعوانس
- حنان الماء على الغبار
- روح الفدائي
- رسالة النبع الحنون

- زنجية في بلاد السويد
- طائر الحب لا يموت
- مختارات أب لأبناء

- ٤ -

أعمال مذاعة

- الجمال والحب والفن كويت
- من أحاديث التربية
- الاتزان بالكلمة والآلة
- صداقة الصغار أم الكبار
- دورس عصرية في أحاديث نبوية
- المؤلفون والكتب « ١٣ » لندن
- دين الحب ؛ وأخلاقه . بيروت
- سعادة الوعي دمشق
- اللغة والحياة
- بارقات الحب وروح النقد
- مناقشات في الفكر والمجتمع
- الامهات في التراث وحقوق الانسان . باريس

- ٥ -

أعمال عامة :

محاضرات ، مقابلات ؛

مراجع الكتاب

لقد ذكرت المراجع الهامة في أماكنها من صفحات الكتاب ...
ونظراً لكثرة المراجع العامة ، مباشرة وغير مباشرة .. رأى الشيخ ،
صاحب المقدمة أن يُكتفى بهذه الملاحظة .. لأنه يرى – ونحن معه
في هذا الرأي – أن قيمة هذا الكتاب ، ترجع إلى خاطراته الجديدة ،
لا إلى كمية ما جمعه من كتب الآخرين .

محتويات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة التهذيب	٣٢ - ٥
حكاية الشيخ أو قصة الحرية .	١٢
حكاية المقدمة أو قصة العربية .	٢٠

الباب الأول

التطور اللغوي ونشوء العربية	٣٣ - ١٢٣
مغامرتان : مقدمة الباب الأول	٣٥
الفصل الأول : العربية واللغات	٤١ - ٤٣
الفصل الثاني : أدوار اللغات ونشوء العربية	٤٤ - ٧٥
تمهيد	٤٤
الدور الأول ؛ الانسان الفطري	٤٦
» الثاني : دور المقطعين	٤٩
» الدور الثالث : دور المقاطع :	٥٢
الحلقة الأولى : تكوين المنطق اللغوي	٥٣
» الثانية : تكثير اللغة	٥٤

٥٥	» الثالثة : التنبؤ اللغوي وموضع الزيادة
٥٧	» الرابعة : النضج اللغوي وقاعدة القلب
٥٧	ترتيب الجداول الهجائي
٥٩	قاعدة القلب (الاشتقاق الكبير)
٥٩	أ - تعريفها
٥٩	ب - تفصيلها
٦٢	موقع المادة من الدائرة
٦٣	معاني الحروف
٦٤	النتيجة
٦٧	ج - معقول العرب من خلال القاعدة
٦٩	د - خاتمة
٧١	الحلقة الخامسة : المعاني التركيبية وطريقة العربي في وضع الرباعي

الفصل الثالث : التطور في اللهجة ٩٧ - ٧٦

٧٦	تمهيد
٨٠	العهد الصوتي
٨٠	الدور الأول : صوتية اللغة والبقايا الأثرية
٨٣	» الثاني : الدورة اللغوية الطويلة
٨٣	» الثالث : النظرية الصوتية ودرجات الارتقاء
٨٤	النظرية : كانت العربية صوتية من بعض وجوها
٨٤	المؤيدات : البقايا الأثرية
٨٧	الأسباب التي حفظت الأثرية
٨٧	أ - التشخيص العلمي

ب - القصد الكنائي	٨٧
ج - حداثة الارتقاء	٨٨
د - الكتابة	٨٩
نتائج البحث في هذا الدور :	٨٩
أ - تأريخ التفريخ اللغوي	٨٩
ب - تثبيت قاعدة الأفعال الثلاثية	٨٩
المعهد اللغوي	٩٤
الدور الأول : الانقلاب والمعاجم	٩٤
» الثاني : التنوع والتوقف	٩٥
تأريخ نظرية اللهجة	٩٦

٩٨ - ١٢٣

الفصل الرابع : التطور في اللغة

نظرية التطور	٩٨
مؤيدات نظرية التطور	٩٩
١ - اللغويون الأولون	٩٩
٢ - كلمات اللغة المتطورة	١٠١
أ - أمثلة تطور الميزان	١٠١
ب - أمثلة تطور اسم الفاعل	١٠٣
ج - أمثلة تطور الأفعال	١٠٤
هـ - أمثلة تطور الاعلال	١٠٦
هـ - أمثلة تطور الصوتية	١٠٧
نتائج نظرية التطور	١٠٩

- الشعبة الأولى : ملخص تاريخ النشوء اللغوي ١٠٩
- الشعبة الثانية : استنتاجيته وتقع في خمسة فروع : ١٠٩
- ١ - المسافات التي عملها التطور في اللغة ١٠٩
- ٢ - أثر التطور على الأسلوب والبيان ١١٠
- ٣ - أثر التطور على الشعر ١١٠
- ٤ - أسلوب القرآن ١١٠
- ٥ - علائق الفوضى في العربية ١١١
- وصل ما انقطع من تطور اللغة ١١٢
- أ - عمل اللغويين لمعالجة ذلك ١١٢
- ب - شأن اللغة بقوانينها الثابتة : ١١٣
- الأمر الأول : وجوه التخلف ١١٣
- ١ - الأفعال ١١٣
- ٢ - المصادر ١١٥
- ٣ - الجموع ١١٦
- ٤ - الموازين ١١٧
- الأمر الثاني : التنقيح الجديد ١١٩
- تمهيد ١١٩
- أهداف التنقيح الجديد ١٢١

الباب الثاني

معقول العرب ومستقبل العربية

١٢٥ - ١٨٦

١٢٧ مقدمة الباب

الفصل الأول : السماع وأحوال الثلاثي

١٢٩ - ١٦٣

١٢٩ السماع أوليس في كلام العرب

١٣٢ الثلاثي

١٣٩ تأريخ فكرة الاشتقاق الكبير

١٤٢ القلب أو قاعدة الدوائر

١٤٦ قواعد الثلاثي الأخرى :

١٤٦ ١ - القلب اللفظي

١٤٨ ٢ - الاعلال

١٥٠ ٣ - الاتباع

١٥٤ ٤ - المزاجية

١٥٥ ٥ - التخفيف بالاسكان

١٥٦ ٦ - فعلية المصدر

١٥٧ ٧ - الرد إلى الأصل

✓ ١٥٩ ٨ - الضد

١٦٠ ٩ - الترادف

١٦١ ١٠ - تداخل اللغات

الموضوع رقم الصفحة

الفصل الثاني : الرباعي والخماسي والسداسي ١٦٤ - ١٧٨

١٦٤	 الرباعي
١٦٨	 الرباعي المثلي أو الجملي
١٧٠	 الرباعي غير الأصم
١٧٢	 النحت
١٧٤	 الخماسي والسداسي
١٧٥	 الابدال الاشتقائي او المعاقبة

الفصل الثالث : ظواهر العربية ١٧٩ - ١٨٦

١٧٩	 ١ - ظاهرة التعددي والازوم
١٨٢	 ٢ - ظاهرة الأفعال
١٨٣	 ٣ - ظاهرة التعريب
١٨٤	 ٤ - ظاهرة الاعراب
١٨٤	 ٥ - ظاهرة التذكير والتأنيث
١٩٥	 ٦ - ظاهرة التضعيف
١٨٦	 ٧ - ظاهرة الارتجال

١٨٦ الخلاصة :

الباب الثالث

داء العربية ودواؤها ١٨٧ - ٢٤٨

مقدمة الباب ١٨٩

الفصل الأول : داء العربية ودواؤها

أو تخصيص الموازين ١٩٣ - ١٤١

الفصل الثاني : اللغة غاية لا وسيلة ٢٤٢ - ٢٤٨

الباب الرابع

المجمع والمعجم وشكليات اللغة ٢٤٩ - ٢٩٧

مقدمة الباب ٢٥١

الفصل الأول : المجمع ضرورة ٢٥٣

الفصل الثاني : المعجم الجديد كيف نضعه ؟ ٢٦٥

الفصل الثالث : شكليات اللغة الخارجية : ٢٧٣

الخط ٢٧٣

الإملاء ٢٨٠

الفصل الرابع : شكليات اللغة الداخلية أو المعنوية : ٢٨٤

البيان ٢٨٤

المعاني والبديع والنحو والصرف ٢٨٨

الموضوع رقم الصفحة

العروض أيضاً ٢٨٩

الخاتمة ٢٩٧ - ٣٠٤

أعمال المؤلف ٣٠٥

لائحة المراجع ٣١٢

محتويات الكتاب ٣١٣

تصويبات

ص س

٨٧ ٦ - ولا بأس من إيضاح الخ ، كررت العبارة مرتين فاقتضى البيان .

٨٨ ٦ - سقطت من الأصل تنمة العبارة وهي : وأما ظن المفسرين أنه يعني صنفاً من الناس ، قيل التثنية وقيل غيرهم ، فمرجه الاسرائيليات (أنظر قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست ج ٢ ص ٣٠٥ ، وكتب التفاسير من أقدمها الى أحدثها ، ويقطع بما نقول أن التعبير المذكور ورد في القرآن الكريم في سورتي الكهف والانبياء بمعنيين يجمع بينهما ما سبق وأوضحناه .

ص س

١٠٤ ٢ - راجع المصباح ج ٢ ص ٨٦٢ .

١٠٥ ٢٢ - راجع المصباح ج ٢ ص ٨٦١ .

١٠٧ ٨ - راجع المصباح ج ٢ ص ٨٥٧ .

١٦١ ٦ - بل في الخ ، كررت العبارة مرتين فاقتضى البيان .

٢١٥ ١١ - سقط من الأصل : فعالة : خصوصيته الدلالة على البقية كالشمالة ، وعلى النثر المتجزئ كالبرادة والنشارة ، وعلى العوض المقتطع جزاء عمل كالجعالة والعامة .